احياء

الخلافة العباسية

في الفترة من ٥٣٠-٦٢٢ هـ/ ١١٣٥ - ١٢٢٥ م

الدكتور معن علي احمد مقابله

دروب

دار زمزم للنشر والتوزيع

إحياء الخلافة العباسية

في الفترة من ٥٣٠-٦٢٢هـ / ١١٣٥-١٢٢٥م

إحياء الخلافة العباسية

في الفترة من ٥٣٠-٦٢٢هـ / ١١٣٥-١٢٢٥م

تأليف

معن علي أحمد المقابلة

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

رقم(٣٥٦٧/٩/٢٠١٢)

الطبعة العربية الاولى ٢٠١٢

(ردمك) ISBN 978-9957-089-069-8



مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع

تلفاكس ٧٢٧٠١٠٠ ص. ب ١٢٨٤

اربد ٢١١١٠ الاردن

Email: hamada_company@hotmail.com

hamadacompany@yahoo.com



دار اليازوري

هاتفاكس ٤٦١٤١٨٥ ص. ب ٥٢٠٦٤٦

عمان ١١١٥٢ الاردن

www.yazori.com

إحياء الخلافة العباسية

في الفترة من ٥٣٠-٦٢٢هـ / ١١٣٥-١٢٢٥م

تأليف

معن علي أحمد المقابلة

الإهداء

إلى أبي وأمي وإخواني

وروح أستاذي الدكتور مصطفى الحياري

والذي أسأل الله أن أكون من علمه الذي ينتفع به يوم لا ينفع مال ولا بنون

الرموز والمختصرات

١- يشار إلى اسم المؤلف أولاً، ثم يذكر اسم الكتاب، ثم الجزء -إن وجد- والصفحة. مثال: ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٧، ص ٩٠.

٢- في حال ورود الكتاب مرتين متتاليتين يشار إليه بعبارة "نفس المصدر".

٣- ترمز الحروف التالية إلى ما يقابلها أينما وردت ضمن فصول الرسالة.

د.ت	دون تاريخ نشر
د.ن	دون دار نشر
ت	تاريخ الوفاة
ج	جزء
ص	صفحة
ط	طبعة
ق	ورقة للمخطوط
مج	مجلد
ع	عدد
هـ	هجري
م	ميلادي
ع.س	علي سويم

نظرة في المصادر

جاءت هذه الدراسة لتسليط الضوء على حقبة مهمة من تاريخ الخلافة العباسية تمتد من سنة (٥٣٠هـ/١١٣٥م) إلى سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥) وعاصر هذه الحقبة أربعة من الخلفاء العباسيين، هم: المقتفي لأمر الله، والمستنجد بالله، والمستضيء بأمر الله، وآخرهم الناصر لدين الله. وقد تولى هؤلاء الخلفاء، والخلافة لا زالت ترزح تحت وطأة النفوذ السلجوقي، ودار محور الدراسة حول محاولة هؤلاء الخلفاء للتخلص من النفوذ السلجوقي، والاستقلال بمؤسسة الخلافة.

وما كان لهذه الدراسة أن تخرج بالصورة التي هي عليه، لولا تنوع المصادر التي اعتمدت عليها، وأفادت منها، فقد زخرت المكتبة التاريخية بالعديد من المصنفات التي صنفت في تاريخ الدولة العباسية، سواء تلك المصنفات التي تناولت الخلافة العباسية، عبر التاريخ العام للمسلمين كمصنف ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، أو مصنف ابن الأثير، الكامل في التاريخ، أو تاريخ الإسلام، للذهبي، أو المصنفات التي تناولت تاريخ الدول التي نشأت في ظل الخلافة العباسية، كالدولة السلجوقية، ومن هذه المصنفات، مصنف العماد الأصفهاني، نصرة الفترة وعصرة القطرة، ومصنف الراوندي، راحة الصدور وآية السرور، ومصنف الحسيني ، زبدة التواريخ، وجاءت هذه المصنفات لتسليط الضوء على نشأت وتاريخ الدولة السلجوقية، وزخر في ثنايا هذه المصنفات الكثير من المعلومات عن الخلافة العباسية في ظل السيطرة السلجوقية.

ومن المصنفات التي أفادت منها الدراسة، كتب التراجم والسير، والتي جاءت مادتها غنية بالأحداث التاريخية من خلال مادتها المركزة في تراجم الاعلام، من خلفاء وسلاطين، ووزراء، وفقهاء وغيرهم، ممن ساهموا في صياغة تاريخ هذه الحقبة، ومن هذه المصنفات خريدة القصر وجريدة العصر، للعماد الأصفهاني، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، وسير أعلام النبلاء للذهبي.

ثم جاءت مصنفات البلدانيات التي تناولت التأريخ لمدينة من المدن الإسلامية، وقد زخر تاريخنا الإسلامي بهذه المصنفات، كمصنف، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي وتاريخ دمشق لابن عساكر وغيرها من هذه المصنفات التي ألقت الضوء على هذه المدن الرئيسة، والتي شكلت مراكز حضارية عبر التاريخ الإسلامي.

وأفادت الدراسة من العديد من المصنفات الأخرى، ككتب الفقه فيما يتعلق بالخلافة والسلطنة، وكتب نصائح الملك، وكتب الجغرافيا والرحلات وغيرها.

وسنلقي نظرة على أهم هذه المصنفات، والتي أفادت منها الدراسة، بشيء من التحليل، حتى نقف على أهمية هذه المصنفات، فيما يتعلق بموضوع دراستنا:

أولاً: ابن الموصلايا (ت٤٩٧هـ/١١٠٤م) العلاء بن الحسن بن وهب، أمين الدولة أبو سعد بن أبي علي البغدادي، وترك لنا ابن الموصلايا، بحكم موقعه في الإدارة الخلافية، كرئيس لديوان الإنشاء، وفيما بعد نائبا في الوزارة رسائل غاية في الأهمية، فهي وثائق صدرت عن ديوان الخلافة على شكل رسائل، كان معظمها لسلاطين السلاجقة، وقد حقق الجزء الثاني من هذه الرسائل الباحث عصام عقله، بأطروحته للدكتوراه في الجامعة الأردنية سنة ١٩٩٧[1].

وتعود أهمية هذه الرسائل، أنها قدمت لنا معلومات لا نجدها في المصنفات التاريخية لتلك الحقبة، سواء كانت سياسية، أو إدارية أو عسكرية، أو اقتصادية، أو اجتماعية، وقد أفادت الدراسة من هذه الرسائل، في بحث الفصل الأول، إذ أماطت اللثام عن طبيعة العلاقة بين الخليفتين القائم بأمر الله، والمقتدي لأمر الله، وسلاطين السلاجقة: طغرلبك، وألب أرسلان، وملكشاه، فقد توسعت الرسائل في وصف العلاقة بين نواب السلاطين في بغداد مع الخلفاء العباسيين، بحيث

(1) عن ابن الموصلايا وأهمية رسائله، أنظر:عقله،الخلافة العباسية في ضوء رسائل أمين الدولة، ص١١-٤٠.

اكتملت الصورة حول جوهر هذه العلاقة بين السلاطين ونوابهم، والخلافة العباسية.

كما قدمت هذه الرسائل معلومات غاية في الأهمية عن الجهاز الإداري للعباسيين والسلاجقة في بغداد ومجالات اختصاصاتهم.

ثانياً: ابن العمراني، (ت ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) محمد بن علي بن محمد. وصنف كتاب الأنباء في تاريخ الخلفاء، وهو من المصنفات المهمة عن هذه الفترة نظراً لمعاصرته للأحداث، ورتب ابن العمراني كتابه على توالي الخلفاء، بدأه من مولد الرسول -عليه الصلاة والسلام- إلى منتصف خلافة المستنجد بالله سنة (٥٦٠هـ/ ١١٦٤م)، ومع أن هذا المصنف يعد من أقرب المصادر التاريخية لحقبة الدراسة، إلا أنه يؤخذ على ابن العمراني عدم الدقة في سرد الأحداث التاريخية، إلى جانب انفراده بكثير من الروايات التاريخية، مما تطلب التعامل مع هذه الروايات بدقة وحذر.

وأفادت الدراسة من هذا السفر في الفصل الأول والثاني، وجزءا من الفصل الثالث، إذ قدم معلومات لا نجدها في كثير من المصادر الأخرى، فيما يتعلق بالدسائس بين رجال الإدارة العباسية، وعلاقة الخلفاء بالسلاطين، وعلاقة الخلافة بقوى الأطراف، كدبيس بن صدقة[1].

ثالثاً: ابن الجوزي، (٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) أبو الفرج عبدالرحمن بن علي البغدادي، محدث، وفقيه، وواعظ حنبلي، عاش في بغداد، وحظي ابن الجوزي، باحترام كبير من العامة والخاصة، وكان مقرباً من الخلافة العباسية ورجال إدارتها كالوزير ابن هبيرة، وابن رئيس الرؤساء، وابن العطار.

وعاش ابن الجوزي طيلة حياته بين إلقاء دروس الوعظ في مساجد بغداد ومدارسها، وبين التصنيف والتأليف، فقد صنف ما يزيد عن أربعمائة كتاب ورسالة في مواضيع متعددة بين الحديث، والفقه، واللغة، والأدب، والتفسير،

---

(1) ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص١٨٨، ٢٠٨، ٢١٣.

والشعر، والأصول، والتصوف، والطب، والوعظ، والتاريخ[1]. ومن أشهر كتبه في التاريخ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، وقد جاء هذا السفر ليؤرخ من بدء الخليقة إلى سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م، وقد رتبه حسب السنين، ومع أن المنتظم يهتم بالتراجم، أكثر من اهتمامه بالحوادث، للخلفية الثقافية التي تمتع بها ابن الجوزي كمحدث، وفقيه، إلى جانب أن حوادث السنوات العشر الأخيرة من كتابه، جاءت كأنها سيرة ذاتية للمؤرخ، فقد تحدث عن دروسه ومواعظه والأعداد الغفيرة التي تحضر هذه الدروس، والتي لا تخلو من المبالغة، لطبيعة التنافس بينه وبين باقي المحدثين والوعاظ في بغداد، أضف إلى ذلك توسعه في الحديث عن علاقته بالخلافة العباسية ورجال إدارتها. إلا أن هذه الحوادث تقدم لنا صورا حية عما كان يدور في بغداد، سواء في ما يتعلق بالخلافة العباسية، ورجال إدارتها، وعلاقتها بالسلاطين السلاجقة، أو ما يتعلق بالنواحي الاقتصادية، والاجتماعية، فالمؤرخ نشأ وترعرع ومات في بغداد، وكان على تماس مباشر بين العامة والخاصة، فكانت إشاراته عن الحياة الاقتصادية، وما يتعلق فيها من النواحي الاجتماعية، إلى جانب حديثه عن الخلافات المذهبية داخل بغداد، إشارات غاية في الدقة والأهمية[2]. خدمت الدراسة وأفادتها بشكل كبير.

وشكلت المشاهدات الشخصية للفترة التي عاصرها ابن الجوزي مصدره الأساسي، إلى جانب اعتماده على الروايات الشفوية، والتي أخذها ممن عاصروا الأحداث، كقوله حدثني أبو المنصور الأمين، وحكى إسماعيل بن أبي السعد الصوفي، وقال شيخنا أبو الفضل ابن ناصر.

---

(1) انظر تصانيف ابن الجوزي في: سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص٤٨٣-٤٩٩/ شاكر، التاريخ العربي، والمؤرخون، ص١٠٨-١١١.

(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٤، ١٧، ٤٤، ١٠٧، ١١١، ١١٨، ١٢٥، ١٣٤، ١٤٠، ١٤٦، ١٥٥، ١٥٩، ١٦٠-١٦٣، ١٧١، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٢، ١٩١، ٢٠٣، ٢١١، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١.

أما فيما يتعلق بالحوادث التي لم يكن ابن الجوزي معاصرا لها فقد اعتمد على مجموعة من المؤرخين الذي أرخوا لتلك الفترة، كابن البناء[1]، ومحمد بن هلال الصابئ[2] والهمذاني[3]، والمبارك السقطي[4] وغيرهم.

وشكل كتاب المنتظم مصدرا أساسيا للدراسة في معظم صفحاتها.

رابعاً: العماد الأصفهاني، (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) محمد بن محمد بن حامد، والعماد تنقل بين حواضر العالم الإسلامي آنذاك من أصفهان بلده الأم إلى خراسان فبغداد ومصر إلى أن استقر به الحال في دمشق، وعمل العماد في الإدارة العباسية، والسلجوقية، ثم التحق بخدمة نور الدين محمود، ويعود الفضل في التحاقه بخدمة صلاح الدين للقاضي الفاضل، وللعماد الأصفهاني مصنفات عديدة تنوعت بين التاريخ والأدب، وصبغ أسلوبه في معظم مصنفاته بالصنعة، والتكلف، واستخدام المحسنات البديعية، كسائر كتاب عصره آنذاك، ومع ذلك فقد كان العماد دقيقا في

---

(1) ابن البناء، (ت٤٧١هـ/١٠٧٨م) أبو الحسن بن احمد لم يصلنا من تاريخه سوى جزء من سنة ٤٦١هـ وسنة ٤٦٢هـ وأجزاء متناثرة في بطون الكتب كالمنتظم، وذيل تاريخ بغداد لابن النجار، وجاء كتابه على شكل يوميات تؤرخ للفترة التي عاشها، وحققها جورج مقدسي تحت عنوان يوميات ابن البناء. انظر عن ابن البناء: القاضي أبو الحسن،طبقات الحنابلة، ج٢، ص٢٤٣/ ابن رجب، طبقات الحنابلة، ج١، ص٣٢، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١١، ص٣٨١.

(2) محمد بن هلال الصابئ المعروف بغرس النعمة توفي (٤٨٠هـ ١٠٨٧م)، صنف العديد من المصنفات منها عيون التواريخ، وهو ذيل على كتاب والده هلال وتمتد حوادث ووفيات غرس النعمة من سنة (٤٤٨- ٤٧٩هـ) إلا أنه لم يصلنا بشكل مستقل، وإنما نجد معظمه في مرآة الزمان لسبط بن الجوزي، ومن كتب غرس النعمة الربيع إلا أنه مفقود ونجد معظمه في بغية الطلب في تاريخ حلب لإبن العديم، والكتاب الآخر الهفوات النادرة وقد وصلنا هذا الكتاب ولا يزال مخطوطاً. انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٥، ص١٦٨/ شاكر، التاريخ العربي، ص١٠٥-١-٦.

(3) الهمذاني، (ت٥٢١هـ/ ١٠٢٧م) أبو الحسن محمد بن عبد الملك، له العديد من المصنفات ضاع معظمها، ذيّل على تاريخ الطبري، ولم يصلنا من هذا الكتاب سوى الجزء الأول الذي يؤرخ به من سنة ٢٩٦-٣٦٧هـ كما ذيّل الهمذاني على تاريخ أبي شجاع الروذاري وعيون السير ولم تصلنا ونجد بعضها في المنتظم، وخريدة القصر، قسم العراق. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٤، ص٣٧/ السبكي، طبقات الشافعية، ج٦، ص١٣٥.

(4) المبارك السقطي، أبو البركات هبة الله بن المبارك بن موسى (ت ٥٠٩هـ/ ١١١٥م)، صنف معجماً لشيوخه في نيف وعشرين جزءاً، شاكر، التاريخ العربي، ص١٢٦..

كتاباته بحيث لم يطغى أسلوبه على الحقائق التاريخية.وتأتي أهمية مصنفات العماد في سعة إطلاعه، فتجوله في حواضر العالم الإسلامي، إلى جانب عمله في الإدارات المختلفة جعلته يقف على كثير من الحقائق، التي لا يتسنى لغيره الإطلاع عليها، فقد كان منشئ رسائل نور الدين وصلاح الدين الأيوبي وأحد كبار رجال الإدارة في عصرهما كما أضافت معرفته باللغة الفارسية أهمية كبيرة لمصنفاته، إذ اطلع من خلالها على العديد من الوثائق والمصادر التي كتبت بتلك اللغة.

وما يهمنا من مصنفات العماد الأصفهاني، سفره الموسوم بنصرة الفترة وعصرة القطرة، وهذا السفر يؤرخ للدولة السلجوقية منذ نشأتها وحتى سقوطها، وارتكز العماد في تصنيفه لهذا السفر على ما كتبه الوزير أبو شروان بن خالد الكاشاني المتوفي سنة ٥٣٣ هـ/١١٣٨ م في كتابه الذي وضعه باللغة الفارسية "فتور زمان الصدور وصدور زمان الفتور" ومع أن كتاب أنو شروان يؤرخ للفترة الواقعة من أواسط عهد الوزير نظام الملك إلى سنة (٥٢٦هـ/١١٣٣م) وهي بداية عهد طغرلبك بن محمد بن ملكشاه، فقد أفاد هذا الكتاب، العماد كون مؤلفه معاصراً ومشاركاً في الأحداث في تلك الفترة، وقام العماد بترجمة الكتاب وتنقيحه ثم أضاف إليه مقدمة تاريخية عن نشأة السلاجقة، انتهى بها إلى بداية ما أرخ له الكاشاني، ثم أرخ للفترة التي تلت طغرل بن محمد إلى نهاية الدولة السلجوقية، بمقتل آخر سلاطينها طغرل الثالث سنة ٥٩٠هـ- ١١٩٤م.

وقليلا ما يذكر العماد مصادره باستثناء الكاشاني، فقد اعتمد في كثر من الأحيان على مشاهداته الشخصية في الفترة التي عاصرها، ونجد العماد يميل إلى جانب الخلافة في صراعها مع السلاجقة، ولكن ليس على حساب الحقيقة التاريخية.

وتم تلخيص كتاب العماد الأصفهاني على يد، البنداري تحت عنوان تاريخ دولة آل سلجوق، وقد نشر الملخص، بينما لا زال السفر الأصلي مخطوطاً.

وجاء كتاب العماد الأصفهاني ليشكل مصدرا أساسيا للدراسة، سواء عن نشأت السلاجقة، أو علاقة السلاطين بالخلفاء، وجاء تصوير العماد لحالة الخلافة العباسية في ظل السيطرة السلجوقية، لتعبر عن قدراته كمؤرخ مدقق وناقد جريء.

خامساً: الراوندي، (ت٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م) أبو بكر محمد بن علي بن سليمان، ويعد كتابه راحة الصدور وآية السرور، من أوائل ما كتب عن تاريخ الدولة السلجوقية، منذ نشأتها، وحتى سقوطها، وتأتي أهمية كتاب راحة الصدور، أن الراوندي معاصرا للأحداث، فجاءت رواياته الممتدة من سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م إلى سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م روايات أصيلة ومفصلة، كونها جاءت من شاهد عيان. أما فيما يتعلق بالجزء المبكر من تاريخ الدولة السلجوقية، فقد جاءت أخباره مقتضبة، اعتمد فيها الراوندي على مصدر وحيد هو تاريخ سلجوقنامه لظهير الدين النيسابوري، والسبب في ذلك ندرة المؤلفات، التي صنفت عن الدولة السلجوقية في تلك الفترة المبكرة من تاريخهم.

ويورد الراوندي في متن الكتاب كثيرا من الأشعار والحكم والأمثال العربية والفارسية، والتي شكلت غالبية الكتاب، وكأن الراوندي ينظر إلى التاريخ على انه مجموعة من المواعظ والعبر فقد ذيل معظم حوادثه بهذه الحكم والأشعار، والتي جاءت في معظمها منسجمة مع الحادثة التي يؤرخ لها، وأفاد هذا السفر، الدراسة فائدة كبيرة سواءا عن علاقة السلاجقة بالخلافة العباسية أو صراعهم فيما بينهم على السلطنة وأثره على الخلافة العباسية.

سادساً: الحسيني، المتوفى ما بين سنة (٦٢٢- ٦٣٠هـ/ ١٢٢٣-١٢٣٢م) صدر الدين أبو الحسن علي بن ناصر، ويتناول كتابه أخبار الدولة السلجوقية منذ نشأتها، إلى سقوطها سنة (٥٩٠هـ/ ١١٩٣م)، ومع أن الكتاب يمتد إلى سنة (٦٢٢هـ/

١٢٢٥م)، إلا أن السرد الحقيقي للكتاب ينتهي بسقوط الدولة السلجوقية، ويعتقد أن هذه الإضافة جاء بها من مؤلف مجهول من شمال غرب ايران(1).

والكتاب في مضمونه يؤرخ للأحداث السياسية، دون التعرض للنواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ومن المصادر التي اعتمد عليها الحسيني كتاب الأصفهاني، نصرة الفترة، والمنتظم لابن الجوزي، والكامل لابن الأثير، وجاء سرد الحسيني للأحداث التاريخية حسب تسلسلها الزمني، إلا أنه لم يعنون فصوله تبعاً للسنين، بل جاءت على الموضوعات معنونة باسم خليفة أو سلطان أو ملك،وجاءت أفكار الكتاب موجزة ومركزة من خلال جمله القصيرة. أفاد الدراسة في معظم فصولها، وخاصة الفصل الأخير، فيما يتعلق بعلاقة السلاطين بالخلفاء وصراع البيت السلجوقي على السلطنة.

سابعاً: ابن الأثير، (ت ٦٣٠هـ ١٢٣٣م) عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الشيباني الجزري الموصلي، وهو من أشهر مؤرخي القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، ويعد كتابه لكامل في التاريخ، مصدرا أساسيا لكل من يتناول تاريخ المسلمين حتى الثلث الأول من القرن السابع الهجري، وكتاب الكامل رتب على السنين، إلا أن ابن الأثير -حرصا منه على وحدة الموضوع- كان يجمع الخبر الواحد في موضع واحد وإن تفرقت احداثه في سنوات مختلفة، ومثال ذلك حديثه عن التتار في حوادث سنة (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م)، فقد فصل في الحديث عن نشاتهم وبداية ظهورهم في أطراف العالم الإسلامي، وأفادت الدراسة من هذا السفر فائدة عظيمة ولا تكاد صفحة من صفحات هذه الدراسة تخلو من ذكر هذا السفر، لما قدمه من معلومات دقيقة عن الخلافة العباسية في فترة الدراسة سواء عن أوضاعها الداخلية أو علاقتها مع السلاجقة أو القوى الأخرى، إلى جانب ذكره للنواحي

---

(1) مصطفى، التاريخ العربي، ج٢، ص٤٠٥/ Cahen, the Historiography of the Seljuged Period, p. 69.

الاقتصادية والاجتماعية ونظرته التحليلية والنقدية للكثير من الحوادث والشخصيات، فقد قدم نقدا لاذعا للخليفة الناصر لدين الله.

ثامناً: ابن المعمار (ت ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م) أبو عبدالله محمد بن أبي المكارم الحنبلي البغدادي، وتكمن أهمية كتابه "الفتوة" أنه من أوائل الكتب التي صنفت عن الفتوة، من حيث أصولها، وقواعد تنظيمها الفكرية، وتطورها التاريخي، إذ يرجعها ابن المعمار لسيدنا إبراهيم –عليه السلام– وترجع أهمية الكتاب أن مؤلفه كان منتظماً بسلك الفتوة.

وأفادت الدراسة من هذا الكتاب، في الفصل الرابع وبالتحديد في الحديث عن فتوة الناصر فابن المعمار صنف هذا الكتاب خدمة للخليفة الناصر فتحققت الفائدة من هذا المصنف، من خلال الحديث عن تنظيمات الفتوة، ومنبعها، وأصلها والصفات والشروط الواجب توفرها بالفتى.

تاسعاً: سبط بن الجوزي، (ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي وكتابه مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، كتاب رتبه على السنين، يؤرخ منذ الخليقة إلى سنة (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) ومرآة الزمان كمعظم كتب الحوليات يورد الحوادث ثم يتبعها بترجمة للوفيات، وجاءت حوادثه ووفياته متوازنة إلى حد ما خلافا لجده ابن الجوزي، ومن أهم مصادر السبط، ابن عساكر، وابن القلانسي والفارقي، فيما يتعلق ببلاد الشام، ويعد جده مصدرا أساسيا له إلى جانب ابن سنان، والصابئ، وغرس النعمة، والعماد الأصفهاني وابن الأثير فيما يتعلق بتاريخ العراق، ويعود الفضل للسبط في حفظ تاريخ غرس النعمة.

والسبط مؤرخ مدقق وناقد جريء لرواياته، فهو في كثير من الأحيان يرجح رواية على أخرى، وإذا تعذر ذلك يورد جميع الروايات التي تتعلق بخبر واحد دون تعليق، وأفادت الدراسة من مرآة الزمان فائدة كبيرة فيما يتعلق بالسلاجقة، والخلافة العباسية وعلى وجه الخصوص الصراع بين رجال الإدارة العباسية، فقد قدم معلومات لا نجدها عند غيره من المؤرخين.

عاشراً: أبو شامه، (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م) شهاب الدين أبو محمد عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي فقيه، ومحدث، ومؤرخ، صنف في العديد من الفنون الأدبية والعلوم الدينية، وجاءت شهرته كمؤرخ من خلال المصنفين الذين وضعهما في التاريخ وهما: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، وكتاب الذيل على الروضتين وكتابه الأخير ركز فيه على التراجم، ويؤرخ أبو شامه في الروضتين من سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م إلى سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، وكتاب الروضتين عبارة عن مقتطفات من مصادر متعددة، استطاع أبو شامه أن يجمعها ويرتبها بدقة متناهية، حتى خرج الكتاب بالصورة التي هي عليه، ، واعتمد أبو شامه على العديد من المصادر، أهمها نصرة الفترة للعماد الأصفهاني، والقاضي الفاضل، وبهاء الدين بن شداد، وابن القلانسي، وكتاب الإفصاح للوزير ابن هبيرة، وابن المارستانية (ت ٥٩٩هـ/ ١٢٠٣م) في كتابه سيرة الوزير ابن هبيرة، وكتاب كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين لابن أبي طي (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م)، وتأتي أهمية كتاب الروضتين أنه حفظ لنا كتب لم تصلنا ككتاب الافصاح، وسيرة الوزير ابن هبيرة، وكنز الموحدين، ويشتمل الكتاب على عدد كبير من الوثائق.

وأفاد الروضتين الدراسة في بحث علاقة الخلافة بنور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي وغيرها من الموضوعات.

حادي عشر: ابن الساعي، (ت ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م) أبو طالب علي بن أنجب، مؤرخ مجد صنف العديد من الكتب أحصاها مصطفى جواد في مقدمة كتاب ابن الساعي الجامع المختصر، فوصلت إلى ستة وثلاثين مصنفاً، ولم يصلنا من هذه الكتب جميعها سوى نساء الخلفاء، ومختصر أخبار الخلفاء، والجزء التاسع من كتابه الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، ويؤرخ هذا الجزء لاثنتي عشر سنة من خلافة الناصر لدين الله تمتد من سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م إلى سنة ٦٠٦هـ/ ١٢٠٨م، ورتب كتابه على السنين، مبتدءاً بالحوادث ثم الوفيات، وجاء منهجه قريبا من أبي الجوزي، فقد أعطى اهتماما أكبر للوفيات إلى جانب انه يؤرخ لليوم،

والشهر، ومع أن ابن الساعي في تاريخه لهذه السنوات ٥٩٥-٦٠٦هـ كان طفلا ثم صبياً -ولد سنة ٥٩٣هـ- فهو لا يذكر مصادره عن هذه الفترة، سواء المكتوبة منها أو الشفوية، كونه عاصر الجيل في الفترة التي كتب عنها.

وتأتي أهمية كتاب الجامع المختصر، نظراً لمعاصرة مؤلفه للأحداث التي أرخ لها، وقد قدم بعض التفاصيل عن شؤون الخلافة الداخلية، إلى جانب بعض الإشارات، عن النواحي الاقتصادية، والاجتماعية، واهتمام الناصر بشؤون العامة وزخر الكتاب بالوثائق والمراسيم، كالمرسوم الذي أصدره الناصر سنة (٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م) عن الفتوة، كما وترد إشارات مهمة عن علاقة الخلافة بالقوى المحيطة بها كالدولة الخوارزمية[1].

ثاني عشر: الذهبي، (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان وللذهبي العديد من المصنفات التاريخية، يأتي في مقدمتها مصنفة تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ويبدأ الذهبي تاريخه من السنة الهجرية الأولى إلى تمام المائة السابعة، ورتبه على السنين والطبقات، وهو يجمع بين الحوادث التاريخية والوفيات، ورتب وفياته على حروف المعجم، وتنوعت تراجمه بين الخلفاء والسلاطين والوزراء والعلماء والفقهاء والمحدثين والقراء والنحاة والشعراء، ويصرح الذهبي في مقدمة كتابه عن بعض مصادره، كتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ووفيات الأعيان لابن خلكان، والروضتين وذيله لأبي شامه، ومرآة الزمان لسبط بن الجوزي، والكامل والباهر لابن الأثير، وأفاد تاريخ الإسلام الدراسة فائدة كبيرة، من خلال إلقاءه الضوء على علاقة الخلفاء بالسلاطين، والصراع بين رجال الإدارة الخلافية.

وأفادت الدراسة من مصنفي الذهبي العبر في خبر من عبر، ويعد هذا الكتاب تاريخا مختصراً رتبه على السنين، بدأه بالسنة الهجرية الأولى وانتهى به إلى سنة (٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، ومصنفه الآخر سير أعلام النبلاء وهو كتاب في التراجم،

(1) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٩٣، ٢٢٣، ٢٢٦.

جعله على الطبقات، والتي بلغت أربعين طبقة، وكان في كثير من الأحيان يترجم لرجاله بشكل مطول، فعندما يترجم للخليفة، يأتي على سرد أهم الحوادث في خلافته مرتبة على السنين، لذلك جاءت عباراته مقتضبة وأفكاره مركزة، وتكاد تكون مصادره هي ذاتها التي اعتمد عليها في تاريخه.

وأفاد الدراسة في إلقاء الضوء على جوانب مهمة للشخصيات التي وردت بها.

ثالث عشر: ابن خلدون، (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) عبدالرحمن بن محمد، وأصبح ابن خلدون صاحب نظرية في التاريخ من خلال كتابة العبر وديوان المبتدأ والخبر، على الرغم من أنه لم يطبق نظرياته في المنهج التاريخي في كتابه، ويعد كتاب ابن خلدون نهاية مرحلة في كتابة التاريخ عند المسلمين بدأها المسعودي.

اتبع ابن خلدون المنهج الشمولي في كتابه هذا بحيث تناول تاريخ المسلمين العام، وهو لا يعنى بالسنين كثيراً، وتشغل الموضوعات حيزاً كبيراً في منهجه، فقد جمع الروايات الخاصة بالسلاجقة، وسردها سرداً متسلسلاً حسب ترتيبها الزمني، ولا يذكر ابن خلدون مصادره في كثير من الأحيان، ويعد ابن الأثير من مصادره الأساسية عن دول الشرق[1]. وأفاد مصنف العبر الدراسة في كثير من موضوعاتها سواء في علاقة الخلفاء بالسلاطين، وفي ترتيب أوضاع العراق بعد التخلص من النفوذ السلجوقي.

أما فيما يتعلق بالدراسات الحديثة، فقد أفادت الدراسة من عدد لا بأس به من هذه الدراسات، كان في مقدمتها دراسة محمد الزهراني، نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية، والتي تناولت فيها طبيعة العلاقات بين الخلفاء والسلاطين، ومحاولة الخلفاء استرداد سلطاتهم ونفوذهم.

---

(1) عن منهج ابن خلدون في كتابة التاريخ، انظر: سعد زغلول عبدالحميد، ابن خلدون مؤرخا، مجلة عالم الفكر، السنة ١٤، ع٢، ص١٩٨٣، ص١١-٧٠.

كما أفادت الدراسة من دراسة عليان الجالودي، تطور السلطنة وعلاقتها بالخلافة، فقد أفرد الجالودي، فصلا خاصا لدراسة العلاقة بين السلاطين والخلفاء في العصر السلجوق. إلى جانب بحثه لبعض المحاولات التي قام بها الخلفاء العباسيون لاسترداد سلطاتهم الزمنية، ركز فيها على عهدي الخليفة المقتفي لأمر الله والخليفة الناصر لدينا لله بإيجاز.

وأخيراً أفادت الدراسة من دراسة عبدالمنعم رشاد، الخلافة العباسية من سنة (٥٧٥-٦٥٦هـ/ ١١٧٩-١٢٥٨م) وهي رسالة دكتوراة قدمت في جامعة لندن سنة ١٩٦٣م، قدم فيها دراسة جيدة لعهد الناصر لدين الله، فقد بحث بشيء من التفصيل والتحليل مؤسسة الوزارة في عهد الناصر وأثرها على سياسته في إحياء مؤسسة الخلافة، كما قدم تحليلاً جيداً عن هدف الناصر من وراء إحيائه لنظام الفتوة، واهتمامه بالعلماء والفقهاء والصوفية.

التمهيد

يؤكد المؤرخون المحدثون أن مقتل الخليفة المتوكل على الله (٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٧-٨٦١م) على أيدي القواد الأتراك عام (٢٤٧هـ/ ٨٦١م) هو بداية تراجع سلطة الخلفاء وتدخل القواد الأتراك في تنصيبهم، ولم يعد للخلفاء إلا دور هامشي في إدارة شؤون الدولة، نتيجة تسلط قواد الجيش على مؤسسة الخلافة -وبتجرؤ القواد الأتراك على قتل خليفتهم- وهي سابقة خطيرة لم تحدث من قبل، فتح الباب على مصراعيه للتلاعب في مصائر الخلفاء، ولتبدأ مرحلة من الفوضى والاضطراب الشديدين جرت الويلات على الخلافة العباسية[1].

وبوصول الراضي الله (٣٢٢-٣٢٩هـ/ ٩٣٤-٩٤٠م) للخلافة تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الخلافة العباسية، إذ ازدادت الأمور سواءا في بغداد فقد تمادى جند الخلافة بإحداث الفوضى، نتيجة التنازع فيما بينهم، وراح بعضهم يبحث عن ولايات خاصة بهم في جنوب العراق أو بلاد الشام أو مصر، كما برزت بعض القوى في أطراف الخلافة العباسية، كالحمدانيين في الجزيرة الفراتية، كما سيطر البويهيون على فارس – واستطاع البريديون من الاستقلال في خوزستان، مما جعل الخلافة العباسية تمر بأزمة مالية خانقة نتيجة هذه الاضطرابات، وعدم وصول الأموال إلى دار الخلافة، أمام هذا الوضع المتردي لم يجد الخليفة الراضي بالله بداً من الإلتجاء إلى أحد القادة العسكريين لتسليمه زمام الأمور في الدولة معتقدا أن هذا الأمر سيخرج الدولة من أزمتها المالية[2]. ليظهر منصب جديد في الدولة هو منصب أمير الأمراء وأصبح صاحب هذا المنصب يتمتع بصلاحيات واسعة بحيث

(1) الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص٥٨/ فاروق عمر، تاريخ الخلافة العباسية، ج١، ص١٥.

(2) مسكوية، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج١، ص٣٥١/ فاروق عمر، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، ص٩٦.

شملت صلاحياته الشؤون السياسية والعسكرية والمالية[1]. كما أبطل هذا المنصب مؤسسة الوزارة وأصبح للخليفة كاتبا يدير شؤونه الخاصة[2].

ونتيجة للفوضى التي دبت في حاضرة الخلافة بسبب تنافس القادة الأتراك على منصب أمير الأمراء، وجد البويهيون الفرصة سانحة للسيطرة على بغداد وتم لهم ذلك بدخول المدينة سنة (٣٣٤هـ/ ٩٤٦م)، وبدخول البويهيين بغداد بدأ دور جديد في تاريخ الخلافة العباسية[3].

سيطر البويهيون منذ دخولهم بغداد على مؤسسة الخلافة بحيث وصف عصرهم من وجهة نظر كثير من المؤرخين المحدثين بأنه كان أشد تدخلا في الدولة وتراجعا لهيبة الخلافة مما كانت عليه في عصر سيطرة الأتراك.وتؤكد كثير من الروايات التاريخية التي ساقها المؤرخون المعاصرون لسيطرة النفوذ البويهي على صحة تلك النظرة[4]. فقد دلت الممارسات التي إتبعها الأمراء البويهيون على مدى استخفافهم بالخلفاء العباسيين[5]، وقد جاءت ممارسات البويهيين مع الخلفاء العباسيين من نظرة البويهيين لعدم صحة إمامة العباسيين كون البويهيين من الشيعة الزيدية الذين يرون بأحقية ابناء علي بن أبي طالب بالخلافة، ويرى الدوري سبب إبقاء البويهيين على الخلافة العباسية مرجعة لاعتبارات سياسية محضة[6].

---

(1) مسكوية، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج١، ص٣٥١/ دائرة المعارف الإسلامية، ج١٢، ص٢٨٣/ محمد حلمي احمد، الخلافة والدولة ص١٠٨.

(2) مسكوية، تجارب الأمم، ج١، ص٣٥٢/ تقي الدين الدوري، إمرة الأمراء، ص٢٣/ فياض الخلافة العباسية في عهد البويهيين، مجلة رسالة الإسلام، ص٢٧.

(3) مسكوية، تجارب الأمم، ج١، ص٨٤/ المسعودي، مروج الذهب، ج٤، ص٣٠٥/ القرماني، أخبار الدول، ص٣٦٩.

(4) من هؤلاء المؤرخين: الدوري، دراسات، ص٢٤٧/ وفاء محمد علي، الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين، ص٤١، وما بعدها/ فاروق عمر، النهوض العربي في العراق، ص٩٤، وما بعدها.

(5) مسكوية، تجارب الأمم، ج٢، ص٨٦-٨٧/ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٤٥/ الدوري، دراسات، ص٢٤٩.

(6) الدوري، دراسات، ص٢٤٨.

ومن مظاهر ضعف وزوال سلطة الخلفاء في العصر البويهي، ما ضمنه المطيع لله (٣٣٤-٣٦٣هـ/ ٩٤٦-٩٧٤م) في الكتاب الذي بعث به إلى عز الدولة بختيار (٣٥٦-٣٦٧هـ/ ٩٦٧-٩٧٨م) حين طلب الأخير مال للجهاد ضد الروم الذين اغاروا على حدود الدولة الإسلامية سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م قال المطيع في هذا الكتاب: "الغزو يلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وإليّ تدبير الأموال والرجال وأما الآن وليس لي منها الا القوت القاصر عن كفائي وهي بأيديكم وأيدي أصحاب الأطراف فلا يلزمني غزو ولا حج ولا شيء مما تنظر الأئمة فيه وإنما لكم مني هذا الاسم الذي تخطبون به على منابركم تسكنون به رعاياكم فان احببتما أن اعتزل عن هذا المقدار أيضا تركتكم والأمر كله"[١].

وليس أدل على ضعف مؤسسة الخلافة من حرص الخلفاء العباسيين على استمالة الأمراء البويهيين بمنحهم الألقاب والخلع، فقد تلقب عضد الدولة بلقب تاج الملة، وهو أول من تلقب بلقبين من الأمراء[٢]. ومن الألقاب التي منحت للامير بهاء الدولة (٣٧٩-٤٠٣هـ/ ٩٨٩-١٠١٢م)، ضياء الملة غياث الأمة قوام الدين[٣].

وفي سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م، طلب جلال الدولة (٤١٦-٤٣٥هـ/ ١٠٢٥-١٠٤٣م) من الخليفة القائم بأمر الله أن يلقبه بملك الملوك فامتنع الخليفة واستفتى الفقهاء بذلك فأجازه أربعة من الفقهاء ولم يجزه الماوردي، إلا أن جلال الدولة لم يأبه بذلك واستمر يتلقب بهذا اللقب[٤].

(1) مسكوية، تجارب الأمم، ج٢، ص٣٠٧/ الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري، ص٤٢٨/ الدوري، دراسات، ص٢٥١.
(2) هلال الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص٩٤-٩٥/ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣٦٧/ الخالدي، الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق، ص٢١٦.
(3) هلال الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص١٣٢.
(4) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٦/ ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٤٨٣/ الخالدي، الحياة السياسية، ص٢١٦.

كما شارك البويهيون الخلفاء العباسيين مظاهر سيادتهم الدينية والسياسية، فقد كانت الخطبة في بغداد رمز سيادة الخليفة الدينية والسياسية، إلا أن الأمير البويهي عضد الدولة شارك الخليفة في ذكر اسمه على منابر بغداد بعد الخليفة وذلك سنة ٣٦٩هـ/ ٩٠٠م- ثم صار سنة لمن جاء بعده من الأمراء- بل أن عضد الدولة حين اختلف مع الخليفة الطائع حذف اسمه من الخطبة لمدة شهرين(١).

والمظهر الثاني من مظاهر سيادة الخليفة السكة، نجد البويهيين قد شاركوا الخليفة في نقش أسمائهم وألقابهم عليها، ولم يكتفوا بذلك بل حذفوا لقب أمير المؤمنين، واكتفوا بذكر اسم الخليفة مجردا من الألقاب، بينما نقشوا أسمائهم مضافا إليها ألقابهم، حتى أننا نجد بعض الألقاب على السكة لم يمنحها الخليفة لهم، فقد وجد لقب شاهنشاه مضافا لعضد الدولة على قطعة نقود ضرب سنة ٣٧٠هـ/ ٩٧٩م، ومن المعروف أن هذا اللقب لم يمنح قبل جلال الدولة(٢).

والمظهر الثالث من مظاهر سيادة الخلفاء الزمنية ضرب الطبول على أبواب الخلفاء في اوقات الصلوات الخمس، فلما تولى الأمير عضد الدولة إمرة الأمراء في العراق سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٨م طلب من الخليفة الطائع الله أن يأذن له بضرب الطبول على باب داره فأجاز الخليفة له ذلك مضطرا على أن يضرب له ثلاث مرات يوميا وقت الصبح والمغرب والعشاء، فصار ذلك رسما متبعا لأمراء بني بويه، وفي أواخر العصر البويهي شارك الأمراء البويهيون الخليفة العباسي في ضرب الطبول أمام دورهم في أوقات الصلوات الخمس رغم احتجاج الخليفة(٣).

---

(1) مسكوية، تجارب الأمم، ج٢، ص٣٩٦/ ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق١، ص٤٤٧/ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٧٠/ الدوري، دراسات، ص٢٥٢.

(2) مسكوية، تجارب الأمم، ج٢، ص٨٥/ الدوري، دراسات، ص٢٥٣.

(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٢٦٠/ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٧٠/ الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص١٣٦-١٣٧/ ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق١، ص٤٤٧.

أمام هذا التراجع الواضح لمؤسسة الخلافة وتنامي سلطة الأمراء البويهيين وجد الخلفاء العباسيون أنفسهم مضطرين للدفاع عن نفوذهم الديني، بحيث وقفوا بكل صلابة ضد أي محاولة من البويهيين للتدخل في شؤون الدولة الدينية، فقد اعتبر الخلفاء أصحاب الخطط الدينية تابعين لهم، فتعيين القاضي من اختصاص الخليفة، وإذا لم يقر الخليفة تعيين احد القضاة تصبح أحكامه باطلة وغير نافذة، ففي سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م، ضمن احدهم منصب قاضي القضاة بمائتي ألف درهم سنويا إلا أن الخليفة لم يوافق على ذلك ولم يستقبله في أيام الاستقبال، وعندما عزل، رفض القاضي الجديد أحكامه لعدم الاعتراف بمشروعية تعيينه[1].

كما أن الخليفة وقف موقفا صلبا عندما حاول الأمير بهاء الدولة سنة ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م) تقليد أبي احمد الموسوي نقيب العلويين قاضيا للقضاة والحج والمظالم وكتب عهده بذلك من شيراز، لم يوافق الخليفة القادر بالله (٣٨١هـ - ٤٢٢م- ٩٩١- ١٠٣١م) على تعيينه[2].

يتضح مما سبق أن الخلفاء العباسيين لم يمارسوا سوى سلطتهم الدينية، ودافعوا عنها في أكثر من موقف، ومن هذا الباب نجد الخليفة القادر بالله يهتم بأمور العقائد، حتى أنه صنف كتابا في الأصول على مذهب أهل الحديث وأصبح يقرأ في المساجد[3]. ويلخص البيروني حال الخلفاء العباسيين أواخر العصر البويهي بقوله: "أن الذي بقى في أيدي خلفاء الدولة العباسية إنما هو أمر اعتقادي لا ملك دنياوي كمثل ما لرأس الجالوت عند اليهود من الرئاسة الدينية من غير ملك ولا دلالة"[4].

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص٣٦٠/ الدوري، دراسات، ص٢٥٦.
(2) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٢٤/ محمد ادريس، تاريخ العراق والمشرق الإسلامي خلال العصر السلجوقي الأول، ص٣٤.
(3) الدوري، دراسات، ص٢٥٥.
(4) البيروني، الآثار الباقية، ص١٣٢.

نستطع القول في ختام هذا التمهيد أن مكانة الخلافة العباسية لم تكن في العهد البويهي أفضل حالا مما كانت عليه أيام تسلط الأتراك، بل إننا نجدها قد تراجعت بشكل أسوأ مما كانت عليه، فكيف أصبح عليه الوضع في الحقبة التالية، حقبة التسلط السلجوقي هذا ما سنحاول الإجابة عليه في الفصل الأول من هذه الدراسة.

الفصل الأول

المحاولات الأولى لإحياء الخلافة العباسية

(٤٢٢هـ - ٥٣٠هـ/ ١٠٣٠- ١١٣٥م).

كان العام ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م بداية خلافة القائم بأمر الله أبو جعفر عبدالله، وقد تولى الخلافة والبويهيون لا يزالون مسيطرين على العراق، ومتغلبين على الخلفاء، وان بدت مظاهر تفكك الأسرة البويهية بالظهور، نتيجة اشتداد الصراع على منصب "إمرة الأمراء"، وقد سار القائم بأمر الله على خطى والده القادر بالله (٣٨١-٤٢٢هـ/ ٩٩١-١٠٣٠م) في استغلال هذا الصراع للنهوض بمؤسسة الخلافة والعودة بها إلى سابق عهدها[1].

إحتدم التنافس بين أمراء بني بويه على السلطة في العراق، ودارت بعض المعارك بين جلال الدولة (٤٦١-٤٣٥هـ/ ١٠٢٤-١٠٤٣م) وأبي كاليجار بن سلطان الدولة (٤٣٥-٤٤٠/ ١٠٤٣-١٠٤٨م) أسفرت عن احتفاظ جلال الدولة بمنصبه في بغداد، حتى وفاته سنة (٤٣٥هـ/١٠٤٣م).وقد كان نفوذ الجند الأتراك داخل بغداد من القوة بحيث أنهم كانوا ينصبون أميرا ويخلعون آخراً كما حدث مع جلال الدولة عندما نهبوا داره وأخرجوه من بغداد سنة (٤٢٣هـ/ ١٠٤١م) وعرضوا على أبي كاليجار الإمارة، إلا أنه رفضها لعدم ثقته بهم[2] وبعد وفاة جلال الدولة، دب النزاع بين ابنه الملك العزيز (ت ٤٤١هـ/١٠٤٩م) حاكم واسط، وأبي كاليجار للسيطرة على العراق، إلى أن أسفر الصراع لصالح أبي كاليجار[3]. وفي عهد آخر الملوك البويهيين الملك الرحيم (٤٤٠-٤٤٧هـ/١٠٤٨-١٠٥٤) ساد الاضطراب مدينة بغداد فقد ثار الجند الأتراك سنة (٤٤٦هـم ١٠٥٤م). بسبب تأخر أعطياتهم، ونتج عن هذا الصراع بين الأمراء البويهيين، انتشار الفوضى وانعدام الأمن في سائر أرجاء العراق، فتراجعت الحياة الاقتصادية، وعاش الناس في ضنك شديد[4].

---

(1) ابن حمدون، التذكرة، ٩٨٧ب/ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص١٦/ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٥٤/ عقله، الخلافة العباسية في ضوء رسائل أمين الدولة، ص٤٢.

(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٢٢٤/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢/ إدريس، تاريخ العراق والمشرق الإسلامي خلال العصر السلجوقي الأول، ص٩٩.

(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٢٩٠/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٧/ عرفة، الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق، ص٢٠.

(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٢٤٣/ الزهراني، نفوذ السلاجقة السياسي، ص٦١.

في خضم هذا الصراع استغل الخليفة القائم بأمر الله حالـة التنـافس بـين الأمراء البويهيين وقام بـبعض الإجـراءات لتقويـة نفـوذ الخلافـة الـزمني، كإحيـاء مؤسسة الوزارة، فقد تعطل هذا المنصب منذ أن تولى ابـن رائـق "امـرة الأمـراء" ببغداد سنة (٣٢٤هـ/ ٩٣٥م) ولم يعد للخليفة الا كاتب يدير شؤونه الخاصة[1].

كان اختيار الخليفة القائم بأمر الله للوزير أبي القاسـم علـي بـن الحـسن ابن المسلمة [2]. اختياراً موفقاً، فابن المسلمة شخصية حازت علـى احـترام علمـاء السنة، وسيلعب هذا الوزير دوراً كبيراً في مساندة الخليفة وتقوية نفوذه، حتى دفـع حياته ثمناً لذلك[3].

وتتضح المكانة التي كان يحظى بها ابن المسلمة لدى الخليفـة القـائم بـأمر الله من الرسالة التي بعث بها الخليفة لطغرلبك يحضه بـرد اقطاعـات أبنـاء ابـن المسلمة، جاء في الرسالة: "ومعلوم ما تقدم لفلان – رئيس الرؤساء ابن المسلمة– تغمده الله برحمته في الدولة القاهرة مـن الحقـوق الـي تجزيـه في وجـوب الرعايـة، وتكفيه – وتقتضي اسباغ ظل النعمة و على ذويه ومخلفيه"[4]. وعلى الـرغم مـن أن الخليفة قد عين ابن مسلمة كاتباً له سنة (٤٣٧هـ/ ١٠٤٥) قبل أن يرفعه للـوزارة سنة (٤٤٣/ ١٠٥١م) إلا أن مراسم التعيين دلت على حرص الخليفة على إظهارهـا بمظهر يدل على أهمية إعادة هذا المنصب، واعتباره مكـسباً مـن مكاسـب الخلافـة يقول ابن الجوزي: "وفي يوم الخميس الثامن من جمادى الأول خلع عليه –أي ابـن المسلمة– واستدعي إلى حضرة القائم بأمر الله وخرج فجلس في الديوان في مجلس عميد الرؤساء ودسته –مكتبة– وحمل على بغلـة بمركـب ومـضى إلى داره بـدرب

(1) انظر التمهيد، ص٣.

(2) انظر ترجمته: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١١، ص٣٩١/ ابن الجوزي، المنـتظم، ج١٦، ص٤١/ العماد الأصفهاني، خريدة القصر، قسم العـراق،ج١، ص١٤٧، الـسبكي، طبقـات الشافعية، ج٥، ص٤٥.

(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣٠٢/ عقلة، الخلافة العباسية، ص٤٥.

(4) ابن الموصلايا، الرسائل، ص٣٥١.

سليم من الرصافة ومعه الخدم والحجاب والأشراف والقضاة والشهود"[١]. وكان لإحياء مؤسسة الوزارة في عهد القائم بأمر الله من الأهمية بحيث لعب مجموعة من الوزراء دوراً بارزاً في مساندة الخلفاء في كفاحهم لإعادة النفوذ الزمني للخلافة.

أخذ الخليفة القائم بأمر الله يفكر جدياً بالتصدي لذيوع الدعوة الفاطمية التي أخذت تنتشر في أنحاء العراق. فقد سّهل البويهيون مهمة الدعاة الفاطميين كونهم من أتباع المذهب الشيعي، بل أننا نجد معز الدولة البويهي، حاول نقل الخلافة العباسية عندما استدعى أحد كبار العلويين من فارس لينصبه خليفة، وهو أبو الحسن محمد بن يحيى الزيدي العلوي، إلا أنه تراجع عن ذلك، كما أن الوزير ابا جعفر الصيميري وزير معز الدولة حذره من خطورة هذا المسعى ونصحه بعض مستشاريه بقولهم: "ليس هذا برأي فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك انه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوه"[٢]. وبذلك تراجع معز الدولة عن إتمام هذا العمل لأسباب سياسية بحتة، تخوفاً على سلطته، إذا ما أحدث تغييرات جوهرية في بنية مؤسسة الخلافة.

وترجع جذور انتشار الدعوة الفاطمية في العراق منذ انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر في منتصف القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي.

ومن الدلائل على انتشار الدعوة الفاطمية في أنحاء العراق والمناطق التابعة للخلافة العباسية، وما وصلت إليه من تأثير، بحيث اعتنقها الكثير من الناس، لجوء الخليفة القائم بأمر الله لإحياء الإعلان القادري[٣]. سنة (٤٣٣هـ/١٠٤١م) وأخذت خطوط العلماء والفقهاء عليه مؤكدين أن هذا هو اعتقادهم[٤].

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣٠٢، ص٣٣٦.
(2) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص٣١٥.
(3) انظر نص الاعلان في ملحق رقم (٣) .
(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٢٧٩.

والمتصفح لهذا الإعلان يجد في ثناياه ايضاً رداً على أفكار المعتزلة في مسألة صفات الله عزوجل وهذا مؤشر على ظهور هذه الأفكار في هذه العصر، كما كتب محضر آخر سنة (٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م) يقدح بنسب العلويين أصحاب مصر: "وكتب فيه العلويون والعباسيون والفقهاء والقضاة والشهود وعمل به علة نسخ وسير في البلاد وشيع بين الحاضر والباد"(١).

ونتيجة تساهل البويهيين مع الدعاة الفاطميين في نشر مذهبهم نجد قرواش بن المقلد(٢). يقبل ما سيره إليه المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧-٤٧٨هـ/ ١٠٥٣-١٠٩٤م) من الاعلام والخلع سنة (٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م) فعاتبه الخليفة القائم بأمر الله على ذلك "فأعتذر ولبس السواد ورجع عن دعوة المستنصر"(٣).

ولعب داعي دعاة الفاطميين، المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي دوراً متميزاً في نشر الدعوة الفاطمية في المناطق التابعة للخلافة العباسية فقد أحرز تقدماً واضحاً في إقليم فارس، كما نجح في إقامة الخطبة للفاطميين في واسط وأعمالها والأهواز ومما يدلل على حنكته السياسية استمالته للأمير البويهي أبي كاليجار مما أغضب الخليفة القائم بأمر الله فبعث إليه كاتبه ابن المسلمة سنة (٤٣٨هـ/ ١٠٤٦م) طالباً من الأمير البويهي طرد هبة الله الشيرازي ومهدداً الاستعانة بالسلاجقة، فما كان من أبي كاليجار إلا الامتثال لأوامر الخليفة(٤).

أن تهديد الخليفة القائم بأمر الله لأبي كاليجار الاستعانة بالسلاجقة لم يأت نتيجة الحادثة السابقة، وعلى ما يبدو أن الخليفة كان يحتفظ بهذا الخيار على انه خياره الاستراتيجي، فقد بدى واضحاً للقائم بأمر الله وكاتبه ابن المسلمة أن انتشار الدعوة الفاطمية في أراضي الخلافة العباسية أصبح يمثل خطراً حقيقياً على

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٦٤/ وانظر الزهراني، نفوذ السلاجقة، ص١٨/ عقلة، الخلافة العباسية، ص٤٥.
(2) هو معتمد الدولة أبو منيع قرواش بن المقلد العقيلي، من العقيليين أصحاب الموصل انظر، الجميلي، امارة الموصل.
(3) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص١٩٣.
(4) الشيرازي، سيرة المؤيد في الدين، ص٤٣، ٥٥، ٥٦، ٦٤، ١٣٦، ١٣٧.

استمرار الخلافة العباسية في ظل سلطة هزيلة كان يتمتع بها البويهيون، ناهيك عن الخلافة المجردة من أية قوة عسكرية خاصة بها فلم يجد الخليفة إلا خيار السلاجقة السنة لإنقاذ الخلافة العباسية.

ظهور السلاجقة وعلاقتهم بالخلافة العباسية

السلاجقة[1]. قبائل يعود أصلها إلى الغز التركمانية، والتي استوطنت في بلاد ما وراء النهر، بعدما هاجرت من بلاد تركستان واعتنقت الدين الإسلامي على المذهب الحنفي، متأثرين بمجاورتهم للسامانيين والغزنويين، وعرف السلاجقة بهذا الاسم نسبة لجدهم سلجوق بن دقاق (تقاق). قامت علاقات طيبة بين السلاجقة والسامانيين، فقد سمح هؤلاء للسلاجقة بالمرور عبر أراضيهم فاستقروا على ضفاف نهر سيحون وجعلوا مدينة جند[2]. مقراً لهم [3]. وأخذت قوة السلاجقة بالظهور عندما تحالف الأمير علي تكين (ت ٤٦٢هـ/ ١٠٣٤م) احد الأمراء القراخانيين المتمردين على الخان القراخاني ارسلان أيلك منصور بن علي (٣٠٤هـ/ ١٠٢٠م)، إلا أن هذا التحالف لم يدم طويلاً، فسرعان ما دب الخلاف بينهم، فأجبرهم علي تكين بعدها مغادرة أراضيه، فتوجهوا إلى خراسان حيث استقبلهم محمود الغزنوي الذي استدرك خطاءه فيما بعد عندما لاحظ تنامي قوتهم وتكرار اعتداءاتهم على خراسان فاجبرهم على الخروج من أراضيه، فتوجهوا نحو

---

(1) عن السلاجقة انظر: العماد الأصفهاني، نصرة الفترة وعصرة القطرة، ق٣-٧/ الروانلي، راحة الصدور، ص١٥٤-١٦٨/ الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية/ ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٨٩-٩٨/ النويري، نهاية الأرب، ج٢٦، ص٢٦٧ وما بعدها/ دائرة المعارف الإسلامية، م١٢، ص٤٣-٨٧/ كاهن- تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص٣٤٧-٣٦٤/ بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٢٧١-٢٧٤/ حلمي، السلاجقة في التاريخ والحضارة/ Browne W.A. Literary History of Persia.

(2) جَند، مدينة في بلاد تركستان بينها وبين خوارزم عشرة أيام تلقاء بلاد الترك مما وراء النهر. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٦٨.

(3) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص٨/ دائرة المعارف الإسلامية، ج١٢، ص٢٥/ الجالودي، تطور السلطنة، ص٢٥-٢٦/ الجميلي- إمارة الموصل، ص٣٩.

خوارزم، ويبدأ ظهور السلاجقة كقوة ذات شأن بعد موت السلطان محمود الغزنوي سنة (٤٢١هـ/ ١٠٣٠م) إذا دخلوا في معارك مع الغزنويين، حتى حسم الأمر لمصلحتهم في معركة "داندانقان" الشهيرة سنة (٤٣١هـ/ ١٠٣٩م)، وبذلك توطد الكيان السياسي للسلاجقة بعد هذه المعركة في مدن: خراسان، ومرو، ونيسابور، وخطب لزعيمهم على منابر هذه المدن وضرب اسمه على النقود إلى جانب اسم الخليفة القائم بأمر الله العباسي[1].

برز اسم السلاجقة بعد معركة داندانقان وسيطرة طغرلبك على بلاد مسعود الغزنوي (٤٢١-٤٣٢هـ/ ١٠٣٠-١٠٤٢م) كقوة رئيسة في مشرق العالم الإسلامي، وأخذوا يتطلعون إلى الخلافة العباسية للحصول على شرعية حكمهم في المناطق التي استولوا عليها.

وتشير المصادر إلى أن أول اتصال بين الخلافة العباسية والسلاجقة كان عام (٤٢٩هـ/١٠٣٧م)، عندما كلف الخليفة القائم بأمر الله أبا بكر الطوسي، بحمل رسالة احتجاج للسلاجقة على ممارساتهم المنافية للدين الحنيف في معاملة أهل البلاد المفتوحة، كما طالبهم بعدم نهب نيسابور المحاصرة من قبلهم، ويدل الحوار الذي دار بين الأخوين داود وطغرلبك على بعد نظر الأخير وعدم رغبته مخالفة مطالب الخليفة بنهب نيسابور يقول ابن الأثير: "صمم داود على نهبها فمنعه طغرلبك واحتج عليه برسل الخليفة وكتابه فلم يلتفت داود إليه وقوى عزمه على النهب فاخرج طغرلبك سكيناً وقال له: "لأن نهبت شيئاً لاقتلن نفسي فكف عن ذلك"[2]، وكان وقع الرسالة على السلاجقة كبيراً جداً ومما يدلل على فرحتهم الغامرة لهذه الرسالة المعاملة التي حظي بها رسول الخليفة فقد خلعوا عليه ثلاثة عشرة خلعة، واخذوا بالتباهي بهذه الرسالة واعتبروها اعترافاً من الخلافة بشرعية

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢١/ الروانلي، راحة الصدور، ص١٥٨/ الداقوقي، الدولة القراخانية، ص١٤٥-١٤٦/ عقلة، الخلافة العباسية، ص٤٦-٤٧/ بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٢٧٥.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٥.

حكمهم[1]. ومن المحتمل أن تكون رسالة الخلافة للسلاجقة، جاءت من باب جس النبض، حتى يتسنى للخليفة معرفة رد فعل السلاجقة حول مطالبه ومدى التزامهم بأوامر الخلافة.

جاء رد السلاجقة على رسالة الخليفة برسالة بعثوا بها مع المعتمد أبي اسحق الفقاعي سنة (٤٣١هـ/ ١٠٣٩م)، أكدوا فيها (عبوديتهم) للخليفة وعللوا أعمالهم العسكرية بدافع غيرتهم ومنافحتم عن الإسلام، مستغلين هذه الرسالة بمطالبة الخلافة منحهم اعترافاً رسمياً بدولتهم يكسبها شرعية في حكم البلاد التابعة لهم[2].

سر الخليفة القائم بأمر الله من رد السلاجقة على رسالته، ويبدو أنه بدأ يفكر جدياً بدعوتهم لدخول العراق إذ وجد فيهم القوة السنية القادرة على وقف الاندفاع الفاطمي في أراضي الخلافة العباسية، والتخلص من النفوذ البويهي الشيعي، ثم تعزيز موقف الخلافة عندما تكون في حماية جيش سني كالسلاجقة، ويبدو أن الخليفة القائم بأمر الله أدرك أن محطة السلاجقة القادمة ستكون بغداد فكان المبادر في دعوتهم من خلال إرساله لهبة الله محمد بن المأمون رسولا إلى السلاجقة وأكد عليه التقرب من طغرلبك، إلا أن الأخير اعتذر لانشغاله بالفتوحات وترتيب شؤون دولته[3]. وفي هذا الإطار يذكر ابن العبري أن إبراهيم ينال أخو طغرلبك بعث برسالة للخلافة العباسية سنة (٤٣٤هـ/ ١٠٤٢م) يتحدث بها عن انتصارات السلاجقة، وان طغرلبك سيتوجه نحو بغداد لفتح طريق الحاج الذي أغلقه الفاطميون[4].

---

(1) العماد الأصفهاني، نصرة الفترة، ق٥أ/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٥/ البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٧/ ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٩٠/ الزهراني، نفوذ السلاجقة، ص٩٣/ عقلة، الخلافة العباسية، ص٤٧.

(2) العماد الأصفهاني، نصرة الفترة، ق٥ب/ ابن النظام، الحكاية السلجوقية، ص٣٧-٣٨.

(3) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج٩، ص٤٠٠/ البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٨-٩/ الراوندي، راحة الصدور ١٦٧-١٦٨.

(4) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٩٢/ عقلة، الخلافة العباسية، ص٤٨.

وفي سنة (٤٣٥هـ/١٠٤٣م) أرسل الخليفة القائم بأمر الله أقضى القضاة ابا الحسن محمد بن حبيب الماوردي رسولا إلى طغرلبك، اختلف مضمون الرسالة عند كل من ابن الجوزي، وابن الأثير، فالأول يرى أنها كانت رسالة: "تقبيح ما فعل – طغرلبك– في البلاد ويأمره بالإحسان إلى الرعية" أما ابن الأثير فيرى أن الماوردي جاء ليقرر قواعد الصلح بين طغرلبك، والملك أبي كاليجار البويهي، إلا أن المؤرخين اتفقا على طريقة استقبال طغرلبك للماوردي إذ تلقاه: "على أربعة فراسخ إجلالا لرسالة الخليفة"[1]. ثم عاد الماوردي في السنة التالية (٤٣٦هـ/١٠٤٤م) واخبر الخليفة عن طاعة طغرلبك وتعظيمه لأوامره[2].

ويفهم من الرسائل المتبادلة بين الطرفين حرص السلاجقة على بقاء علاقة الاحترام المتبادل بينهم وبين الخلافة العباسية، كما استغلوا هذه الرسائل للحصول على الخلع والألقاب، وقد حدد الخليفة بعض الشروط لمنحهم هذه الخلع والألقاب منها: دفع ضريبة الخراج للخلافة، والتوقف عن احتلال البلاد المجاورة لهم، إلا أن طغرلبك اغفل هذه الشروط ولم يقم بتنفيذها[3].

ونلاحظ أن الاتصالات توقفت بين الخلافة العباسية والسلاجقة منذ عام (٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م) حتى سنة (٤٤٢هـ/١٠٤٩م) ففي هذا العام أرسل الخليفة لطغرلبك الخلع والألقاب على أثر مهاجمة قوات السلاجقة لمدينة الأهواز، وجاء رد طغرلبك على رسالة الخليفة سنة (٤٤٣هـ/ ١٠٥٠م) برسالة أبدى فيها شكره للخليفة، وبعث مع الرسل مبلغ عشرة آلاف دينار، وأعلاقا نفيسة من الجواهر والثياب والطيب وغير ذلك، وأرسل خمسة آلاف دينار لحاشية الخليفة، وخص ابن المسلمة الذي رفع لمنصب الوزارة في هذا العام (٤٤٣هـ/ ١٠٥٠م) بألفي دينار، وهي

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٢٨٩/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٩.
(2) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٩.
(3) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٩٥/ بيات، علاقة السلاجقة بالخلافة العباسية، ص٢٦٢.

خطوة ذكية من طغرلبك تبين إدراكه لحجم ودور ابن المسلمة في حاضرة الخلافة، إلى جانب ايجاد أنصار له داخل الإدارة الخلافية[١].

تمرد البساسيري[2] واستنصار الخلافة بالسلاجقة

البساسيري هو أبو الحارث ارسلان، عبدالله احد مماليك الأمير البويهي بهاء الدولة، تقلب في عدة مناصب عسكرية حتى أصبح قائدا للجند الأتراك في بغداد، والمتحكم في دولة الملك الرحيم، وأخذ نفوذه يمتد للسيطرة على الخلافة بحيث لم يكن الخليفة يقطع أمراً دونه، ولا يحل ولا يعقد إلا عن رأيه[٣].

إن المكانة التي وصل إليها البساسيري في بغداد أثارت حفيظة كبار رجال الدولة وعلى رأسهم الوزير ابن المسلمة، الذي وجد في سيطرة البساسيري على الخليفة والملك الرحيم، خطراً على الخلافة العباسية نفسها، إذ كان يرى أنه على علاقة مع الفاطميين في مصر، ويتحين الفرص لإسقاط الخلافة العباسية، فأخذ الوزير ابن المسلمة بتحريض الخليفة للتخلص من البساسيري، وكان له ذلك، إذ أدرك الخليفة خطورة وجود رجل قوي كالبساسيري والمشكوك في ولائه للخلافة العباسية على رأس القوات العسكرية في بغداد، فأوعز للملك الرحيم بطرده من المدينة[٤].

ولكن ما صحة ادعاءات ابن المسلمة بارتباط البساسيري بالفاطميين؟ أن ما أورده هبة الله الشيرازي في مذكراته دليل على صحة هذه الادعاءات، يقول

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٦٠/ ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٤٥٥/ الجالودي، تطور السلطنة، ص٣٥/ عقلة، الخلافة العباسية، ص٤٧/ بيات، علاقة السلاجقة بالخلافة العباسية، ص٢٦٢.

(2) عن تمرد البساسيري، انظر، نوري عبدالجبار، ثورة البساسيري في بغداد، مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة، ج٤، ع٥، سنة ١٩٧١، ص٤٢-٧٨.

(3) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج٩، ص٣٩٩-٤٠٠/ وابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٥٦/ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٨٧.

(4) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة ٤٤٧، ص٢١/ الجالودي، تطور السلطنة، ص٥٥.

الشيرازي: "وحصلت العراق بمجاورتهم –أي السلاجقة– مرتجفة، وصدور أهلها بالروع منخسفة ، ووقع التشاور على مكاتبة أبي الحارث (البساسيري)والعسكر البغدادي وإشعارهم بكوننا لهم سنداً"[1] كما أن رسائل أمين الدولة ابن الموصلايا تؤكد فساد ولاء البساسيري، وبأنه المبادر في الاتصال مع الفاطميين[2].

يتضح مما سبق أن الخلاف بين الوزير ابن المسلمة، وقائد الجند البساسيري نابع من إدراك ابن المسلمة لخطورة البساسيري على الخلافة، وليس صراعا للحصول على مكاسب سياسية داخل بغداد، وهذا على عكس ما صوره كل من الزهراني، والجالودي، بأن هدف ابن المسلمة كان الإيقاع بين الخليفة والبساسيري، من أجل أن ينفرد ابن المسلمة في إدارة شؤون الدولة، ويفهم من كلام الجالودي أن طرد البساسيري من بغداد، وبتدبير ابن المسلمة، هو الذي جاء بالسلاجقة للعراق، وكأن هذا الأمر من اجتهاد ابن المسلمة وحده، مع أننا عرفنا في الصفحات السابقة أن القائم بأمر الله أرسل هبة الله محمد بن المأمون لطغرلبك يحثه على القدوم لبغداد، للتخلص من البويهيين الشيعة ووقف المد الفاطمي في العراق[3]. ومن الأمور التي تفند المزاعم التي تقول أن الصراع بين ابن المسلمة والبساسيري صراع نفوذ في حاضرة الخلافة، الوسيلة التي لجأ إليها الخليفة ووزيره وهي الاستنصار بالسلاجقة مع علمهما أن السلاجقة كانوا في أوج قوتهم وإذا ما دخلوا بغداد سوف تتلاشى قوة الخلافة أمام قوة السلطنة، ولكنهما اختارا أهون الأمرين، فآثرا أن تكون الخلافة في حماية جيش سني، على أن تبقى تحت سيطرة البويهيين الشيعة الذين جعلوا من العراق مسرحا للدعاة الفاطميين، وهذا ما أكده ابن الأثير بقوله: "وكان رئيس الرؤساء يؤثر مجيئه –طغرلبك– ويختار انقراض الدولة الديلمية"[4].

---

(1) الشيرازي، مذكرات، ص٩٦.
(2) ابن الموصلايا، الرسائل، ص٢٥٤-٢٥٥.
(3) الزهراني، نفوذ السلاجقة، ص٧٦/ الجالوي، تطور السلطنة، ص٥٤-٥٥.
(4) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٨١/ كاهن، تاريخ العرب، ص٣٤٨-٣٤٩.

بطرد البساسيري من بغداد يبدأ تمرده باستمالة بعض الأمراء العرب إليه كشبيب بن وثاب النميري، صاحب حران، ونور الدولة دبيس بن مزيد الأسدي، صاحب الحلة، كما انضم إليه قريش بن بدران صاحب الموصل سنة (٤٤٨هـ/١٠٥٦م) إلى جانب الكثير من الجند الأتراك الذين هربوا من بغداد[1]. وبات من المنتظر أن يتوجه البساسيري للهجوم على بغداد، علما أن الأمور فيها أخذت تزداد سوءا، ويصفها ابن العمراني بقوله: "وصار كل جندي فيها رأسا لنفسه، وانقطعت موارد البلاد"[2].

أمام هذا الوضع المتأزم بعث الخليفة إلى طغرلبك يحثه على القدوم لبغداد، وما أن جاءت دعوة الخليفة حتى انطلقت جيوش السلاجقة المرابطة بالأهواز إلى بغداد وقد أعلن طغرلبك عن هدفه من دخول المدينة، وهو: "قصد الحضرة الشريفة للتبرك بمشاهدتها، والمسير بعد ذلك إلى الحج وعمارة طريقه، والانتقال إلى قتال أهل الشام وكل معاند"[3]. "ومعتزماً الإتمام إلى مصر لانتزاعها وبقية الأعمال من أيدي أحلاف الغواية والضلال"[4]. يتضح من أهداف طغرلبك النبرة السنية التي ركز عليها، والتي لاقت استحسان الخليفة القائم بأمر الله، كما جاء إعلانه عن هذه الأهداف ليخفف عن أهل بغداد والملك الرحيم، حتى لا يقفوا موقف المدافع عن المدينة[5].

أرسل الخليفة القائم بأمر الله موكباً عظيماً من القضاة، والنقباء، والأشراف والشهود، والخدم، وأعيان الدولة، وأعيان الأمراء من عسكر الملك الرحيم، يتقدمهم الوزير ابن المسلمة، لاستقبال طغرلبك، الذي كان معسكراً

---

(1) الشيرازي، مذكرات، ص١١٩-١٢٠/ ابن الأثير، الكامل، ج٨ ص٨٧/ الجالودي، تطور السلطنة، ص٥٧.
(2) ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص١٨٨.
(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣٤٨/ وانظر، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٩٨.
(4) ابن الموصلايا، الرسائل، ص٢٥٥.
(5) الجالودي، تطور السلطنة، ص٥٦.

بالنهروان وتقدم الوزير السلجوقي عميد الملك الكندري[1]، باستقبال ابن المسلمة، وجاء به إلى طغرلبك، ويبدو أن ابن المسلمة بين لزعيم السلاجقة كيفية التعامل مع الخليفة عند استقباله، فما كان من طغرلبك إلا أن شكر ابن المسلمة وكرر أمامه أهدافه التي أعلن عنها سابقاً، ثم طلب ابن المسلمة الأمان للملك الرحيم واستحلفه على ذلك، وأن يجريه مجرى أولاده[2].

دخل طغرلبك بغداد يوم الاثنين الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) على رأس جيشه، وأوعز الخليفة بأن يخطب له على منابر بغداد بالألقاب التي منحها إياه وهي: "السلطان ركن الدولة أبو طالب طغرلبك ابن محمد بن ميكائيل يمين أمير المؤمنين"[3]. وأن يخطب بعده للملك الرحيم، إلا أن طغرلبك انتهز ثورة العامة والجنود الأتراك ضد السلاجقة، وأمر بالقبض على الملك الرحيم، متهماً إياه بتدبير ذلك، وزج به في إحدى قلاع الري حتى مات سنة (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، وبدخول السلاجقة لبغداد تسقط الدولة البويهية في العراق والتي دامت ما يقارب مائة وثلاثة عشرة عاماً[4].

جاء رد فعل البساسيري على دخول السلطان طغرلبك لبغداد المبادرة بالاتصل بالأمراء العرب، كنور الدولة دبيس بن مزيد الأسدي، صاحب حلة بني مزيد، الذي كانت تربطه بالبساسيري روابط المصاهرة، وقد قلده الخليفة المستنصر بالله الفاطمي إمرة عرب العراق ولقبه: "الأمير سلطان الدولة وملك ملوك العرب. سيف الخلافة وصفي أمير المؤمنين"[5]. كما انضم للبساسيري قريش بن بدران صاحب الموصل سنة (٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م)، وعلى ما يبدو أن انضمام الأمراء

(1) عن هذا الوزير انظر، إقبال الوزارة في عهد السلاجقة، ص٦٦-٦٨/ الزهراني، نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص١٤١-١٤٢.
(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣٤٨/ ابن الأثير، الكامل، ج٨- ص٧١.
(3) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٣٥٩، وأنظر الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة ٤٤٩، ص٢٧/ أحمد، الخلافة لعباسية في العصر العباسي، ص٢٠٠.
(4) الفارقي، تاريخ الفارقي، ص١٥٥-١٥٦/ الرواندي، راحة الصدور، ص١٦٩/ ابن كثير، البداية والنهاية، م٦، ج١٢، ص٧٠/ كاهن، ص٣٤٩/ الجالودي، ص٥٧.
(5) الشيرازي، ص١٣٥/ الصيرفي، الإشارة لمن نل الوزارة، ص٤٤.

العرب للبساسيري جاء لتخوفهم من السلاجقة على مناطق حكمهم، إزاء هذه التطورات، أدرك السلطان طغرلبك خطورة حركة البساسيري، فتوجه إليه بنفسه، وهاجم مدينة الموصل، فاضطر البساسيري للانسحاب إلى الرحبة[1].

أظهر المؤيد في الدين الداعية الفاطمي، مرة أخرى براعته عندما استطاع استقطاب إبراهيم ينال الأخ غير الشقيق لطغرلبك، عندما مناه بتقديم المساعدة في حالة تمرده على أخيه، ويبدو أن إبراهيم ينال كان لديه الاستعداد لذلك، طمعاً في مساندة الفاطميين لتحقيق هدفه القديم في تزعم السلاجقة، فقد أورد ابن الأثير في حوادث سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م تمرداً سابقاً لإبراهيم ينال على طغرلبك، مما يدلك أن إبراهيم ينال كانت لديه أطماع سابقة في تزعم السلاجقة، فوجد بدعوة المؤيد في الدين فرصة يحقق بها ما يصبوا إليه، فغادر الموصل متوجهاً إلى بلاد الجبل وهدفه العاصمة همذان، عندها أدرك السلطان خطورة الموقف فعاد مسرعاً إلى همذان عله يصلها قبل أخيه إبراهيم ينال[2].

برحيل السلطان طغرلبك لإنقاذ الموقف في مقر ملكه، خلت بغداد من أية قوة للدفاع عنها، فاندفع البساسيري يرافقه قريش بن بدران نحوها، ودخلها يوم الأحد الثامن من ذي العقدة سنة ٤٥٠هـ/ كانون أول سنة ١٠٥٨م، حاملاً معه رايات الفاطميين[3]. وأثناء دخوله المدينة، لم يواجهه مقاومة حقيقية، فقد هزم بسهولة تامة الجيش الذي كونه ابن المسلمة من العامة[4].

بعد أن استتب الأمر للبساسيري تم اعتقال الخليفة القائم بأمر الله الذي دخل في ذمام قريش بن بدران فقام الأخير بإرساله إلى حديثه عانة[5]. عند ابن عمه

---

(1) الشيرازي، ص١١٩-١٢٠/ الصيفي، ص٤٤.
(2) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥١-٥٢/ الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة ٤٥٠، ص٢٩.
(3) الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ج٩، ص٤٠١/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٨٣/ الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة ٤٥٠، ص٣٠.
(4) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٨٣.
(5) حديثة عانة، بلدة مشهورة من أعمال الجزيرة، بين الرقة وهيت وتقع على نهر الفرات. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٧٢.

مهارش بن مجلي العقيلي، بالاتفاق مع البساسيري، ويذكر المقريزي أن البساسيري أخذ كتاباً على الخليفة أشهد فيه العدول انه لاحق لبني العباس في الخلافة مع وجود أبناء فاطمة الزهراء، وحمل هذا الكتاب مع المنديل والشباك[1]. الذي كان يتكأ عليه الخليفة، والقضيب[2]، والبردة[3] إلى القاهرة[4].

أما ابن المسلمة عدو البساسيري اللدود فقد تم قتله بطريقة تدل على مدى الكراهية والحقد الذي كان يضمره له البساسيري، وبذلك تنتهي حياة هذا الرجل –الذي لعب دورا بارزا في خدمة الخلافة العباسية والمنافحة عنها– نهاية مأساوية[5]. وبعد ذلك قام البساسيري بإعلان البيعة للخليفة المستنصر بالله، وخطب له على منابر بغداد[6].

لم يدم هذا الأمر طويلاً، فسرعان ما حقق السلطان طغرلبك انتصارا حاسما على أخيه إبراهيم ينال، وقام بقتله، وبعد أن رتب شؤون دولته توجه للعراق سنة (٤٥١هـ/١٠٥٩م) لقتال البساسيري، وبمجرد سماع الأخير بقدوم السلطان فر هاربا من بغداد في ذي العقدة من سنة ٤٥١هـ/ كانون أول ١٠٥٩م، وقبل دخول السلطان لبغداد، بعث لمهارش بن مجلي العقيلي يطلب منه إعادة الخليفة لبغداد، وبعث السلطان وزيره عميد الملك الكندري والأمراء والحجاب، لاستقبال الخليفة، والتقى السلطان بالخليفة في النهروان، وقد أظهر طغرلبك احتراماً وتبجيلاً كبيرين للخليفة الذي عاد إلى بغداد في ٢٥ ذي العقدة سنة ٤٥١هـ/ ٢ كانون ثاني ١٠٦٠م،

---

(1) الشباك، الشرفة التي كان يجلس فيها الخليفة ويتوكأ بيديه على حافتيها، الجالودي، تطور السلطنة، ص٥٨، هامش ١٢.

(2) القضيب، عود كان النبي صلى الله عليه وسلم – يأخذه بيده، وأصبح رمزاً من رموز الخلافة. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٢٨٩.

(3) بردة النبي (صلى الله عليه وسلم) التي كان يلبسها الخليفة في المواكب. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٢٨٩.

(4) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٢٥٣/ وانظر، الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة ٤٥٠، ص٣٢.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٨٤.

(6) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة ٤٥٠، ص٣٢.

وبعدها أرسل السلطان جيشا لقتل البساسيري الذي كان بطريقه لبلاد الشام فالتقت القوات السلجوقية به، حيث قتل وجيء برأسه لبغداد وطيف به في شوارعها ثم وضع في الخزانة الأمامية، أو ما تعرف بخزانة الرؤوس(1)، وبذلك أسدل الستار عن اخطر محنة تعرضت لها الخلافة العباسية(2).

ولكن ما هي العوامل التي أدت إلى فشل تمرد البساسيري؟ ارتبط فشل تمرد البساسيري بعاملين أساسيين، الأول: يتعلق بالسلاجقة، إذ لم يكن باستطاعة البساسيري التصدي للقوات السلجوقية التي تفوقه عدة وعدداً، أما العامل الثاني: فنجده لدى المقريزي، إذ ارتبط بعلاقة البساسيري بالخلافة الفاطمية، فمن سوء حظ البساسيري أن مراكز القوى في القاهرة قد تبدلت لغير صالحه، فقد عزل المستنصر بالله الفاطمي وزيره أبا محمد الحسن اليازوري سنة (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) والذي كان من أشد أنصار البساسيري داخل الإدارة الفاطمية، ويبدو أن اليازوري سانده في هذا التمرد، وهذا ما يفهم من قول المقريزي: "والدولة المصرية تمده بما يستعين على ذلك – أي البساسيري– ولا ينفذ في أمر من الأمور إلا بما يقرره اليازوري(3).

وبعد عزل الوزير اليازوري، وصل لوزارة المستنصر بالله أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي والذي كانت علاقته على غير ما يرام مع البساسيري، فقد هرب من العراق أثناء تمرد البساسيري، وأخذ يقدح به عند المستنصر بالله ويؤكد ما ذهبنا إليه قول المقريزي: "وكان من جملة أسباب فوات هذا أن البساسيري لما بعث الكتب إلى المستنصر يعرفه بإقامة الخطبة له ببغداد وكان الوزير حينئذ أبو

(1) خزانة الرؤوس، كانت في دار الخلافة العباسية ببغداد، وضعت بها رؤوس الخارجين على الخلافة بعد أن تنظف وتوضع في أصفاط من البردى والخيرزان، ميخائيل عواد، خزانة الرؤوس، مجلة الرسالة، ع٤٨٩، ص١٠٦٦.

(2) الخطيب البغدادي، ج٩، ص٤٠٣، ابن العمراني، الأنباء، ص١٩٧/ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٥٠-٥١/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ٨٥-٨٦/ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص١٧٧-١٧٨.

(3) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٢٣٧/ وانظر الصيرفي، الإشارة، ص٤٣-٤٤.

الفرج محمد بن المغربي وهو ممن فر من البساسيري، وصار إلى القاهرة فحذر المستنصر من البساسيري وخوفه عاقبته، فتركت أجوبته مدة ثم عادت الأجوبة بخلاف ما أمله البساسيري، ثم قدم طغرلبك وانتصر عليه[1]. من الواضح تماماً أن القاهرة تخلت عن مساندة البساسيري في إتمام مشروعه، وكان هذا الأمر من أهم العوامل في فشل تمرده.

وبفشل تمرد البساسيري تبدأ مرحلة جديدة من تاريخ الخلافة العباسية مرحلة سيطرت فيها قوة جديدة على الخلافة، ونظر السلاجقة على أنهم أصحاب فضل على العباسيين، فهم الذين أنقذوا الخلافة، وأعادوا الخليفة إلى مقر ملكه، وحالوا دون سقوطها، ليدخل العراق ضمن الإمبراطورية السلجوقية، وليبدأ الصراع بين مؤسسة الخلافة، ومؤسسة السلطنة حول نفوذ كل من هاتين المؤسستين.

تطور العلاقة بين الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة حتى بداية عهد الخليفة المسترشد بالله ٥١٢هـ/ ١١١٨م

على الرغم من أن السلاجقة يتفقون في المذهب مع الخلافة العباسية إلا أنهم ولاعتبارات سياسية، تعاملوا مع الخلافة العباسية كقوة متغلبة بحيث لم نلحظ أي تطور على صلاحيات الخلفاء الزمنية، وإنما أصر السلاطين السلاجقة على تحديد صلاحيات الخلفاء في الأمور الدينية، وأن يتركوا للسلاطين أمر السياسة والحكم، ومن خلال هذا الإطار بدأ النزاع بين الخلفاء والسلاطين حول نفوذ كل منهما.

نستطيع القول أن أول خلاف دب بين الخليفة القائم بأمر الله، والسلطان طغرلبك كان في اليوم الأول من دخول السلاجقة لبغداد، فقد رافق دخولهم أعمال

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٢٥٥/ وانظر، الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة، ٤٥٠، ص٣٦.

نهب وسلب، واعتداء على منازل الناس، ولم ينحصر هذا الأمر في بغداد وحدها، بل تعداه إلى خارجها من تكريت إلى النيل والنهروانات "مما ساهم في خراب السواد وأجلى أهله عنه"[1]. ويصف الأصفهاني ممارسات الجيش السلجوقي بقوله: "ولا دارا إلا شعثوها، ولا عصمة إلا رفعوها، ولا وصمة إلى وضعوها"[2]. وإذا ما بحثنا عن تعليل لهذه الممارسات، فإننا نقول أن الجيش السلجوقي دخل بغداد دخول الفاتحين، فمارس ما اعتاد عليه في مثل هذه الحالة. إلا أن رد فعل الخليفة القائم بأمر الله كان قوياً، بحيث أمر وزيره ابن المسلمة، باستدعاء عميد الملك الكندري وزير السلطان وبعث معه رسالة لسلطانه جاء فيها: "قد أنهى إلي ما سمعته أذني وشاهدته عيني، من ارتفاع الدعاء ما أنا به مطالب، هذا إلى ما أخافه من سريع المكافأة، وأنا مع ركن الدين –طغرلبك– بين قسمين: إما اعتماد الحق واستعمال العدل وأنصاف الرعية، أعفاهم من كل أذية، وإعادتهم إلى مساكنهم، وصيانتهم في معايشهم، وأمانتهم في نفوسهم وحراسة أموالهم، او، المساعدة على مفارقتي لهذا البلد ويعلي عن هذه البدع ولا أقل من اعتزال عنها والتبري عند الله منها"[3]. امتثل السلطان لطلب الخليفة مبدياً إجلاله واحترامه الكبيرين بقوله: "أنا الخادم الطائع في كل حال وما علمت بما جرى ولا أمرت به"[4].

والموقف الآخر الذي أدى إلى توتر العلاقات بين الخليفة القائم بأمر الله والسلطان طغرلبك، قيام الأخير بالقبض على الملك الرحيم واعتقاله في الري سنة (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) متجاهلاً الأمان الذي تعهد به للخليفة بحفظ الأمراء ومن بينهم الملك الرحيم، ولم يقتنع الخليفة بالذريعة التي ساقها السلطان، من أن الملك الرحيم كان وراء الاضطرابات التي حدثت ببغداد على أثر دخول الجيش السلجوقي إليها، فبعث برسالة احتجاج للسلطان هدده بها بالخروج من بغداد إن

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٧٢/ ابن كثير، البداية، م٦، ج١٢، ص٦٨/ ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٢١٣.
(2) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٧-٨.
(3) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ع.س، ص٧-٨.
(4) نفس المصدر، ص٨.

لم يفرج عن الأمراء والملك الرحيم، وجاء في رسالة الخليفة: "أنهم إنما خرجوا إليك بأمري وأماني فأن أطلقتهم وإلا فأنا أفارق بغداد، فإني إنما اخترتك واستدعيتك اعتقاداً مني أن تعظيم الأوامر الشريفة تزداد وحرمة الحريم تعظم وأرى الأمر بالضد"[١]. إلا أن السلطان تجاهل طلب الخليفة بإطلاق الملك الرحيم وإن بادر بالإفراج عن بعض الأمراء الآخرين، أن الحادثتين السابقتين، وما سيتبعهما من حوادث يدلان على أن السلاجقة تعاملوا مع العراق كما لو أنها من السلطنة السلجوقية، وهذا يؤكد ما ذهب إليه حسين أمين عندما وصف السلاجقة بالفاتحين[٢].

لقد شكلتا حادثتا الاعتداء على العامة في بغداد، وتجاهل أمان الخليفة للملك الرحيم، خيبة أمل كبيرة لدى الخليفة القائم بأمر الله والذي اعتقد أن وضع الخلافة سيتحسن في ظل السلاجقة السنة إلا أن الأمر -كما وصفه الخليفة نفسه- كان بالضد[٣].

ومع هذا فقد بدت مظاهر الاحترام والتقدير من قبل السلاجقة للخليفة بالظهور، وإن كانت في جوهرها ما هي إلا مظهرا شكلياً، فقد دلت مراسم استقبال الخليفة القائم بأمر الله للسلطان السلجوقي سنة (٤٤٩هـ/١٠٥٧م) على التقدير الكبير من قبل طغرلبك للخليفة، كما أن القائم بأمر الله أراد من خلال هذا الاستقبال أن يظهر عظمة وأبهة الخلافة، وما تأخير دخول طغرلبك على الخليفة حتى سنة (٤٤٩هـ/١٠٥٧م) إلى تأكيدا على هذه الناحية، يذكر ابن الجوزي: "وكان السلطان يسأل في ذلك إلا أن تقرر هذا في ذي القعدة"[٤].

ويقدم لنا سبط بن الجوزي وصفا لمراسم الاستقبال التي أعدت للسلطان طغرلبك، يقول السبط: "فلما بلغ -طغرلبك- باب دهليز صحن السلام وقف

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٧٢.
(2) أمين، تاريخ العراق، ص١٢٨.
(3) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٧٢.
(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦،ص١٩.

طويلا على فرسه إلى أن فتح له الباب فنزل ودخل ماشيا وتلقاه رئيس الرؤساء، وكان الخليفة في بيت في صدر البهو وعلى بابه ستور ديباج فرفعت وإذا بالخليفة جالس على سرير ارتفاعه من الأرض سبعة أذرع في دست ديباج منقوشا، وعليه العمامة، والقميص المصمتان، وعلى منكبه بردة الرسول -عليه الصلاة والسلام- وبيده القضيب فلما رآه السلطان قبل الأرض دفعات كثيرة، ونصب له كرسي دون السرير لطيف".

بعد هذا الاستقبال المبالغ فيه من قبل الخلافة، فوض القائم بأمر الله سلطاته الزمنية للسلطان طغرلبك بقوله: "وقد ولاك جميع ما ولاه الله تعالى من بلاده ورد أليك فيه مراعاة عباده، فاتق الله فيما ولاك واعرف نعمته عليك، واجتهد في عمارة البلاد ومصالح العباد ونشر العدل وكف الظلم"[1].

وبعد أن استقرت أوضاع السلاجقة في بغداد بدأوا يتعاملون مع العراق وموارده على أنه جزء من الدولة السلجوقية، فقد سيطروا على موارد العراق المالية ونقلوها إلى خزائنهم بدلا من خزائن الخلافة، وأخذوا بضمان مدن العراق لمصلحتهم الخاصة[2].

وأصبحت بغداد لأول مرة في تاريخ الخلافة العباسية عاصمة ثانية، فقد اتخذ السلاطين عواصم متعددة لمقر حكمهم كهمذان، والري، وأصفهان[3].

كما اتخذ السلاطين السلاجقة في بغداد دارا للسلطة يقيمون فيها كلما قدموا إلى بغداد، وأصبحت هذه الدار فيما بعد مقرا لعميد العراق، وبنى السلاجقة جامعا في بغداد عرف بجامع السلطان، على غرار جامع الخليفة[4].

---

(1) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ع.س.ص. ٢٥/ وانظر ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩، ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٨٠.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٨٩/ الزهراني، نفوذ السلاجقة، ص١٠٧، أمين، تاريخ العراق، ص٧٠/ الخالدي، الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق، ص٢٤٤.

(3) الجالودي، تطور السلطنة، ص١٠٤/ عقلة، الخلافة العباسية، ص٥٦.

(4) شرع ببناء هذا الجامع ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م. جواد، سوسه، دليل خارطة بغداد، ص٣٣٠.

وفي الجانب الإداري استحدث السلاجقة في العراق منصبين جديدين هما منصب العميد، ومنصب الشحنة، وكان لهذين المنصبين دور كبير في تطور العلاقة سلبا وإيجابا بين السلطنة والخلافة، كما لعب هذان المنصبان دورا بارزا في حفظ الأمن ببغداد والعراق عامة.

وتحددت مسؤولية العميد بالعراق كاملاً، وقد تشعبت اختصاصاته، وتمثلت بجباية الأموال من بغداد ومحيطها، فقد ضمن العميد أبو الفتح المظفر بن الحسين سنة (٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م) بغداد بأربعمائة ألف دينار لمدة ثلاث سنوات، وضمن العميد أبو سعيد القايني بغداد سنة (٤٥٥هـ/١٠٦٣م) أيضا بمائة ألف دينار سنويا، وعقد هذا العميد ضمان واسط على أبي جعفر بن صقالب بمائتي ألف دينار[1].

ومن الاختصاصات التي اضطلع بها عمداء العراق، إعمار بغداد وحفظ الأمن، ومحاربة الخارجين على السلطة[2]. إلى جانب تنظيم شؤون الحج، من خلال حماية الطرق ووضع الحراس عليها، كما أنيط به النظر في المظالم والضرب على أيدي المفسدين، إلى جانب هذه الوظائف فقد أنيط بعمداء وشحن العراق مهمة مراقبة الخليفة وحاشيته[3]. ونستطيع القول أن العميد كان بمثابة الحاكم العسكري في ولاية العراق، ونائبا عن السلطان فيه.

ويبدو أن اختصاصات عميد العراق بدأت بالتراجع خارج بغداد، بحيث أصبح فيما بعد مساعدا للشحنة، ومن وجهة نظر الباحث، فإن هذا المنصب كان ضروريا في بداية سيطرة السلاجقة على العراق تحسبا لأي طارئ، أو خروج عن طاعة السلاجقة، وبعد أن استقرت الأوضاع في العراق، وتولى عدد كبير من

---

(1) ابن الموصلايا الرسائل، ص٣٤٥/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٩٤/ عقلة، الخلافة العباسية، ص٧٢/ أمين، نظام الحكم في العصر السلجوقي، ص٢٢٠.

(2) ابن الموصلايا، ص٣٤٥/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٧٦-٧٧/ المعاضيدي، واسط في العصر العباسي، ص٧٦-٧٧.

(3) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ع.س. ص٨٣-٨٤، ١٢٢-١٢٣.

الأمراء السلاجقة مدن العراق كعماد الدين زنكي، ويرنقش الزكوي، تراجعت سلطة العميد خارج بغداد.

أما الشحنة فقد كانت مجالات اختصاصاته المحافظة على امن بغداد والدفاع عنها، وكان تحت إمرته مجموعة من العسكر لتنفيذ اختصاصاته، ومما جاء في رسائل أمين الدولة حول وظيفة الشحنة قوله: "أنكم أنفذتم حماة وخدما للدار العزيزة يستقيمون في احتذاء مراسمها، ويقيمون في الخدمة ما يجب من أسواق الطاعة ومواسمها"[١].

وقد كشفت العلاقات بين عمداء وشحن بغداد بالخلافة العباسية عن طبيعة هذه العلاقات والتي كانت متأرجحة بين العلاقة الايجابية والسلبية، فكانت تنعكس طبيعة العلاقة بين الخليفة والسلطان على ممارسات العمداء والشحن تجاه الخلافة، ونستطيع القول أن بعض الممارسات التي مارسها العمداء والشحن وصلت إلى حد إذلال الخلفاء ووزرائهم، على عكس ما صوره الباحث عصام عقلة، بقوله: (نجد أن العلاقات كانت جيدة في مجملها) [٢]. أن الحكم على إيجابية العلاقة أو سلبيتها يجب أن ينطلق في اعتقادي من الأزمات التي كانت تمر بها السلطنة مع الخلافة، والكيفية التي كانت تعالج بها هذه الأزمات من قبل نواب السلطان في بغداد، فقد كانت هذه الأزمات تكشف مدى استخفاف هؤلاء النواب بالخليفة وأتباعه في دار الخلافة، وسنسوق بعض الأمثلة التي تؤكد ما ذهبنا إليه.

في سنة (٤٥٣هـ/ ١٠٦١٤م) تقدم السلطان طغرلبك لخطبة ابنة الخليفة القائم بأمر الله، واعتبر الخليفة هذا الأمر تجاوزا من قبل السلطان معللا ذلك بقوله: "هذا ما لم تجر العادة به، ولم يسم أحد من الخلفاء مثله"[٣]، وعندما شعر السلطان بتمنع الخليفة، بدأ بممارسة الضغوط عليه، فأوعز إلى عميد العراق آنذاك أبو احمد النهاوندي بممارسة هذه الضغوط، فأخذ بتنفيذ ما أمر به من خلال

---

(1) ابن الموصلايا، الرسائل، ص٣٠٦/ أمين، نظام الحكم في العصر السلجوقي، ص٢٢٠.
(2) علقة، الخلافة العباسية، ص٧٣.
(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٦٥.

التضييق على الخليفة وحاشيته، يقول سبط بن الجوزي في هذا الصدد: "ومد يده إلى إقطاع الخليفة وغيره، وصرف أناس من الهاشميين غلامين له، فبعث غلمانه في السفن فرموا بالتاج بنشابتين وأخذوا زورق الخليفة فيه شعير وانزعج الخليفة والناس وجرت منه أسباب ثقلت على الخليفة، ثم عوتب فلم يفد معه عتاب"[١]، وكانت هذه الممارسات أول أعمال هذا العميد في العراق وعلى ما يبدو أن السلطان قد عينه في هذا المنصب لتنفيذ هذه المهمة، ولم يكتف بهذه الأعمال وإنما أخذ بالاعتداء على دار الخلافة نفسها دون أدنى احترام للخليفة "وشرع رئيس العراقيين –العميد- في خرق الهيبة، وهجم دار الخليفة مرارا وأخذ العمامة واللحاف من تحت تاج الخليفة، والخليفة يشاهده"[٢].

ومن الممارسات التي أثارت غضب الخلافة، وعبرت عن استخفاف نواب السلطان في بغداد بالخلافة، ما قام به ابن الشحنة ايتكين السليماني سنة (٤٦٤هـ/ ١٠٧١) عندما قتل احد غلمان دار الخلافة، وقد عبر رد فعل الخليفة عن مدى الضعف الذي كانت تعاني منه الخلافة تجاه هؤلاء النواب، فقد بعث الخليفة بقميص المملوك الملطخ بالدماء إلى السلطان، وذلك لاستدرار عطفه، لعزل الشحنة أيتكين، الذي تجاوز الحد في الاعتداء على الخلافة[٣].

وفي سنة (٤٧١هـ/١٠٧٨م) تعرض الخليفة المقتدي بأمر الله لمضايقة شديدة من قبل شحنة بغداد كوهرائين، فقد كتب السلطان ملكشاه (٤٦٥هـ - ٨٥/ ١٠٧٢- ١٠٩٢م) للخليفة المقتدي بأمر الله يطلب منه عزل الوزير فخر الدولة بن جهير، وقد بدأ الشحنة كوهرائين بمتابعة طلب السلطان بأمر العزل، ويذكر ابن الجوزي بعض تجاوزات الشحنة بقوله: "وجرى من التهديد وامتناع الخليفة ما يطول شرحه"[٤] وعلى أثر ذلك أضطر الخليفة بالرد على الشحنة، بأن فخر الدولة ليس

---

(1) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ع.س، ص٧٧.
(2) المصدر نفسه، ص٨٢-٨٣
(3) ابن الموصلايا، الرسائل، ص٣٠٦-٣٠٧/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١١١.
(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩٨/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٢٥.

بوزير "وإنما عميد الدولة وزيرنا"[1]، وقد بالغ شحنة بغداد بالاستخفاف بالخليفة وحاشيته "فقد حضر سعد الله -كوهرائين- باب الفردوس وهو سكران وقل: أن سلم الوزير إلى وإلا دخلت وأخذته، وأن كلمني في معناه إنسان قتلته"[2]. عندها اضطر الخليفة أمام هذه الضغوط بعزل وزيره[3].

ونتيجة للتجاوزات التي قام بها العميد أبي الفتح بن أبي الليث سنة (٤٧٥هـ/١٠٨٣م) تجاه الخليفة المقتدي بأمر الله، هدد الخليفة بترك بغداد إن لم يعزل هذا العميد، وقد جاء في رسالة الخليفة للسلطان ملكشاه : "وبالجملة فقد نبت بأمير المؤمنين معه الدار، وأبت أفعاله الذميمة أن تكون عليها اصطبار ولم يبق له صبر على المقام، وهذا الضال مستخدم على أبوابه ومجاهر له بالعدول عن رشاد الفعل وصوابه فإما أعفي عنه واستبدل به من يبعد الذم عنه، وإلا فينص على مكان يكون للإمام الارتحال والانتقال"[4]. وبالرغم من تهديد الخليفة بمغادرة بغداد، اكتفى السلطان بردع العميد عن التجاوزات التي مارسها، ولم يقم بعزله[5].

إن هذه الأمثلة التي سقناها عن التجاوزات التي مارسها نواب السلاطين في بغداد تجاه الخلافة العباسية عبرت عن حقيقة العلاقات بين الخلافة والسلطنة، ولم يكتف السلاجقة بهذا وحسب بل نجدهم يتدخلون وبشكل سافر بالجهاز الإداري للخلافة العباسية، فقد مارس السلاطين ووزرائهم نفوذا واسعا في تعيين وعزل وزراء الخلفاء، ناهيك عن مكانة ونفوذ وزير السلطان، التي فاقت مكانة ونفوذ وزير الخليفة، في هذه المرحلة على الأقل.

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩٨.
(2) المصدر نفسه والجزء، ص١٩٨.
(3) المصدر نفسه، ج١٦، ص١٩٨/ الزهراني، نفوذ السلاجقة، ص٤٢.
(4) ابن الموصلايا، الرسائل، ص١٥٧/ وانظر، ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣١-١٣٢.
(5) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٢.

تعود بدايات تدخل السلاطين في الجهاز الإداري للخلافة العباسية، بعد القضاء على تمرد البساسيري، إذ أخذ الخليفة القائم بأمر الله بترتيب أوضاع إدارته فقام سنة (٤٥٣هـ/ ١٠٦١م) بتعيين أبي الفتح منصور بن احمد بن دارست (٤٥٣-٤٥٤هـ/ ١٠٦١- ١٠٦٣م) في منصب الوزارة[1]، إلا أن هذا التعيين وجد معارضة قوية من السلطان طغرلبك، ووزيره عميد الملك الكندري، وحاول ثنيه عن إكمال التعيين فأدرك الخليفة أن تدخل السلطان ووزيره في هذا الأمر كان من الخطورة بحيث أصر على إبقاء ابن دارست في الوزارة، وقد ساق الخليفة، مجموعة من الحجج دلت على ضعفه أمام مواجهة السلطان، فقد أورد في الرسالتين اللتين بعث بهما للسلطان ووزيره الكندري، أسباب اختيار ابن دارست في الوزارة علَّه يقنعهم في العدول عن رأيهم: "ولما تعذر بمدينه السلام من يختاره لخدمته ويرتضيه،... وعدم وجود من تحمد وتيرته وتؤمن سريرته... وخلا منصب الوزارة بضعة عشر شهرا ممن يقوم بتوليه ويسند إليه النظر فيه "وأضاف الخليفة في أسباب اختيار ابن دارست" لما تحقق من صدق أمانته، وخلوص عقيدته، وسديد مذهبه، وحميد طريقته" كما احتج الخليفة برسالة السلطان التي جاءت متأخرة "وكان وصول مطالعة ركن الدين -أمتع الله به- في بابه، وقد انفصل -أي ابن دارست- عن واسط إلى مدينة السلام ولم يبق له عذر في التلوم والمقام". ومن الحجج التي ساقها الخليفة أيضا، استشارته للوزير الكندري في تعيين ابن دارست في وزارته، يقول في الرسالة التي بعث بها للوزير الكندري: "ولما فوضت في استدعاء منصور بن احمد واسترعائه وشورت في اجتذابه للخدمة واجتنائه بالغت في إطرائه ومدحه"[2].

(1) العماد الأصفهاني، نصرة الفترة، ق١٩أ/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٩٠/ البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢٤.

(2) ابن الموصلايا، الرسائل، ص٣١٨-٣٢٢.

ويعلل سبط بن الجوزي اعتراض الكندري على تعيين ابن دارست، طمعه في تولي وزارة الخليفة[1]. أما العماد الأصفهاني، فيرى قلة خبرة ابن دارست كانت وراء اعتراض السلطان ووزيره الكندري[2]. ومهما تكن الأسباب وراء ذلك فإن هذه الحادثة دلت على مدى التدخل الذي مارسه السلاطين ووزرائهم في شؤون الإدارة الخلافية، على الرغم من خروج الخليفة منتصرا في هذه المواجهة، ومؤكدا على استقلالية الخلافة في اختيار جهازها الإداري.

وفي سنة (٤٦٤هـ/ ١٠٧١م) قام السلطان ألب ارسلان (٤٥٥-٤٦٥هـ/ ١٠٦٣-١٠٧٢م) بتصرف ينم عن مدى استخفافه بالخليفة القائم بأمر الله. إذ قرر تعيين أبو العلاء محمد ابن الحسين وزيرا للخليفة، ونائبا عنه في بغداد، دون علم الخليفة، فخلع عليه ولقبه وزير الوزراء وأقطعه نصف إقطاع الوزير فخر الدولة بن جهير (٤٥٤-٤٦٧هـ/ ١٦٠٢- ١٠٧٤م)، وزير الخليفة آنذاك، وبعث به لبغداد لتسلم منصبه، إلا أن القائم بأمر الله رفض إجراءات السلطان، من خلال رفضه لاستقبال أبي العلاء، وعدم اعترافه بإجراءات السلطان ألب ارسلان، وبعد ثلاثة أيام من وصول الوزير الجديد، وصل كوهرائين إلى بغداد حاملا رسالة شفوية من السلطان للخليفة في معنى العزل وقبول تعيين أبي العلاء، وعلى ما يبدو أن الخليفة فهم من رسالة ألب ارسلان سبب إصراره على عزل ابن جهير، وهو تأخر رسل دار الخلافة على السلطان بعد معركة ملاذكرت، فقد دافع الخليفة عن زيره بقوله: "قد عرفنا ضيق صدر عضد الدولة -ألب ارسلان- بتأخير رسلنا إليه، وانتظارهم بالري الانتظار الذي ثقل عليه ونسب ذلك إلى الوزير... ولا كان التأخير إلا بسبب ثوب نسيج يصلح للتشريف أبطأ الصناع في عمله، ويجب أن تكتب -أي كوهرائين- وتعلمه حقيقة الحال"[3]. لم يقنع هذا الرد السلطان ألب ارسلان وأصر على موقفه، فاضطر الخليفة ببعث رسالة ثانية للسلطان يذكر فيها

---

(1) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، (٤٤٠-٤٩٠هـ)، ص١٦٦.
(2) العماد الأصفهاني، نصرة الفترة، ق١٩أ.
(3) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ع.س، ص١٥٥-١٥٦.

محاسن الوزير ابن جهير"... وبالجملة فما يرى أمير المؤمنين تشعيث نظام وزيره وثقته وأمينه بعد أن خبره، وأحمد في الخدمة أثره، وارتضى ورده في كل مقام"، ويذم بها أبا العلاء: "وكيف والمشار إليه متهوم في دينه ومذهبه وغير مستوثق لما يستخدم فيه مع فساد معتقده وكدر شربه" ونجد لهجة الرسالة ترتفع وتيرتها، وتصبح أكثر حدة في مخاطبة السلطان "ومن بعد فمعلوم أن فيما قصد تحكم على أمير المؤمنين لا سبيل إلى الدخول تحته ولا دليل أوفي منه على جذ حبل الاحتشام دينه فهل في الجائز أن يرتب على بابه من لا يرتضى للمناب في عقد الأمور وحلها" وفي نهاية الرسالة يقارن الخليفة القائم بأمر الله بين البويهيين الشيعة والسلاجقة السنة من حيث تعاملهم مع الخلافة" وقد كان من سبق من زعماء الديلم – الذين يباينون وينحرفون عن الجدد المبين – يحتكمون إلى الخدمة ولا يتحكمون عليها ويعتمدون الالتجاء في أوقات الشدائد القادحة إليها فكيف يسوغ أن يتم ضد ذلك من معدن الإخلاص والولاء ومشرب العذوبة والصفاء، وأنت مع اعتقادك الصحيح وانتهائك في الطاعة إلى المجال الواضح الفسيح أغير على الحشمة الأمامية من هذه الحال التي هي فيها قادحة وشواهد الهجنة بها بادية لائحة"[1]. أمام هذا الدفاع القوي من الخلافة عن إرادتها في اختيار إدارتها نجح الخليفة القائم بأمر الله في الإبقاء على وزيره ورفض إجراءات السلطان، إلا أن السلطان ألب ارسلان والوزير نظام الملك نجحا في عزل الوزير فخر الدولة بن جهير في عهد الخليفة المقتدي لأمر الله سنة (٤٧١هـ/١٠٧٨م)، وكانت الفتنة التي وقعت بين الحنابلة وفقهاء المدرسة النظامية، وراء عزل الوزير، فقد ألقى أبو نصر القشيري درسا في المدرسة النظامية ببغداد، وكان أشعريا حيث مال إلى الأشعرية وعاب من سواهم "فنسب أصحاب نظام الملك ما جرى إلى الوزير فخر الدولة وإلى الخدم"[2]. وقد أوكلت مهمة عزل الوزير لشحنة بغداد كوهرائين الذي تمادى في إيذاء الخليفة وحاشيته، يصف سبط بن الجوزي ما حدث بقوله: "وعاد –

---

(1) ابن الموصلايا، الرسائل، ص٣٤٤–٣٤٥.
(2) ابن الأثير، الكامل، ج٨ ص١٢٥.

كوهرائين من الغد وشد خيله على باب الفردوس فراثت هناك، وجاء الظهر، والعصر، والمغرب، وضربت الطبول على باب الفردوس، وخاف الناس ونقلوا أموالهم، فخاف الوزير على الخليفة، فكتب إليه يستعفي، ومضى إلى داره، وبرز توقيع إلى كوهرائين"[1]. الذي فك حصاره عن دار الخلافة بعد استقالة الوزير.

وبعد أن يستعطف عميد الدولة بن فخر الدولة الوزير نظام الملك ويزوجه الأخير من حفيدته يكتب نظام الملك للخليفة طالبا عودة بني جهير للخدمة، فيردهم الخليفة إلى الديوان[2].

لقد بلغ هوان الخلافة على السلاجقة، بحيث أصبح وزير السلطان صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في تحديد من يكون وزيرا للخليفة، وأصبح وزراء الخلفاء يخطبون ود السلاطين ووزرائهم، لأن، رضاهم يعني بقاءهم في وزاراتهم.

ومن التجاوزات التي مارسها السلاطين السلاجقة وموظفوهم في بغداد مشاركة الخليفة في مظاهر سيادته السياسية، من خلال ذكر أسماء السلاطين وألقابهم إلى جانب الخليفة في خطب الجمعة، وضربها على السكة، وقد شارك السلاطين السلاجقة ونوابهم في بغداد الخليفة بضرب الطبول على أبوابهم في أوقات الصلوات وكان هذا مظهرا دينيا خاصا بالخليفة وحده، ففي سنة (٤٧١هـ/ ١٠٧٨م) طلب شحنة بغداد كوهرائين من الخليفة أن يسمح له بضرب الطبل على باب داره في أوقات الصلوات، إلا أن الخليفة رفض طلب الشحنة، على اعتبار أن هذا الأمر مظهرا من مظاهر سيادته الزمنية، ويذكر ابن الأثير سبب الرفض أيضا بقوله: "فلم يجب إليه لأنه لم تجر به عادة"[3]. لم يحفل كوهرائين برفض الخليفة، واستغل سوء العلاقة بين السلطان ملكشاه، والخليفة المقتدي سنة (٤٧١هـ/ ١٠٧٨م)، وأمر بضرب الطبل على باب داره في أوقات صلاة الفجر والمغرب

(1) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان،عزس، ص١٩٦.
(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩٩/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٦/ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ع.س، ص١٩٨.
(3) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٦.

والعشاء[1]. وتكرر هذا الأمر مع مؤيد الملك بن نظام الملك، عند قدومه لبغداد، ونزوله في المدرسة النظامية سنة (٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م)، فقد أمر بضرب الطبول على باب داره رغم احتجاج الخليفة على ذلك[2].

ومن المؤشرات على خضوع الخلفاء لرغبات السلاطين السلاجقة ما حدث سنة (٤٩٨هـ/ ١١٠٤م) عندما خطب في مساجد بغداد لسلطانين في آن واحد فقد خطب لملكشاه بن السلطان بركياروق ولم يبلغ من العمر خمس سنوات، في الجانب الشرقي من بغداد، وخطب للسلطان محمد بن ملكشاه في الجانب الغربي منها[3].

وتدل حادثة زواج السلطان طغرلبك من ابنة الخليفة القائم بأمر الله - وهي سابقة لم تحدث من قبل أن تزوج احد السلاطين المتغلبين على الخلافة من بنات الخلفاء- على مدى التسلط الذي مارسه السلاطين السلاجقة على الخلفاء وقد حاول الخليفة القائم بأمر الله التصدي لطلب السلطان، بفرضه بعض الشروط معتقدا أنها كفيلة برد السلطان عن طلبه، وهذه الشروط:[4].

أولاً: تسليم مدينة واسط وجميع ما كان لخاتون زوجة السلطان المتوفاة من الأملاك والإقطاع والرسوم في سائر الأصقاع.

ثانيا: أن يدفع السلطان مهرا مقداره ثلاثمائة ألف دينار.

ثالثاً: أن يتخذ السلطان من مدينة بغداد مقرا له ولا يحدث نفسه بالرحيل عنها.

وعندما أتضح للسلطان تمنع الخليفة أخذ يذكره بما له من فضل على الخلافة "هذا جرى من الخليفة الذي قتلت أخي في خدمته، وأنفقت أموالي في

---

(1) نفس المصدر، ج٨، ص١٢٦/ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ع.س، ص١٩٥.
(2) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٢٣.
(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٩٠-٩١/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٢٣-٢٢٤.
(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٦٥/ ابن العمراني، الأنباء، ص١٩٨/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٩٢-٩٣.

نصرته، وأهلكت خواصي وحاشيتي وعسكري في محبته"[1]. وأوعز إلى وزيره الكندري وعميد العراق بالضغط على الخليفة حتى تحصل الموافقة، فطلب السلطان من عميد العراق أن "يقبض ما في يد الخليفة ويد الحاشية من الإقطاعات، ويترك ما كان في أيام القادر[2]. وقام عميد العراق ببعض الإجراءات التي ضيقت على الخليفة منها تنفيذ أمر السلطان بإرسال ارسلان خاتون -بنت أخ السلطان- زوجة الخليفة إلى دار المملكة كما شرع العميد في "أخذ أصحاب الخليفة من داره ومصادرتهم ومد يده إلى الجوالي، وكان مغلها في كل سنة ألف وخمسمائة دينار، وكانت داخله في إقطاع الخليفة"[3].

أمام هذه الضغوط التي مورست على الخليفة لم يجد بدا من الموافقة على طلب السلطان، واخذ يعلل موافقته لما للسلطان من أياد بيضاء، وفضل كبير على الخلافة، وبموافقة الخليفة تم رفع الحجز عن جميع اقطاعاته واقطاعات حاشيته[4].

وتكررت هذه الحادثة مرة أخرى، عندما تقدم السلطان ملكشاه بخطبة ابنة الخليفة المقتدي بأمر الله عن طريق إرسال الفقيه النسوي[5]. الذي لم ينصح الخليفة بالموافقة على طلب السلطان لئلا يخلط نسبه الطاهر بالتركمان[6]. ولم يذكر لنا كل من السبكي والذهبي اللذين أوردا هذه الحادثة رد فعل الخليفة على طلب السلطان.

وكانت أكثر الحوادث ايلاما على الخلافة العباسية، ما قام به السلطان ملكشاه سنة (٤٨٥هـ-١٠٩٢م)، ففي هذه السنة حضر السلطان إلى بغداد وطلب من

(1) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ع.س، ص٨٦.
(2) الروانلي، راحة الصدور، ص١٧٦-١٧٧/ البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢١/ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ع.س، ٨٦.
(3) سبط بن الجوزي. مرآة الزمان، ع.س، ص٨٦-٨٧.
(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٨٠-٨١/ البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٣.
(5) هو محمد بن عبدالله بن احمد النسوي ولاه القائم بأمر الله قاض للقضاة في خوارزم ولقبه بأقضى القضاة. مات سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م. السبكي، طبقات الشافعية، ج٤، ص١٧٥-١٧٧.
(6) السبكي، طبقات الشافعية/ ج٤، ص١٧٦-١٧٧/ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ص٤٧٧-٤٧٨.

الخليفة المقتدي بأمر الله مغادرتها، والإقامة في أي مكان يشاء[1]. وعندما طلب الخليفة مهلة لترتيب شأن خروجه رفض السلطان أن يمهله ساعة، فتدخل الوزير تاج الملك أبي الغنائم وزير السلطان، وأقنعه بمنحه عشرة أيام لترتيب أوضاع رحيله، وفي هذه الفترة يشاء القدر أن يموت السلطان ملكشاه[2]. ليتنفس الخليفة الصعداء بعدما وضع في هذا الموقف المؤلم والمحرج[3]. والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام ما الذي دفع السلطان ملكشاه للقيام بذلك؟

تتحدث المصادر عن زواج الخليفة المقتدي بأبنة السلطان ملكشاه سنة (٤٨٠هـ/ ١٠٨٤م)، وقد أثمر هذا الزواج عن مولود ذكر عرف باسم جعفر فأخذ السلطان ينظر لتوليته وليا لعهد أبيه، وبذلك يكون حصر السلطنة والخلافة بيد السلاجقة[4]. ومن الدلائل التي تؤكد ذلك أن زوجة ملكشاه كانت تخاطب جعفرا هذا بحضرة أبيه بعبارة "يا أمير المؤمنين" ولهذا دلالة واضحة في تبيت أمر توليته وليا للعهد، ويذكر الراوندي أيضا ما نصه: "فقد كان العزم قبل وفاة ملكشاه أن يبنوا دارا للخلافة وحرما ملحقا بها في أصفهان، وأن يقيموا الأمير جعفرا فيها"[5]. وعلى ما يبدو أن السلطان ملكشاه قد طلب من الخليفة عزل ولي عهده

---

(1) العمراني، الأنباء، ص٢٠٤/ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٩٩/ السبكي، طبقات ج٤، ص٣٣٦.

(2) تذكر المصادر عن موت ملكشاه أنه خرج للصيد فأكل مما اصطاد فأصابته حمى توفي على أثرها قد يثار تساؤل حول موت السلطان المفاجئ والسريع في تلك الظروف وهل كانت هناك أيدي خفية وراء موته؟ من المؤكد أن الخليفة كانت له مصلحة في موت السلطان، كما قد يتهم مماليك نظام الملك، كون أصابع الاتهام في مقتل الوزير تشير لملكشاه، حسبما أورده ابن الأثير، وابن العبري. انظر ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٦٢/ ابن العبري، تاريخ الزمان، ص١٢٠.

(3) الرواندي، راحة الصدور، ص١٦/ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ع.س، ص٢٢٤.

(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٦٨/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٤٥/ البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٧٢-٨٣/ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص٢٨٣/ الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص١٠/ شبارو، السلاطين في المشرق العربي، ص٣٠.

(5) الرواندي، راحة الصدور، ص٢١٦.

المستظهر بالله وهو أكبر أبناءه وتولية جعفرا وليا للعهد، ورفض الخليفة لطلب السلطان يفسر طلب الأخير من الخليفة مغادرة بغداد[1].

وتصف المصادر حال الخليفة في هذه الحادثة، فأخذ يصوم وإذا أفطر جلس على الرماد، يدعو على السلطان، فمرض في تلك الأيام ومات[2].

بعد هذا العرض الذي أوضحنا من خلاله جوهر العلاقة بين الطرفين نتبين أن هذه العلاقات لم تكن سليمة، كما أنها لم تكن متكافئة، فقد نظر السلاجقة على أنهم أصحاب فضل على العباسيين، فهم الذين قضوا على تمرد البساسيري، وأعادوا الخليفة لمقر حكمه، فكان تعامل السلاجقة مع الخلافة ينطلق من أنهم أصحاب القوة المدافعة عنها، وبالتالي أعطوا لأنفسهم حق تجريد الخلفاء من سلطتهم الزمنية.

وعلى الرغم من ذلك، فقد حافظ السلاطين على مظهرية هذه العلاقات، من خلال مراسم استقبال الخلفاء والسلاطين، كما حرص السلاجقة على إبقاء علاقات الود بينهم وبين الخلفاء، كونهم يستمدون شرعية حكمهم منهم إلى جانب رغبة السلاطين في الحصول على الألقاب والخلع من الخلفاء لتعزيز مكانتهم أمام منافسيهم، ورعياهم، مما جعلتهم يظهرون بعض الاحترام لهم ولكن هذه المظاهر "البروتوكولية" لم تكن تعبر عن حقيقة العلاقات بين الخلفاء والسلاطين.

ونستطيع القول أن وضع الخلافة العباسية قد تحسن في عصر السلاجقة عما كانت عليه أيام البويهيين، فقد بدت مظاهر احترام الخلفاء واضحة من خلال استقبال الخلفاء للسلاطين، يذكر ابن الجوزي في مراسم استقبال الخليفة القائم بأمر الله للسلطان طغرلبك: "فدخل فقبل الأرض سبع مرات"[3]. كما كان

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٨٨.
(2) نفس المصدر، ج٥، ص٢٨٩/ ابن الطقطقي، الفخري، ص٢٩٦/ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٣٤/ نظمي زاده، كلشن خلفا، ص١١.
(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٥١.

السلاطين ونوابهم يعبرون عن مدى احترامهم للخليفة، بتقبيلهم لعتبة دار الخلافة[١]. عندما يفدون لبغداد، وانتشرت عادة تقبيل يد الخليفة أو خاتمه[٢].

ومقارنة بأيام البويهيين نلاحظ التحسن المالي الذي طرأ على وضع الخلفاء العباسيين، فقد زيدت اقطاعاتهم، كما كانت تضاف إليهم بعض الاقطاعات من قبل السلاطين، على سبيل التقرب من الخلفاء، كما فعل السلطان ملكشاه عندما فوضه الخليفة المقتدي بأمر الله سلطاته الزمنية[٣].

وحاول السلاطين السلاجقة التقرب من الخلفاء بعدة طرق، ومن هذه الطرق علاقات المصاهرة التي جمعت بين الطرفين، فقد تزوج الخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م) من أرسلان خاتون ابنة داود شقيق السلطان طغرلبك[٤]. كما تزوج الخليفة المقتدي بأمر الله سنة (٤٦٤هـ/ ١٠٧١م) من ابنة السلطان ألب ارسلان[٥]. ثم تزوج سنة (٤٨٠هـ /١٠٨٧م) من ابنة السلطان ملكشاه، وقد مر معنا ما ترتب على هذا الزواج[٦]. وفي سنة (٥٠٢هـ/١١٠٨م) تزوج الخليفة المستظهر بالله (٤٨٧- ٥١٢هـ/ ١٠٩٤- ١١١٨م) من شقيقة السلطان محمد بن ملكشاه[٧].

وبفضل السلاجقة امتد نفوذ الخلافة العباسية إلى أقصى اتساع له في عصر الخليفة المقتدي بأمر الله منذ القرن الثامن الهجري، التاسع الميلادي، بحيث

---

(1) تقع عتبة دار الخلافة في باب النوبي أحد أبواب دار الخلافة. القزويني، أثار البلاد، ص٣١٦/ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٣٣٣.

(2) ابن العمراني، الأنباء، ص١٨٩-١٩١/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٨٣.

(3) ابن العمراني، الأنباء، ص١٩٧.

(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٤/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٧٤/ البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص١٣/ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ع.س، ص٢/ أمين، تاريخ العراق، ص١٣٥.

(5) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٤٠/ ابن الأثير، الكامل، ج٢، ص١١١/ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ع.س، ص١٥٦/ ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص١٠٩-١١٠.

(6) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٩٦/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٤٥.

(7) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١١٢/ الذهبي، سير، ج١٩، ٤٠٨.

خطب للعباسيين في بلاد العراق، و بلاد ما وراء النهر، وخراسان، والجزيرة، وبلاد الشام، والحجاز، واليمن، والمغرب، والأندلس(1).

ومن أهم التغيرات التي حدثت في العراق، منذ دخول السلاجقة لبغداد سنة (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م)، التغيير الكبير في بنية التركيبة المذهبية، لصالح السنة، فقبيل دخول السلاجقة لبغداد كانت الدعوة لفاطمية قد انتشرت في معظم البلاد الخاضعة للخلافة العباسية نتيجة نشاط الدعاة الفاطميين وفي مقدمتهم داعي الدعاة هبة الله الشيرازي، فقد بدأت الخلافة العباسية بالعمل على الإحياء السني في أراضيها مستندة في ذلك على قوة السلاجقة، يقول ابن الأثير في حوادث سنة (٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م): "وفيها أمر الخليفة بأن يؤذن بالكرخ والمشهد وغيرها الصلاة خير من النوم، وأن يتركوا خير من العمل، ففعلوا ما أمرهم به خوف السلطنة وقوتها"(2).

ويحدثنا ابن الجوزي نقلا عن ابن البناء، في حوادث سنة (٤٦٠هـ/١٠٦٧م) أن مجموعة من الفقهاء طالبوا بإخراج الإعلان القادري والقائمي لقراءته في المساجد وتكفير من يعارض هذا الاعتقاد، وقد قرئ في باب البصرة وحضره الخاص والعام(3).

ويعود الفضل إلى نظام الملك أشهر وزراء السلاجقة والذي وزر للسلطانين ألب أرسلان وملكشاه، في تعزيز المذهب الشافعي، من خلال إنشاء المدارس في المدن الإسلامية الكبرى، كبغداد، وأصفهان، ونيسابور، وهراة، وبلخ، وكان لهذه المدارس دور كبير في إعداد الفقهاء والعلماء الذين أخذوا على عاتقهم نشر المذهب السني وتعزيزه داخل أراضي الخلافة العباسية، وكانت المدرسة النظامية في بغداد معهدا علميا يعج بالحركة، والمناقشات والمناظرات الفكرية بين

(1) ابن الموصلايا،الرسائل، ص١٧٨، ٢٤٦/ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٦٦.
(2) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٧٩.
(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٠٥-١٠٦.

مختلف المذاهب السنية، كما كان لهذه المدارس دورا كبيرا في إعداد الكوادر الإدارية التي عملت في الإدارتين العباسية والسلجوقية[1].

الخليفة المسترشد بالله ومحاولاته لإحياء الخلافة العباسية

(٥١٢ـ٥٢٩هـ/ ١١١٨ـ١١٣٤م)

يصف الأصفهاني حال الخلفاء العباسيين مع السلاطين السلاجقة بقوله: "وكان أهون ما عندهم خلاف الخليفة وعناده وتمردهم عليه بأن يحصل مرادهم لا مراده... والحرم من جناياتهم خائف والشرف لمهابتهم عائف، وشريعة الشريعة مكدرة، والدماء والفروج مستباحة مهدرة، والخليفة يغضب ولا يغضب، ويعتب ولا يعتب، ويقدر عليه ولا يقدر، ويغدر به وهو على العهد لا يغدر"[2].

على الرغم من ذلك لم تشر المصادر التي بين أيدينا عن محاولات جدية لإعادة السلطة الزمنية للخلافة، من قبل الخلفاء الذين جاءوا قبل المسترشد بالله، وقد يعزى السبب في ذلك إلى القوة التي كان يتمتع بها السلاجقة خاصة في أيام السلاطين العظام كطغرلبك، وألب أرسلان، وملكشاه، ولكن بعد موت الأخير سنة (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) دب الصراع على السلطة بين أفراد البيت السلجوقي[3]. إلا أن الخلافة لم تستغل هذا الصراع لتقوية مركزها، فكل ما يذكر في هذا المجال عن عهد المقتدي بأمر الله إصداره دينارا سنة (٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م) يحمل اسمه دون الإشارة للسلطان السلجوقي[4]. لكن الأمر لم يدم طويلا فسرعان ما حسم الصراع

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٣٠٤/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٦٢/ فياض الخلافة العباسية في عهد السلاجقة، ص٥٦/ مقابلة، المؤسسات الاجتماعية والثقافية في بلاد الشام في العصر المملوكي، ص٣٨.

(2) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢١٦.

(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٣٠٠/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٦٤-١٦٥/ البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٨١.

(4) أبو الفرج العش، دينار عباسي، ص٢١-٢٦/ الحسيني، دينار عباسي نادر، ص٦٥-٧٣.

السلجوقي بين أبناء السلطان ملكشاه: محمود وبركياروق لصالح الاخير، ونودي بـه سلطانا على السلاجقة[1].

وهذا ما جعل ابن دحية يصف خلافة المقتدي بقوله: "فلم يكن للخليفـة المقتدي من الأمر سوى الاسم، ولا يتعدى حكمه بابه، ولا يتجاوز جنابه"[2].

وينسحب هذا الأمر على الخليفة المستظهر بالله الذي لم يبدي أيـة محاولـة لاستعادة سـلطته الزمنيـة، بـرغم النـزاع الـذي دب بـين كبـار رجـال البيـت السلجوقي[3].

وبوصول الخليفة المسترشد للخلافة سنة (٥١٢هـ/١١١٨م) تبدأ رحلة كفاح الخلفاء العباسيين الحقيقية لاسترداد سلطاتهم الزمنية[4].

تكاد تجمـع المـصادر التاريخيـة علـى أن الخليفـة المـسترشد بـالله، اتـصف بصفات أهلته لأن يكون صاحب المبادرة في إعادة الهيبة للخلافة، وإحيـاء مـا انـدثر من معالمها، والعودة بها إلى سابق عهدها أيام الخلفاء الأوائل من بني العباس.

يصفه ابـن العمرانـي بقولـه: فحـل بـني العبـاس، ونجيـبهم، وفاضـلهم، وكاتبهم، وأشجعهم"[5].

أما ابن الجوزي فيقول عنه: "كان له همة عالية، وشـجاعة وإقـدام، وكـان يباشر الحروب"[6]. ويـضيف "وكـان لـه هيبـة عظيمـة، وهمـة رفيعـة، وشـجاعة شديدة"[7].

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٩٣-١٩٨.
(2) الجالودي، تطور السلطنة، ص١٠٦، نقلا عن ابن دحية، النبراس في تاريخ بني العباس.
(3) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٩٨/ بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٢٨٣.
(4) ابن حمدون، ألتذكرة ق١٦٩أ/ أبو الفـداء، المختـصر، ج٢، ص٢٣٦/ الـذهبي، دول الإسـلام، ج٢، ص٢٧/ ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص٨٢.
(5) ابن العمراني، الأنباء، ص٢١٠.
(6) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣٠٤.
(7) ابن الجوزي، المصباح المنير، ج١، ص٥٩٦.

ويصفه ابن الأثير بقوله: "وأما المسترشد بالله فإنه استبد بالعراق بعد السلطان محمود، ولم يكن للسلطان معه في كثير من الأوقات سوى الخطبة، واجتمعت عليه العساكر وقاد الجيوش وباشر الحروب"[1].

ويقول فيه صاحب الروضتين: "وكان شجاعا مقداماً فصيحا، تمكن في خلافته تمكنا عظيماً"[2].

ويرى الحافظ ابن كثير أن المسترشد كان: "كثير العبادة محبباً إلى العامة والخاصة وهو آخر خليفة رؤى خطيبا"[3].

وجعله ابن دقماق فارسا لا يشق له غبار، فيقول: "وكان ذا نفس أبية وعزة قرشية عربية هاشمية، فارسا شجاعا، يسمح بالأموال، ويخرج بنفسه إلى القتال، ويضرب بنفسه هام الرجال"[4].

يتضح من وصف المؤرخين لشخصية المسترشد بالله، أنه اتصف بصفتين أساسيتين، الأولى: شجاعته التي أهلته لاتخاذ قرار المواجهة مع السلاجقة مستغلا حالة الخلاف بين السلاطين والملوك السلاجقة، وصراعهم على السلطنة، والثانية: تدينه، الذي أكسبه تقدير واحترام العامة في بغداد، والخاصة من العلماء، والفقهاء، ورجالات الإدارة الخلافية، والذي استند إليهم في صراعه هذا.

كانت المشكلة الأول التي واجهها المسترشد بالله، عصيان أخيه الأصغر أبي الحسن علي، عندما هرب من بغداد يوم وفاة أبيه المستظهر بالله إلى دبيس بن مزيد، طامعا بمساندته ضد أخيه للوصول للخلافة[5].

إلا أن المسترشد بالله استطاع التخلص من هذه المشكلة عندما ضغط على دبيس، فقام الأخير بتسليمه مقابل عشرين ألف دينار، فحجر عليه المسترشد بالله

---

(1) ابن الأثير، الباهر في الدولة الاتابكية، ص٥١.
(2) أبو شامة، الروضتين، ج١، ص٣١.
(3) ابن كثير، البداية والنهاية، م٦، ج١٢، ٢٤٤.
(4) ابن دقماق، الجوهر الثمين، ٢٠١.
(5) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٦٢/ الالوسي، الخليفة المسترشد بالله العباسي، ص٤٩٨.

إلى أن مات سنة (٥٢٥هـ/ ١١٣٠م) [1]. وعلى ما يبدو أن أبا الحسن، أصبح وسيلة ضغط استخدمها السلطان محمود ضد الخليفة المسترشد بالله، ففي سنة (٥١٤هـ/ ١١٢٠م) قدم السلطان إلى بغداد "وطالب بالإفراج عن الأمير أبي الحسن، فبذل له ثلاثمائة ألف دينار ليسكت عن هذا" [2].

أدرك الخليفة المسترشد بالله أن مواجهته مع السلاجقة تتطلب تسخير كل امكانات الخلافة، والتخلص من القوى المناوئة، والمشكوك في ولائها، وكان أمير الحلة دبيس بن مزيد، احد هذه القوى، والذي كان بمثابة الخنجر المغروس في خاصرة الخلافة، وعقبة كأداء لا بد من التخلص منها قبل الشروع في مواجهة السلاجقة.

ودبيس بن مزيد شخصية مراوغة، أدرك أن ضمان وجوده مرتبط بالتناقضات الموجودة على الساحة السياسية، إذا استغل الخلافات بين السلاجقة أنفسهم من جهة، والخلافات بين السلاجقة والخلافة من جهة أخرى فتارة نراه مع سلطان ضد آخر، وتارة أخرى نراه مع السلاجقة ضد الخلافة، وفي أحيان أخرى نجده يلعب لعبة التوازنات بين الأطراف المتنازعة، إلا أن هذه السياسة أودت بحياته في نهاية المطاف، وكانت القضية المركزية التي تحرك سياسة دبيس اقتناعه، بأن وجود خليفة ضعيف في بغداد سوف تعطيه مساحات وصلاحيات واسعة للتحرك داخل العراق، وهذا ما جعل السلاجقة يبقون عليه، فقد أدركوا أن المساحات التي يسمح له الحركة بها كانت محكومة بظروفه الذاتية أولا، وبإدراك السلاجقة لحجمه ثانيا فالإبقاء عليه من قبل السلاجقة كان لاعتبارات سياسة أملتها ظروف الصراع بين السلاجقة والخلافة، وليس غريبا أن تكون نهاية دبيس على يد السلاجقة، وليس الخلافة، فكان مقتله على يد السلطان مسعود يندرج تحت دوره في خدمه السلاجقة في صراعهم مع الخلافة.

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٧١-١٧٢.
(2) نفس المصدر، ج١٧، ص١٨٨.

ولم يكن وصف ابن الجوزي لسياسة دبيس مجانبة للحقيقة عندما قال: "وكان سيف الدولة –دبيس– يعجبه اختلاف السلاطين ويعتقد أنه ما دام الخلاف قائما بينهم فأمره منتظم كما استقام أمر والده صدقه[1]. عند اختلاف السلاطين"[2].

بدأت أعمال دبيس التخريبية ضد الخلافة سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م) عندما علم بانتصار السلطان محمود على حليفه الملك مسعود، فهاجم نهر عيسى، ونهر الملك واستولى على المدائن وبعقوبا، وقام بإحراق الأتبان والغلات تحسبا لقدوم السلطان محمود، وعندما علم الخليفة بأعمال دبيس أرسل إليه نقيب الطالبين أبا الحسن علي بن معمر يحذره عاقبة أفعاله، كما أرسل إليه السلطان محمود يطمئنه بأنه لن يدخل بلاده، ولن يمسه بسوء، ومع ذلك لم يحفل دبيس برسل الخليفة والسلطان، وإنما سار إلى بغداد ودخلها في جمادى الأولى سنة (٥١٤هـ/ آب ١١٢٠م)، ونصب سرادقه (خيمته) إزاء دار الخلافة، وأخذ يذكر أهل بغداد كيف قتل والده وطيف برأسه في شوارعها، وطالب الخلافة بثني السلطان عن القدوم لبغداد وعندما أدرك أن السلطان في طريقه إليها، قفل راجعا إلى الحلة تاركا بغداد الذي وصلها السلطان في رجب سنة (٥١٤هـ ١١٢٠م)، فحاول دبيس بعد ذلك أن يصلح الأمر مع السلطان، بإرساله ثلاثة عشر رأسا من الخيل وعشرين ألف دينار مع زوجته ابنة عميد الدولة ابن جهير، التي لم تفلح في الحصول على رضى السلطان عن زوجها، وعلى أثر ذلك توجه السلطان محمود إلى الحلة لمعاقبة دبيس الذي فر هاربا، فتبعه يرنقش الزكوي شحنة بغداد، وفي نهاية المطاف تم الصلح بين الطرفين، على أن يبعث دبيس بأخيه منصور رهينة لدى السلطان وذلك سنة (٥١٦هـ/ ١١٢٢م)[3]، إلا أن الخليفة أبدى اعتراضه على هذا الصلح، معللا ذلك

(1) عن صدقه بن مزيد وابنه دبيس، انظر، ناجي، الإمارة المزيدية.
(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٨٧.
(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٨٧–١٩٨/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٩٣/ ابن كثير، البداية، م٦، ج١٢، ص١٩٨/ ابن الطقطقي، الفخري، ص٣٠٢/ ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٦١٩.

بأن دبيس لا يلتزم باتفاق، وأنه قد يهاجم بغداد مرة أخرى، واقترح الخليفة توليه أقسنقر البرسقي شحنة لبغداد، فتم له ذلك، وبعدها غادر السلطان محمود بغداد عائدا إلى همذان وعلى أثر ذلك توجه البرسقي لقتال دبيس بطلب من الخليفة، والتقى الطرفان سنة (٥١٦هـ/ ١١٢٢م) وهزم البرسقي في هذه المعركة[١]. وتقررت على أثر ذلك قواعد الصلح بين دبيس والخليفة، على عدة شروط منها[٢]:

أولاً: أن يقبض الخليفة على وزيره ابن صدقة[٣].

ثانياً: تنحية البرسقي عن شحنكية بغداد.

ثالثاً: إطلاق منصور أخو دبيس المعتقل لدى السلطان محمود.

لم ينفذ الخليفة إلا الشرط الأول فعزل الوزير ابن صدقة ونهب داره وتولى وزارة الخليفة أبو نصر احمد بن نظام الملك الذي قام بإطلاق ابن صدقة فقام الأخير بالتوجه لحديثة عانة للصداقة التي تربطه بصاحبها سليمان بن مهارش[٤].

اعتبر دبيس أن الخليفة قد اخل بشروط الصلح الذي تم عقده فيما بينهم، كما قد بلغه أن السلطان محمود كحل (سمل) أخاه منصور، فجز شعره ولبس السواد وحلف أن لينهبن بغداد، ثم قام بالاعتداء على إقطاعات الخليفة في نهر الملك، فلما بلغ المسترشد بالله ما أحدثه دبيس، بعث إليه عفيف الخادم للتفاوض معه، فأصر دبيسن على تنفيذ شروط الصلح قائلا لعفيف الخادم: لقد ضمنوا لي هلاك ابن صدقه فأخرجوه من الضيق إلى السعة، واجلسوا ابن النظام في الوزارة للتقوى بالسلطان محمود، وأنني خاطبتهم بإخراج البرسقي من بغداد فلم يفعلوا،

---

(1) ابن العمراني، الأنباء، ص٢١٣/ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٠٣-٢٠٤/ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٠٧/ ابن العديم، زبدة الحلب، ص١٩٧.

(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٠٧/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٠٨.

(3) هو أبو علي الحسن بن علي بن صدقة، ت سنة ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م. انظر ترجمته، ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٥٠-٢٥١/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٣٧.

(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٠٧/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٠٩.

ووعدوني بإطلاق أخي منصور ونكثوا، وحدد خمسة أيام لتنفيذ شروطه وإلا جاء بغداد محاربا[1].

إزاء هذه التطورات أخذ الخليفة بالاستعداد لمواجهة الموقف، يقول ابن الجوزي في هذا الصدد: "أخرج المسترشد السرادق، ونودي النفير فأمير المؤمنين خارج إلى القتال عنكم يا مسلمين"[2].

واستدعى الخليفة العساكر وانضم إليه سليمان بن مهارش صاحب حديثة عانة، وقراوش ابن مسلم، وزنكي بن اقسنقر من البصرة، كما انضم إليه البرسقي وجماعة من الأمراء" ونودي في بغداد لا يتخلف من الاجناد احد، ومن أحب الجندية من العامة فليحضر فجاء خلق كثير ففرق فيهم الأموال والسلاح[3]. وقد حرص الخليفة في هذه المواجهة على إظهار كل ما يؤكد نفوذه الديني، فخرج والناس بين يديه وعليه البردة، والقضيب، لابسا العباءة والعمامة، وبين يديه الوزير ابن نظام الملك، والنقيبان، وبنو هاشم وبنو علي، وقبل أن يتوجه للقتال استفتى الفقهاء في قتال دبيس فأجازوا له ذلك لأنه: "يسب الصحابة، ويترك الصلوات، وليس في بلاده مؤذن ولا جمعة، وأنه يشرب الخمر في نهار رمضان، وأنه يسفك الدماء"[4]، ثم بعث إليه أبا بكر الشهرزوري[5]، ينذره ويحذره إراقة الدماء فما زاده ذلك إلا طغيانا وخلافا[6]، توجه الخليفة على رأس جيشه والذي يصفه ابن الأثير بقوله: "ولم ير في عسكر الخليفة غير قارئ ومسبح" بينما يصف جيش دبيس بقوله: "بادر أصحاب دبيس وبين أيديهم الإماء يضربن بالدفوف،

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٠٧/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٠٩/ سبط بن الجوزي، ج٨ ق١، ص١٠٠.
(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٠٧.
(3) ابن العمراني، الأنباء، ص٢١٥/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣١٠.
(4) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص١٠١-١٠٢/ أبو شامة، الروضتين، ج١، ص٢٩/ ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص٣٠.
(5) محمد بن القاسم بن المظفر الموصلي، مات سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م. انظر ترجمة، ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٣٨/ الذهبي، تذكرة الحفاظ ١٢٨٣.
(6) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨ ق١، ص١٠١.

والمخانيث بالملاهي"[1]، أما أهل بغداد فيصفهم ابن الجوزي في الليلة التي سبقت المعركة بقوله: "وفي هذه الليلة اجتمع أهل بغداد على الدعاء في المساجد وختام الختمات والابتهال في النصر"[2]. التقى الطرفان ومالت الكفة لصالح جيش الخلافة، وهرب دبيس إلى الملك طغرل بن محمد بن ملكشاه[3].

وتكمن أهمية هذه المواجهة العسكرية بين الخلافة العباسية ودبيس بن صدقة في هذه المرحلة بالذات بعدة نواح: أولاً: أنه ولأول مرة في تاريخ الخلافة العباسية منذ العصر البويهي تبدأ الخلافة بمواجهة ما يعترضها من مشاكل، من خلال تكوين جيش خاص بها للدفاع عن مصالحها ونفوذها.

ثانياً: استطاع الخليفة المسترشد بالله الزج بأهل بغداد في هذه المواجهة، عندما سمح لهم بمشاركته في قتال دبيس استعدادا للمواجهة مع السلاجقة.

ثالثاً: استخدام الخليفة لنفوذه الديني في حشد الفقهاء والعلماء في هذه المواجهة من استصدارهم للفتوى لقتل دبيس، إلى جانب قيام خطباء المساجد بالدعاء لجيش الخلافة على المنابر في سائر بغداد، وحتى لا يراق الدماء بين المسلمين حرص الخليفة على إرسال رسول إلى دبيس قبل بدء المعركة.

كما أظهرت هذه المواجهة وجود أعوان لدبيس داخل الإدارة الخلافية، إلى جانب ميل شيعة بغداد له لاتفاقهما في المذهب، ففي محرم من سنة ٥١٧هـ/ آذار ١٢١٣م) نقضت دار على بن أفلح كاتب المسترشد لاتهامه بالتجسس لصالح دبيس، كما عزل نقيب العلويين لذات التهمة أيضا[4]. وبعد هذه المواجهة مع دبيس أدرك الخليفة المسترشد بالله أن السلاجقة لن يسمحوا له بالاستمرار في خططه، وتكوين جيش خاص بالخلافة، فأخذ يستعد للدخول في مواجهة محتملة معهم، وقد اظهر في أكثر من موقف خيبة أمله نتيجة تعامل السلاجقة مع الخلافة،

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٦١.
(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢١٧/ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨ ق١، ص١٠٩.
(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٢٤/ ناجي، الإمارة المزيدية، ص١٥١.
(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢١٧/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣١٤.

ينسب السمرقندي للمسترشد بالله قوله: "فوضنا أمورنا إلى آل سلجوق فبغوا علينا فطال عليهم الأمر فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون"[1].

اخذ الخليفة المسترشد بالله، بالاستعداد، فشرع ببناء سور حول بغداد، حشد فيه كل الطاقات والإمكانات، وأظهر أهل بغداد تجاوبا منقطع النظير مع خليفتهم، يقول ابن الجوزي: "وكان كل أسبوع تعمل أهل محلة، ويخرجون بالطبول والجنكات -المزامير- "[2].

كما أظهر أعيان بغداد والموسورون، ورجال الإدارة الخلافية وقوفهم إلى جانب المسترشد بالله، فقد دفع الوزير احمد بن نظام الملك مبلغ خمسة عشر ألف دينار من أجل بناء السور، وأخرج الخليفة من ماله الخاص وقسط الباقي على الموسرين من أهل بغداد[3] ومن الإجراءات التي قام بها الخليفة عزل البرسقي شحنة بغداد، وإعادة سعد الدولة يرنقش الزكوي إليها وكان قد عزل الأخير سنة (٥١٦هـ/ ١١٢٢م) بناء على طلب دبيس بن صدقة[4].

وكانت أهم هذه الإجراءات، إعادة الوزير أبو علي بن صدقة إلى الوزارة سنة (٥١٧هـ/١١٢٣م)، وبعودة ابن صدقة لوزارة الخليفة، ينضم احد الرجال الأقوياء للإدارة الخلافية، يقول ابن الطقطقي: "وتقدم -أي المسترشد- إلى أرباب الدولة بالسعي بين يديه – أي ابن صدقة- إلى الديوان، وهو أول وزير مشى أرباب الدولة بين يديه"[5].

---

(1) السمرقندي، جهار مقالة، ص٣١.

(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢١٩/ وانظر، ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣١٤.

(3) بنيامين التطلي، الرحلة، ص٧/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣١٤.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣١٦.

(5) ابن الطقطقي، الفخري، ص٣٠٤/ وانظر ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٢٠/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣١٣.

وسيلعب ابن صدقة دورا بارزا أثناء الصراع المقبل بين الخلافة والسلاجقة، ويعبر المسترشد بالله عن ألمه وحزنه لفقدان وزيره ابن صدقة، عندما عاده أثناء مرضه الذي مات فيه سنة (٥٢٢هـ/ ١١٢٧م) منشداً[(١)]:

دفعنا بك الآفات حتى إذا أتت   تريدك لم نسطع لها عنك مدفعا

ونعود إلى دبيس فبعد هزيمته من قبل الخليفة فر هاربا إلى الشام عند بني المنتفق لصلة القرابة التي تجمعه بهم[(٢)]. ثم توجه بعد ذلك إلى الملك طغرل بن محمد، وأخذ يحرضه بالمسير إلى بغداد لطلب السلطنة، واستطاع إقناعه بذلك، وعندماعلم الخليفة بنية الحليفين، أخذ يستعد للخروج إليهما، وأمر الوزير ابن صدقة بجمع العساكر، الذي بلغ تعدادهم اثني عشر ألف مقاتل، وخرج الخليفة ووزيره للقاء الملك طغرل ودبيس الذين كانا في طريقهما لبغداد، وبسبب الأحوال الجوية القاسية، ومرض الملك طغرل، استطاع الخليفة أن يحسم هذه المواجهة لصالحه، وكاد دبيس أن يقع بيد الخليفة، فأخذ يستعطفه ليمنحه الأمان، وكاد الخليفة أن يفعل، لولا تدخل وزيره ابن صدقة، وبذلك فشلت محاولة الملك طغرل ودبيس في الدخول لبغداد، الذين عادا إلى خراسان واستجارا بالسلطان سنجر[(٣)].

بعد هذا الانتصار الذي حققته الخلافة، والذي منحها ثقة أكبر بقدراتها في الدفاع عن مصالحها، أخذ الخليفة المسترشد بالله بإتباع سياسة "فرق تسد"، من خلال ضرب السلاجقة بعضهم ببعض، ليشغلهم ويبعدهم عن بغداد، فقد أرسل سنة (٥٢٠هـ/ ١١٢٦م) إلى السلطان محمود، يخبره بالانتصار الذي حققه على الملك طغرل، فأثنى السلطان على الخليفة معتبرا ما قام به دفاعا عن سلطنته ضد

---

(1) ابن الطقطقي، الفخري، ص٣٠٥.
(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢١٩/ ابراهيم، موسوعة البصرة الحضارية، ص١٢١.
(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٢٨-٢٢٩/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣١٧-٣١٨/ ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٦٢٢.

أخيه طغرل، وهنا حاول الخليفة إغراء السلطان محمود بتزعم السلاجقة، بالقضاء على سنجر سلطان خراسان "ويكون محمود في السلطنة وحده"(1).

ويبدو أن طلب الخليفة صادف رغبة لدى السلطان محمود، وعندما علم السلطان سنجر بما اتفق عليه الخليفة والسلطان، أرسل إلى ابن أخيه يحذره مكر الخليفة قائلاً: "أنت يميني، والخليفة قد عزم على أن يمكر بي وبك، فإذا اتفقتما علي فرغ مني وعاد إليك، فلا تلتفت إليه... ويجب بعد هذا أن تمضي إلى بغداد، ومعك العساكر، فتقبض على وزير الخليفة ابن صدقة، وتقتل الأكراد الذين قد دونهم، وتأخذ النزل الذي قد عمله وجميع آلة السفر"(2). وأكد يرنقش الزكوي شحنة بغداد للسلطان محمود ما جاء في رسالة السلطان سنجر، فقد خرج الزكوي من بغداد سنة (٥٢٠هـ/ ١١٢٦م) على أثر خلاف وقع بينه وبين نواب الخليفة، والوزير ابن صدقة، وأخذ يحرض السلطان بالتوجه لبغداد، يقول ابن الأثير: "وشكا إليه وحذره جانب الخليفة،وأعلمه أنه قاد العساكر ولقي الحروب وقويت نفسه، ومتى لم تعاجله بقصد العراق، ودخول بغداد ازداد قوة وجمعا ومنعك عنه، وحينئذ يتعذر عليك ما هو الآن بيده"(3).

وعلى ما يبدو أن الخلاف الذي وقع بين رجال الإدارة العباسية، وعلى رأسهم الوزير ابن صدقة وبين شحنة بغداد كانت نابعة من إدراك الزكوي، لتراجع سلطته لحساب سلطة الوزير، ورجالات الإدارة العباسية، فقد وقف الخليفة إلى جانب إدارته "فخافه –الزكوي– على نفسه فسار عن بغداد إلى السلطان"(4). وقام بتحريضه للتحرك لبغداد، ويستدل من الرسالة التي بعث بها السلطان سنجر للسلطان محمود، موقف الأول من وزير الخليفة، فقد اتهم الوزير بأنه وراء تحريض الخليفة لإعداد الجيوش، والخروج عن طاعة السلاجقة، ويورد ابن

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٣٦.
(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٣٦/ ابن كثير، البداية والنهاية، م٦، ج١٢، ص٢٠٩.
(3) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٢١/ وانظر، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٦٢٣.
(4) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٢١.

الطقطقي عبارة تنم عن قوة ابن صدقة، وموقفه من السلطان سنجر أقوى سلاطين السلاجقة في تلك المرحلة، يقول ابن صدقة في رسالة موجهة للسلطان سنجر عندما أراد التوجه لبغداد: "والله لئن تحركت لأقطعن جميع ما ورائك عنك، وأقطعك عنه، ولئن سرت فرسخا لأسيرن إليك فرسخين"[1]. أدرك السلاجقة خطورة وجود رجل قوي كابن صدقة في إدارة الخليفة المسترشد بالله، فقرروا التخلص منه، وهذا ما تؤكده رسالة السلطان سنجر للسلطان محمود "ونفذ إليه -أي المسترشد- رجلا، وقل: هذا يكون وزيرك"[2].

اتفق السلطان سنجر ومحمود على تجريد الخليفة من مظاهر قوته، سواء الجيش الذي أعده، أو التحصينات التي أقامها في بغداد، وعزل الوزير ابن صدقة وبعدها قرر السلطان محمود التوجه لبغداد، وعندما علم الخليفة بفشل خطته بضرب السلطانين بعضهم ببعض، وعلم بقرار السلطان محمود بالقدوم لبغداد بعث إليه كاتبه سديد الدولة ابن الأنباري، يقول له "تقنع أن تتأخر في هذه السنة عن بغداد لقلة الميرة والناس في عقب الغلاء"[3]. "بسبب دبيس وإفساد عسكره فيها"[4]. عندها أدرك السلطان محمود خطة الخليفة، وتأكد له ما جاء برسالة عمه سنجر، فرد على ابن الأنباري قائلا: "لا بد لي من المجيء"[5]. أمام هذه التطورات، أخذ الخليفة يستعد لمواجهة السلطان محمود "فشرع الخليفة في عمل المضارب، وإعداد السلاح وجمع العساكر، ونودي ببغداد يوم السبت عاشر ذي القعدة بعبور الناس إلى الجانب الغربي"[6].

---

(1) ابن الطقطقي، الفخري، ص٣٠٥.
(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٣١.
(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٣١.
(4) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٢١.
(5) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٣١/ ابن العمراني، الأنباء، ص٢١٦.
(6) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٣٢/ وانظر، ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٢١.

وفشلت المفاوضات مرة أخرى بين الجانبين، عندما جاء شحنة بغداد يرنقش الزكوي، وأسعد الطغرائي من قبل السلطان، فقد أصر الخليفة على عودة السلطان عن بغداد هذا العام[1].

وفي عاشر ذي الحجة سنة ٥٢٠هـ/ كانون الثاني ١١٢٦م وهو يوم النحر نصبت خيمة كبيرة ببغداد، ووقف الخليفة المسترشد بالله خطيبا بحضور جميع رجالات الإدارة الخلافية كالوزير ابن صدقة، والنقيبان، وأرباب المناصب، والأشراف الهاشميون والطالبيون وخلق من الوجوه، وأقبل الخليفة ومعه ولده وولي عهده الراشد بالله، وقد حض الخليفة في هذه الخطبة على التصدي لقوات السلاجقة[2].

وصل السلطان محمود لبغداد وأخذ بمحاصرتها، ودارت بين الطرفين بعض المناوشات "وخرج المسترشد والشماسية على رأسه والوزير بين يديه، وأمر بضرب الطبرل ونفخ الأبواق، ونادى بأعلى صوته يا لهاشم"[3]، ومرة أخرى يهر أهل بغداد وقوفهم إلى جانب المسترشد بالله، فقد "وقف عسكر السلطان بالجانب الشرقي والعامة إلى الجانب الغربي يسبون الأتراك، ويقولون: يا باطنية يا ملاحدة عصيتم أمير المؤمنين، فعقودكم باطلة، وأنكحتكم باطلة ثم ترامو بالنشاب"[4].

تأكد للخليفة أن المواجهة بينه وبين السلطان لن تكون لصالحه بسبب انضمام بعض عسكره وأمراء الأطراف لجيش السلطان، إلى جانب خشيته على أهل بغداد من جيش السلاجقة إذا ما انهزمت قواته، فاضطر لقبول الصلح الذي عقد بين الطرفين سنة (٥٢١هـ/ ١٢٢٧م) [5]. ولا تسعفنا المصادر في بيان الشروط التي تم عليها الصلح، ولكن يحدثنا ابن الجوزي عن اجتماع بين ابن صدقة وزير

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٣٢-٢٣٣/ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣، ص١٧٣.
(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٣٣-٢٣٥/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٢١.
(3) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٦٢٣.
(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٣٦.
(5) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص ٢٤٢/ الالوسي، المسترشد بالله، ص٥٠٠.

الخليفة وأبي القاسم الانسابادي، وزير السلطان محمود، دون التطرق لما دار في هذا لاجتماع، وعلى ما يبدو أن الصلح تم بين الطرفين على الشروط التي جاءت برسالة السلطان سنجر السابقة، وهي حل جيش الخلافة، واقتصار دور الخليفة على الأمور الدينية[١]. وهذا ما أكدته الحوادث اللاحقة.

وبعيدا عن نتيجة هذه المواجهة، فقد أظهرت الخلافة قدرة على استقطاب القوى المناوئة للسلطان محمود، كما سجلت هذه المواجهة محاولة الخلافة ضرب السلاطين بعضهم ببعض، وأن فشلت مرحليا، أضف لذلك أن الخليفة المسترشد استطاع أن يجيش أهل بغداد ويزجهم في صراعه مع السلاجقة، وأبدى أهل بغداد موقفا ينم عن مدى انتمائهم لمدينتهم وخليفتهم، كما حرص الخليفة في هذه المواجهة على إظهار نفوذه الديني من خلال اعتلاءه المنبر والخطبة في الناس فأعاد إلى أذهانهم صورة الخلفاء العباسيين الأوائل، وهذا ما جعل ابن كثير يصف المسترشد بالله بقوله: "وهو آخر خليفة رؤي خطيبا[٢]".

لم تثن هذه المواجهة الخليفة المسترشد بالله، من الاستمرار في استغلال أية فرصة من أجل إعادة تشكيل جيش الخلافة، ففي سنة (٥٢٢هـ/١١٢٨م) ظهر دبيس مرة أخرى على مسرح الأحداث، وأخذ يعد العدة للتوجه لبغداد، فكاتب المسترشد بالله السلطان محمود يعلمه بخبر دبيس، ويطلب منه التصدي له "وإلا احتجنا أن نخرج إليه وينتقض العهد الذي بيننا وبينك"[٣]. على أثر ذلك توجه السلطان إلى بغداد فوصلها سنة (٥٢٣هـ/ ١١٢٩م)، وسعى في إصلاح الأمر بين الخليفة ودبيس، وحاول إقناع عماد الدين زنكي أن يسلم البلاد لدبيس، إلا أن الخليفة رفض ذلك، ودفع للسلطان مبلغ مائة ألف دينار، ودفع مثلها عماد الدين زنكي لإبعاد دبيس عن العراق، ويبدو أن السلطان محمود حاول أن يعيد دبيس إلى العراق ليصبح ورقة ضغط يستخدمها ضد الخليفة متى رأى ذلك ضروريا، وبنفس الوقت

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٣١، ٢٤٣، ٢٥٠.
(2) ابن كثير، البداية، م٦، ج١٢، ص٢٢٤.
(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٥٠.

ابعاد حليف المسترشد عماد الدين زنكي عن العراق إلى الشام[1]، حتى يتفرغ للصراع مع منافسة الملك مسعود، وبفشل خطة السلطان محمود اضطر دبيس مغادرة العراق إلى البادية[2].

وفي سنة (٥٢٥هـ/ ١١٣١م) استغل الخليفة المسترشد بالله خروج السلطان محمود من بغداد، لمواجهة الملك مسعود -الذي خرج عليه طالبا السلطنة- في تدوين العساكر، فقد خاطبه الخليفة بقوله: "إنك تعلم ما بيني وبينك من العهد واليمين وإني لا أخرج ولا أدون عسكرا وإذا خرجت عاد العدو -دبيس- وملك الحلة وربما تجدد منه ما تعلم "نجح الخليفة في مسعاه وأذن له السلطان محمد بتدوين العساكر إذا ما تعرضت بغداد لأي اعتداء من دبيس[3].

وبموت السلطان محمود سنة (٥٢٥هـ/ ١١٣٠م)، وتجدد الصراع بين كبار البيت السلجوقي على السلطنة[4]. انتهز الخليفة المسترشد بالله هذا الصراع لتقوية نفوذه، من خلال إدراكه بحكم تجربته السابقة، أن قوة السلاجقة تكمن بسلطان خراسان سنجر، فأخذ يعمل على ضربه، بلفت انتباه الملوك السلاجقة إليه، فقد رفض المسترشد بالله الخطبة لأي من الملوك المتصارعين على السلطنة، معللا ذلك أن الخطبة للسلطان سنجر، وفي الوقت ذاته، بعث إلى سنجر يحضه على رفض الخطبة لأي من الملوك[5]. على أثر ذلك توجه الملك مسعود إلى بغداد لطلب السلطنة، إلا أن سلجوق شاه وصلها قبله واستقبله الخليفة بعد أن استحلفه، وأنزله بدار السلطنة، وبعد ذلك وصل السلطان مسعود على مشارف المدينة، وأوفد رسولا إلى الخليفة، طالبا الخطبة له، أدى رفض الخليفة إلى وقوع بعض المناوشات بين الطرفين توقفت على أثر سماع قدوم السلطان سنجر لبغداد،

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٥٢/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٢٨/ اليافعي مرآة الجنان، ج٣، ص١٧٤/ ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٦٢٤.

(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٥٤.

(3) نفس المصدر، ج١٧، ص٢٦٣-٢٦٤.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٣٣٣/ البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص١٤٥.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٣٥.

ما أدى إلى عقد اتفاق بين الأطراف المتنازعة في بغداد، جاءت بنوده على النحو التالي: يخطب بالسلطنة لمسعود، على أن يكون ولي عهده الملك سلجوق شاه، واتفقوا جميعا على قتال السلطان سنجر[1].

وفي هذه المرحلة، أصبح الخليفة صاحب المبادرة، فقد وجه أوامره بخروج السلطان مسعود والملك سلجوق شاه لقتال السلطان سنجر، وعندما أراد قراجا الساقي قائد جيش سلجوق شاه التأخر أمره الخليفة بالانضمام للجيش بعد أن هدده بقوله: "إن الذي تخافه من سنجر في الآجل نحن نعجله لك الآن"[2]، لم تكن المواجهة بين الطرفين لصالح تحالف الخلافة، إذ انتصر السلطان سنجر ونصب طغرل سلطاناً على العراق، كما عفا عن السلطان مسعود[3].

ومن أجل معاقبة الخليفة أوعز السلطان سنجر لدبيس وعماد الدين زنكي بالتوجه لبغداد، إلا أن الخليفة استطاع الانتصار عليهما بفضل وقوف أهل بغداد إلى جانبه، إلى جانب مشاركته في القتال بنفسه، مما أدى إلى فرار زنكي ودبيس[4].

وأثناء صراع الملوك السلاجقة على السلطنة، حاول الخليفة استقطاب عماد الدين زنكي المتواجد في الموصل، إلا أن الرسول الذي بعث به الخليفة لم يحسن التصرف مما أثار غضب زنكي، وعلى أثر ذلك توجه الخليفة للموصل لإخضاعها إلا أنها استعصت عليه بعد حصار دام ثلاثة شهور، فعاد إلى بغداد، وذلك سنة (٥٢٧هـ/ ١١٣٢م). ومهما تكن أسباب فشل الخليفة لفتح الموصل، إلا أنها جاءت بنتيجة مهمة، وهي إدراك عماد الدين زنكي لتصاعد قوة الخلافة، وهذا ما جعله يعقد صلحا مع الخليفة، ثم القدوم سنة (٥٢٩هـ/ ١١٣٤م) للإعلان عن

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٧٠.
(2) نفس المصدر، ج١٧، ٢٧٠/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٣٦.
(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٧٠-٢٧١/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٣٧.
(4) ابن العمراني، الأنباء، ص٢١٧/ ابن الأثير، الباهر، ص٤٦م أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص٦/ الذهبي، العبر، ج٤، ص٧٦.

حسن نيته تجاه الخلافة، وبذلك تحقق هدف المسترشد بالله وهو دخول عماد الدين زنكي تحت طاعته[1]. كما أدرك بعض الأمراء السلاجقة ما آلت إليه الخلافة العباسية من قوة يحسب حسابها، فدخل عدد كبير منهم تحت طاعة الخليفة المسترشد بالله، الذي أخذ يستعرض قوته داخل بغداد، وخلع على جميع الأمراء، ثم عرض العسكر يوم عيد الفطر "وخرج الوزير شرف الدين وصاحب المخزن، وقاضي القضاة ونقيب النقباء وأرباب الدولة في زي لم ير مثله من الخيل المجفجفة والعساكر اللابس، والعدة الحسنة وكل أمير يقبل في أصحابه بخلعه الخليفة فكان العسكر خمسة عشر ألف فارس سوى من كان غائبا عن البلد، ولم ير عيد خرج فيه أرباب المناصب إلا هذا[2].

وفي محرم من سنة ٥٢٩هـ/ تشرين ثاني ١١٣٤م مات السلطان طغرل فأسرع مسعود من بغداد متوجها إلى همذان، حيث انضم إليه معظم عسكر السلطان طغرل، إلا أن قسما منهم التجأ إلى الخليفة في بغداد ومنهم يرنقش البازدار وقزل آخر، وسنقر الخمارتكين والي همذان، وأبلغوا الخليفة بنية مسعود التوجه لبغداد[3].

كانت المواجهة الأولى بين قوات مسعود والخلافة، عندما جاءت قوات مسعود بقيادة دبيس، وهاجمت قوات المقدمة لجيش الخلافة فهزمته وعادت فلوله إلى بغداد في حالة يرثى لها[4]. إزاء هذه التطورات بدأ الخليفة يفكر جديا بالخروج على رأس جيشه للتصدي لقوات مسعود، فقام باتخاذ مجموعة من التدابير، منها قطع خطبة مسعود وطرد جميع نوابه من بغداد، كما استصدر فتوى من الفقهاء بعزله

(1) ابن حمدون، التذكرة، ق١٧٣ب/ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٧٦/ ابن العمراني، الأنباء، ص٤١٨/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٣٤٠/ ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٢٠٤/ ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٦٢٧.

(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٨٣/ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص١٤٧/ الذهبي، العبر، ج٤، ص٨٣/ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣، ١٩٣.

(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٩١/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٤٥/ ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٦٢٨-٦٢٩.

(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٩٤.

وقتاله، ثم جمع العساكر استعدادا للخروج، ومع أن بعض رجالات الدولة العباسية نصحوه بعدم مغادرة بغداد، إلا أن القوات التي كانت تحت سيطرته شجعته وأثارت حماسه، يقول ابن الأثير: "وهؤلاء الأمراء يحسنون له الرحيل ويسهلون عليه الأمر ويضعون عنده أمر السلطان مسعود" وتدل الأموال والخلع التي استصحبها معه على مدى ثقته من تحقيق النصر[1].

التقى الطرفان في منطقة وادي مرك بالقرب من همذان، وخذل الخليفة مرة أخرى فقد انضم إلى جيش مسعود معظم الأمراء السلاجقة الذين كانوا وراء دفع الخليفة لمواجهة مسعود، كما كان لإمدادات السلطان سنجر والتي بعث بها لمسعود دور كبير في حسم المعركة لصالح الأخير، وكانت النتيجة الرئيسية لهذه المعركة وقوع الخليفة المسترشد بالله بالأسر[2].

إن نظرة مدققة إلى مجريات المعركة حسب ما أورده المؤرخون الذين أرخوا لهذه الحادثة تبين دون أدنى شك أن الأمور كانت مرتبة بحيث تضمن هزيمة الخليفة، يورد ابن الجوزي: "ولم يقتل بين الصفين سوى خمسة أنفس غلطا[3]. أما ابن الأثير فيقول متعجبا: "ولم يقتل في هذه المعركة أحد، وهذا أعجب ما يحكى"[4]. وتثير مسألة انضمام البازدار وابن برسق وقزل ويرنقش إلى جيش الخليفة شكوكا، فهل كان انضمامهم خوفا من مسعود؟ أما أن الأمر كان خدعة منه بالاتفاق معهم لجر الخليفة إلى فخ وادي مرك، من وقائع الأحداث نرجح أن الأمر كان خدعة، لأنهم بمجرد بدء المعركة انضموا إلى صفوف السلطان، وهذا ما جعل الأصفهاني يفسر هذه الخدعة بقوله: "مال الجنس إلى الجنس، فمال الترك إلى

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٩٤/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٤٧/ ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص٩٥/ البنداري، ص١٦٤-١٦٥.

(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٩٥-٢٩٦/ ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص٢٢١/ ابن العديم ، زبدة الحلب، ج٢، ص٢٥٩/ الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص٣٥٠/ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٤٩/ القرماني، أخبار الدول، ج٢، ص١٦٨-١٦٩/ ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٦٢٩-٦٣٠.

(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص ٢٩٥.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٤٨.

الترك"[1]، ورواية كل من ابن الجوزي، وابن الأثير تدل على عدم وجود معركة حقيقية، فلم يتجاوز عدد القتلى عند ابن الجوزي سوى خمسة فقط، وقد قتلوا بالخطأ حسب تعبيره، مما يؤكد ما ذهبنا إليه بأن المعركة كانت خدعة لجر الخليفة، وتسليمه لمسعود بالاتفاق مع السلطان سنجر، والتخلص منه فيما بعد، لأنه أصبح يشكل خطرا حقيقيا على سلطة السلاجقة، وهذا ما أكده الحوار الذي دار بين الخليفة ومسعود، فقد عاتب الأخير الخليفة على تجنيد الجنود، والخروج للقتال بقوله: "يا مولانا أليس الله –تعالى- كان قد أغناك عن هذا، وهب انك احتويت ملك الدنيا أكان يمكنك المقام بكل مكان تستولي عليه، أو تقيم الملك، وتولى عليها غلمانك الذين ربما نصحوك وربما خانوك، وقد تأدى إليك ما تم على الخلفاء قبلك من غلمانهم، ونحن عبيدك وطوع أمرك، وجدنا أعاد هذه الدولة بعدما ذهبت فما الذي حملك على ما فعلت" فرد الخليفة على مسعود "كان ذلك في الكتاب مسطور"[2]. فالصراع في جوهره بين الخلافة والسلطنة صراع نفوذ، فمسعود يريد من الخليفة أن يمكث في بغداد، ويباشر سلطاته الدينية فقط، دون التدخل في إدارة الدولة.

عقد الصلح بين الطرفين على عدة شروط أهمها: أن لا يقوم الخليفة بإعداد جيش خاص بالخلافة، وعدم الخروج من بغداد للقتال، ودفع مبلغ من المال.

وبوصول بكبه إلى بغداد الذي نصبه مسعود شحنة فيها، بدأ بتنفيذ أوامر مسعود، فقام بمجموعة من الإجراءات أهمها[3]:

أولاً: تعطيل دار الضرب التابعة للخلافة ، وعمل دارا للضرب بسوق العميد، ودار الشحنة.

ثانياً: القبض على عامل الجوالي.

---

(1) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص١٦٥.

(2) ابن العمراني، الأنباء، ص٢٢٠.

(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٩٦-٢٩٨/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٤٨.

ثالثاً: إجبار ضامن عقار الخلافة بجمع الاموال وتسليمها له.

رابعاً: مصادرة التركات الحشرية.

خامساً: التضييق على غلات قرى ولي العهد الراشد بالله.

سادساً: نقض سور بغداد، وجميع التحصينات.

أما أهل بغداد فكان رد فعلهم على هزيمة الخليفة وأسره قويا، بحيث منعوا خطباء المساجد، وكسروا المنابر، وخرجوا إلى الأسواق، وحثوا على رؤوسهم التراب ودار بين شحنة بغداد والعامة قتال ذهب ضحيته مائة وثلاث وخمسون من العوام ولم يهدأ أهل بغداد، حتى اخبرهم الشحنة بأن الخليفة قادم لبغداد بمعية السلطان مسعود معززا مكرما[1].

بعد الاتفاق الذي تم بين السلطان مسعود والخليفة المسترشد بالله، وصل رسول السلطان سنجر، يحث مسعود بالإسراع بعودة الخليفة إلى بغداد، فانطلق مسعود من همذان متوجها إلى مراغة[2]، فعسكر بها، وأخذ يستعطف الخليفة لمنح الأمان لدبيس بعد أن جاء به مكبلا أمامه فمنحه إياه، وأثناء ذلك وصل برنقش قران خوان أحد أمراء السلطان سنجر حاملا رسالة من سلطانه، وقيل كان بمعيته مجموعة من الباطنية، وعندما خرج مسعود لاستقبال رسول السلطان سنجر، دخلت المجموعة التي جاءت مع يرنقش لسرادق الخليفة، وانقضوا عليه، وقتلوه وذلك يوم الأحد السابع من ذي القعدة سنة (٥٢٩هـ/ آب ١١٣٤م) [3].

ويؤكد معظم المؤرخين الذين أرخوا لهذه الحادثة، أن مقتل الخليفة المسترشد بالله كان مدبرا من قبل السلطانين سنجر ومسعود، يقول ابن الجوزي: "فذكر بعض الناس انه –مسعود– ما علم أنهم معه –أي الباطنية– والظاهر

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٩٦/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٤٨.

(2) مرآغة، بلدة مشهورة من بلاد أذربيجان، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٩٣.

(3) ابن حمدون، التذكرة، ق١٧٤ب/ ابن العمراني، الأنباء، ص٢٢١/ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٩٦–٢٩٨/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٤٨/ ابن سباط، تاريخ، ص٥٩.

خلاف ذلك وأنهم دبروا في قتلـه"[١]، أمـا الأصـفهاني فيقـول: "فعـرف بقـرائن الأحوال أن سنجر سير الباطنية لقتله"[٢]، ويقول السبط في هذا الصدد: "وادعـى مسعود بعد ذلك انه لم يعلم بوجودهم –الباطنية– وكذب بل اتفق وهـو سـنجر على الفتك بالخليفة، ودليله أن مسعود أفرد لهم خيمة قريبة من الخليفة"[٣].

نستطيع القول مستأنسين بما أورده المؤرخون أن مقتـل الخليفـة المسـترشد بالله جاء نتيجة اتفاق مسبق بين السلطانين سنجر ومسعود، وكان إلـصاقهم تهمـة قتل الخليفة بالباطنية له ما يبرره فقد عـرف عـن الباطنيـة تـورطهم في مثـل هـذه الأمور، واشتهر عنهم اغتيالهم لرجال الحكم والسياسة[٤].

ويعزي ابن الطقطقي سبب مقتل الخليفة المسترشد بالله بقولـه: "لأنـه – مسعود- خافه حيث قويت نفسه على جمع الجموع وجر الجيوش، ولم يمكنـه قتلـه ظاهرا ففعل من الإحسان إليه ظاهرا ثم قتله باطنا، ثم إنه أخرج جماعـة مـن أهـل الجرائم فقتلهم وأوهم الناس انه قتل قتلته ثم أطلقهم سرا"[٥].

أثار مقتل الخليفة المسترشد بالله ثورة من الغضب العـارم في بغـداد، فقـد خرج عوام بغداد رجالا ونساء يحثون على رؤوسهم التراب، ويلعنـون الـسلطانين سنجر ومسعود، وكسروا المنابر ومنعوا الخطباء وتعطلت الصلوات[٦].

وتمـت مبايعـة أبـي جعفـر منـصور بـن المـسترشد بـالله بالخلافـة سـنة (٥٢٩هـ/١١٣٤م) ولقب بالراشد بالله وكان عمره يومئذ سبعة عـشر عامـا، وتـأثرت

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٩٨.
(2) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص١٦٥.
(3) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص١٥٧.
(4) العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤، ص٨٦/ الجالودي، تطور السلطنة، ص١٢٤.
(5) ابن الطقطقي، الفخري، ص ٣٠٥.
(6) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٩٩.

شخصية الراشد بشخصية والده المسترشد بالله، وتعد الفترة القصيرة التي تولى بها الخلافة امتدادا لخلافة والده[1].

بدأ الراشد بالله خلافته برفع المظالم عن الناس ورد الحقوق إليهم، فقد أوعز إلى عماله "أن لا يظلم احد أحدا، وأن يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومن كانت له مظلمة فليشكها إلى الديوان النبوي وفتح باب المخزن"[2]. ثم دفع إعلانا ليقرأ على الناس جاء فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم لما أحل الله محل أنبيائه وجعله نائبا عنه في أرضه آمرا في سمائه، وارتضاه خليفة على عباده، وعاملا بالحق في بلاده تقدم بتصفح ما كان يجري على أيدي النواب في الأيام المسترشدية – سقاها الله رحمة مستهلة السحاب- ما عساه كان يتم من أفعالهم الذميمة فوقف من ذلك على سهم المطالبة بغير حق فاقتضى رأيه الشريف التقدم برفع المطالبة عنهم، وأبرز كل ما وجد، وأوعز برده على أربابه"[3].

يتضح من هذه السياسة التي اتبعها الراشد بالله، هدف استمالة الرعية والتقرب منهم، لاستكمال ما بدأه والده المسترشد في العمل على تحرير الخلافة من النفوذ السلجوقي، والأخذ بثأر أبيه.

أدرك السلطان مسعود ما يرمي إليه الراشد بالله، فأخذ بسياسة الضغط، بتجريده من أية قوة، قد تجعله يفكر بالخروج عليه، فقد أوعز إلى يرنقش الزكوي بمطالبة الخليفة بمبلغ سبعمائة ألف دينار، إدعى أن المسترشد بالله قد تعهد بدفعها، كما طالب المخزن بدفع مبلغ ثلاثمائة ألف دينار، ثم جمع ما قيمته خمسمائة ألف دينار من أهل بغداد[4]، من الواضح أن السلطان مسعود بدأ بسياسة الضغط المالية لتجريد الخليفة من أية قدرات مالية تؤهله لإعادة تنظيم جيش الخلافة،

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣٠٠/ الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص٢٧٣-٢٧٤/ أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص١٠/ ابن الوردي، ج٢، ص٥٦/ القرماني، أخبار الدول، ص١٧٥.
(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣٠٠.
(3) نفس المصدر، ج١٧، ص٣٠١.
(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣٠٥/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٥٢.

وعلى أثر ذلك قام الراشد بالله بجمع أرباب الدولة واستشارهم بمطالب مسعود، فقرروا رفضها والاستعداد لمواجهة ما يترتب على ذلك، فبعث الخليفة ليرنقش الزكوي قائلاً: "أما الأموال المضمونة فكانت لإعادة الخليفة إلى داره سالما وذلك لم يكن، وأنا مطالب بالثأر، وأما مال البيعة فلعمري إلا أنه ينبغي أن تعاد إلى املاكي وإقطاعي حتى يتصور ذلك، وأما ما تطلبونه من العامة فلا سبيل إليه إلا السيف"[1].

وبدأ الخليفة بإعادة تنظيم جيش الخلافة، الذي استطاع به وبمساعدة أهل بغداد من صد الهجوم الذي قام به يرنقش الزكوي على دار الخلافة لإخراج الأموال، وتم طردهم من بغداد[2]. واستغل هذه الأحداث أمراء الأطراف المخالفون لمسعود وأخذوا بالتوافد على بغداد، فوصل الملك داود في عسكر أذربيجان، ثم تبعه الأتابك عماد الدين زنكي، ويرنقش بازدار صاحب قزوين، والبقش الكبير صاحب أصفهان، وصدقة بن دبيس[3]، وبعد ذلك أخذ الخليفة بإعداد الترتيبات اللازمة لمواجهة مسعود، فقام الملك داود بتعيين يرنقش بازدار شحنة لبغداد، وأخذ أهل بغداد بعمارة السور، وقطعت خطبة السلطان مسعود وخطب للملك داود"[4].

إزاء هذه التطورات التي حدثت ببغداد توجه مسعود بقواته قاصدا حاضرة الخلافة، وبدأ بحصارها، إلا أنها امتنعت عليه فعاد إلى النهروان منتظرا الإمدادات، وبدأ باستخدام الحيلة لضرب خصومه من خلال زعزعة الثقة بين الأمراء في بغداد وقد نجح في ذلك عندما بعث لعماد الدين زنكي يتعهد له بإقطاعه الشام

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣٠٥/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٥٢.
(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣٠٦/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٥٢.
(3) قام السلطان مسعود بقتل دبيس سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م، بعد مقتل الخليفة المسترشد بالله بحوالي ثلاثين يوما ويرى ابن الأثير في سبب قتله "لم يكن يعلم -دبيس- أن السلاطين كانوا يبقون عليه ليجعلوه عدة لمقارعة المسترشد فلما زال السبب زال المسبب" ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٤٩-٣٥٠.
(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣٠٦/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٥٢.

كاملا، ثم بعث برسالة أخرى للأمراء يمني بها من يقتل زنكي بمنحه جميع اقطاعاته، نجحت هذه الوسيلة في زرع عدم الثقة بين الأمراء داخل بغداد، فقرر زنكي العودة إلى الموصل، وبصحبته الخليفة الراشد بالله وذلك سنة (٥٣٠هـ/ ١١٣٥م) [1].

بعد مغادرة الخليفة والأمراء لبغداد دخلها مسعود "وأظهر العدل وشحن المحال، ومنع النزول والنهب، واستمال قلوب الناس" [2]. وبدأ يفكر جديا في خلع الراشد، وتتضارب آراء المؤرخين في المسوغات التي استند عليها مسعود ووزير الخليفة على بن طراد الزينبي في مسألة خلع الراشد بالله فقد أورد ابن الجوزي روايتين في مسألة الخلع الأولى: القدح بسلوك الراشد، والثانية "إنما أخرج السلطان خطة وكان قد كتب مع بكبه –الشحنة– الذي بعث به مسعود لبغداد على أثر مقتل المسترشد بالله لأخذ البيعة للراشد – إنني متى جندت أو خرجت فقد خلعت نفسي من الأمر، فشهد الشهود أن هذا خط الخليفة" [3]، ويرجح ابن الجوزي الرواية الأولى، فقد ذكر أن الوزير ابن طراد: "احضر الفقهاء والقضاة وخوفهم وهددهم أن لم يخلعوا، وكتب محضر فيه: أن أبا جعفر ابن المسترشد بالله بدا من أفعاله وقبح سيرته، وسفكه الدماء المعصومه، وفعل ما لا يجوز معه أن يكون إماما، وشهد بذلك ابن الكرخي، والهيتي، وابن البيضاوي شهد مكرها، وحكم ابن الكرخي قاض البلد بخلعه" [4]. ويبدو أن مسألة القدح بالراشد بالله واتهامه بالفسق من خلال ما أورده ابن الجوزي في الرواية الأولى وصدقه الحداد [5]،

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣٦١/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٥٤/ أبو شامة، الروضتين، ج١، ق١، ص٨٠/ الحسيني، زبدة التواريخ، ص١٠٨.

(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص ٣٦٢.

(3) نفس المصدر، ج١٧، ص٣٦٢.

(4) نفس المصدر، ج١٧، ص٣٦٢/ ابن الأثير، الباهر، ص٥٣/ ابن العبري، تاريخ الزمان، ص١٥١/ الاربلي، خلاصة، ص٢٧٤/ ابن تغري بردي، النجوم، ج٥، ص٢٥٣/ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٤٩.

(5) هو أبو الفرج عفيف الدين بن الحسن صنف كتابا ذيله على تاريخ الطبري لم يصلنا، توفي سنة (٥٧٠هـ/ ١١٧٤م)، مصطفى، التاريخ والمؤرخون، ج٢، ص١١٩-١٣٠.

وابن العمراني[1]، جاء لينسجم وآراء الفقهاء والعلماء في جواز الخلع، أما رواية تجنيد الجند والخروج للقتال فهي لا تتعارض ومهام الخليفة عند الفقهاء وبالتالي لا تستوجب خلعه[2]، وعليه فخلع الراشد جاء لذات السبب الذي قتل من أجله والده المسترشد بالله، وهو محاولته تحرير الخلافة من التسلط السلجوقي، وما اتهامه بالفسق الا وسيلة باطلة لجأ إليها كل من مسعود وابن طراد لإضفاء الشرعية على خلعه، وهذا ما يؤكده ابن العمراني، عندما اتهم الراشد بشرب الخمر فقال: "ولا والله ما كان واحد منهم قد رآه يشرب الماء فشهدوا خوفا من الصفع"[3].

وفي اليوم الذي تم فيه خلع الراشد بالله، تمت البيعة لمحمد بن المستظهر ولقب بالمقتفي لأمر الله وذلك سنة (٥٣٠هـ/ ١١٣٥م)، وقد أخذ البيعة له وزير الراشد علي بن طراد الزينبي ودخل السلطان مسعود على الخليفة الجديد وبايعه وجعل شرف الدولة بن طراد وزيرا له[4]، لم يعترف الراشد بالله، بالإجراءات التي اتخذها مسعود، كما رفض مسألة خلعه وتوليه المقتفي لأمر الله الخلافة، وإزاء هذه التطورات وجد زنكي مصلحته بعدم معارضة ما قام به مسعود وبادر بالاعتراف بالخليفة الجديد، وخطب له على منابر الموصل، وقطع خطبة الراشد بالله، الذي توجه بعد هذه التطورات إلى مراغة سنة (٥٣١هـ/ ١١٣٦م) فالتف حوله مجموعة من الملوك والأمراء السلاجقة الناقمين على السلطان مسعود وعلى رأسهم الملك داود، والملك محمد، والتقت قواتهم مع قوات مسعود، إلا أن قوات الراشد بالله

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣٦٢/ ابن العمراني، الأنباء، ص٢٢٢/ ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢٥٨.
(2) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٢٩/ الجويني، غياث الأمم، ص١٥/ الغزالي، الاقتصاد، ص١٠٥-١٠٦.
(3) ابن العمراني، الأنباء، ص٢٢٢.
(4) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٦١/ ابن أيبك، كنز الدرر، الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية، ج٦، ص٥٢٢/ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٤٩.

هزمت فاضطر بعدها الانسحاب إلى أصفهان، وما لبث أن مات فيها سنة (٥٣٢هـ/ ١١٣٧م) [١].

وتختلف الروايات في سبب موت الراشد بالله، ويورد ابن الجوزي ثلاث احتمالات في سبب موته[٢]:

الأول: انه مات مسموماً.

الثاني: تآمر مجموعة من الفراشين الذين كانوا بخدمته على قتله.

الثالث: اتهام الباطنية بقتله.

ويشير كل من الفارقي، وابن القلانسي، وسبط بن الجوزي، بأصابع الاتهام إلى السلطانين سنجر ومسعود[٣]، أن هذه الاحتمالات تؤكد أن الراشد بالله مات مقتولا، وأكثر الأطراف مصلحة بموت الراشد هو السلطان مسعود، ومن هنا جاء اتهام المؤرخين له.

وفي ختام هذا الفصل نستطيع القول أن الخليفة المسترشد بالله كان صاحب المبادرة في العمل على إحياء الخلافة العباسية، ومحاولة تخليصها من السيطرة السلجوقية، وان باءت جهوده بالفشل، ودفع في نهاية المطاف حياته ثمنا لذلك. ولكن هذه المحاولة أفرزت مجموعة من العوامل التي ستستغل فيما بعد لتحقيق هدف الخلافة في التخلص من النفوذ السلجوقي، وتحرير الخلافة بشكل كامل، ونستطيع أن نجمل هذه العوامل على النحو التالي:

أولاً: استطاع الخليفة المسترشد بالله في محاولته هذه العمل على تشكيل جيش خاص بالخلافة، وهو أمر غاية في الأهمية، فمن المعروف أن الخلافة العباسية لم يعد لها جيش خاص بها منذ تغلب البويهيون على الخلفاء

---

(1) ابن حمدون، التذكرة، ق١٧٧ب/ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣٢١، ٣٢٨/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٦١/ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٥٩.

(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص ٣٣٢.

(3) الفارقي، ص٢٦١/ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٦٧/ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص١٦٧.

وبذلك أصبحت فكرة وجود مثل هذا الجيش الشغل الشاغل للخلفاء الذين جاءوا بعد المسترشد بالله وحققوا نجاحا كبيرا في ذلك.

ثانياً: اثبت المسترشد بالله قدرة فائقة في استثمار أهل بغداد للوقوف إلى جانب الخلافة في صراعها ضد السلاجقة، سواء من خلال اشتراكهم في المعارك التي خاضها، أو من خلال ما كانوا يقدمونه من أموال للخليفة، أو المشاركة في تحصين بغداد، وقد دل وقوف أهل بغداد، العامة والخاصة منهم مع الخليفة المسترشد بالله، على مقدار ما كانوا يعانونه من ظلم وجور السلاجقة.

ثالثاً: كان للسياسة التي اتبعها المسترشد بالله في ضرب السلاجقة بعضهم بالبعض الآخر، واستغلال حالة الصراع فيما بينهم على السلطنة دور كبير في إضعافهم، وقد سار الخلفاء بعد المسترشد في اتباع هذه السياسة التي أتت أكلها بشكل كبير.

رابعاً: كان للأخطاء التي ارتكبها المسترشد بالله ومن أهمها: تسرعه في الخروج من بغداد أكثر من مرة وكان في معظمها يعود منهزماً، إلى جانب ثقته غير المبررة بالملوك والأمراء السلاجقة الذين تخلو عنه في أحلك الظروف وخاصة في الموقعة الأخيرة والتي قتل على أثرها، هذه الأخطاء وغيرها من العوامل ستكون دروس مستقاه للخليفة المقتفي لأمر الله، الذي استطاع إكمال ما بدأه الخليفة المسترشد بالله ويحقق فيه نجاحا ملحوظاً، كما سنرى في الفصل الثاني.

الفصل الثاني

إحياء الخلافة العباسية واستقلالها عن السلطنة السلجوقية من سنة

(٥٣٠هـ ـ ٥٥٥هـ/ ١١٣٥ـ١١٦٠م).

اختيار المقتفي لأمر الله خليفة سنة (٥٣٠هـ/ ١١٣٥م)

يؤكد مؤيد الدين بن الأنباري، أن مسألة خلع الخليفة الراشد بالله كانت أمرا محسوما لدى السلطان مسعود، لإدراكه أن الراشد سيقتفي خطى والده، في التعامل مع السلاجقة، من اجل تحرير الخلافة من التسلط السلجوقي، كما أن مقتل والده المسترشد بالله سيضيف سببا أخرا لقتالهم، وهو الثأر لأبيه المقتول بتدبيرهم[1].

فقد عبر السلطان عن رفضه لتولية الراشد بالله الخلافة، من خلال الحوار الذي دار بينه وبين وزير المسترشد بالله علي بن طراد الزينبي[2]، عندما قال له الأخير: بأن البيعة تمت لابنه وولي عهده الراشد بالله، فرد السلطان مسعود قائلا: "ما إلى هذا سبيل ولا أقره عليها أبدا فأنه تحدث نفسه بالخروج مثل أبيه"[3]. مما يدلل أن خلع الراشد كان مبيتا، قبل وصول السلطان مسعود لبغداد، وخروج الراشد بالله منها. وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه في الفصل الأول من أن مسألة خلع الراشد بالله كانت لاعتبارات أمنية وتحفظية لدى السلاجقة، وبعيدة كل البعد عن مسألة القدح بسلوك الراشد بالله، وهذا ما أكده السلطان مسعود نفسه، عندما حدد مواصفات الخليفة الذي يريد: "لا أريد أن يجلس إلا من لا يداخل نفسه في غير أمور الدين، ولا يجند، ولا يتخذ، ولا يجمع، ولا يخرج علي ولا على أهل بيتي ... ويلزم نفسه ما يجب من طاعتنا ولا يخرج من داره"[4]. وبذلك يحدد السلطان مسعود دور الخليفة، بالأمور الدينية، تاركا للسلاجقة أمور الحكم والسياسة.

وبدأ السلطان مسعود بالبحث عن شخصية في البيت العباسي لتوليته الخلافة تنسجم والشروط التي حددها، وفي تلك الأثناء أرسل السلطان سنجر إلى

(1) الفارقي، ص٢٥١/ زاهرومطر، عصر الخليفة المقتفي لأمر الله، ص٤٦.
(2) هو أبو القاسم علي بن طراد بن محمد بن علي الزينبي. تاب في الوزارة في عهد المسترشد بالله ثم تولى الوزارة، ت٥٣٨هـ/ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٣٤.
(3) الفارقي، ص٢٥١/ الجالودي، تطور السلطنة، ص١٣٠.
(4) نفس المصدر، ص٢٥١.

السلطان مسعود ينصحه، بأن: "لا تولي إلا من يقع عليه رأي الوزير، وصاحب المخزن، وكاتب الإنشاء، ويضمنون ما يجري منه، ويكون الجواب عليهم"(١). ويتضح من هذه النصيحة حنكة، وبعد نظر السلطان سنجر أقوى رجالات السلاجقة في تلك الفترة، فقد أراد بذلك ضمان هؤلاء الثلاثة -وهم الشخصيات الرئيسة في إدارة الخليفة باختيار مرشحهم، ليشركهم في مسؤولية خروج الخليفة على سلطان السلاجقة، وبذلك يصبحون أعوانا للسلطان مسعود في مراقبة الخليفة الجديد، والعمل على إقناعه بعدم القيام بأي أمر من شأنه زعزعة الثقة بينه وبين السلاجقة. وقد لفت السلطان سنجر نظر السلطان مسعود لترشيح هارون بن المقتدي" لأنه شيخ كبير لا يرى الفتنة"(٢). إلا أن هذا الترشيح وجد معارضة من الوزير الزينبي الذي قال: "إذا كان هذا الأمر يلزمنا فنحن نولي من نراه" وعندما سأله السلطان عن الشخص الذي اختاره، قال الوزير: "هو الزاهد العابد الذي ليس في الدار مثله... الأمير أبو عبدالله بن المستظهر" فرد علية السلطان مسعود" وتضمنون ما يجري منه فقال الوزير: نعم"(٣). ويرى الفارقي أن السبب في اختيار الوزير الزينبي لأبي عبدالله بن المستظهر، لعلاقة المصاهرة التي كانت تجمعه بالأمير العباسي فقد كان أبو عبدالله متزوجا من ابنة الوزير الزينبي(٤).

كُتم خبر اختيار أبي عبدالله بن المستظهر، وانطلق السلطان مسعود من مراغة يرافقه الوزير ابن طراد الزينبي، وكمال الدين ابن طلحة صاحب المخزن، ومؤيد الدين ابن الأنباري كاتب الإنشاء إلى بغداد، وقبل مبايعة الخليفة الجديد أخذ السلطان المواثيق من الوزير، وصاحب المخزن، وكاتب الإنشاء، بضمان مرشحهم، يقول ابن الأنباري: "وحضرنا عند الأمير أبي عبدالله، وتحدث الوزير،

(1) الفارقي، ص٢٥١/ ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص٦٣/ الجالودي، تطور السلطنة، ص١٢٦.
(2) الفارقي، ص٢٥١/ زهرا ومطر، عصر المقتفي، ص٤٨-٤٩.
(3) الفارقي، ص٢٥١/ وانظر، أبن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص٦٣.
(4) الفارقي، ص٢٥١/ وانظر، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص١٥٢/ ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص٦٣/ الدياربكري، تاريخ الخميس، ٣٦٢.

وتحدثنا معه وشرّط عليه القيام بأمر الخلافة، وطاعة السلطان، وأعلمناه أننا قد ضمنا ذلك من السلطان جميع ما اقترحه عليك، فرضي بذلك"[١]. وعلى ذلك تمت مبايعة أبي عبدالله بن المستظهر يوم الثلاثاء الثامن من ذي القعدة سنة (٥٣٠هـ/ آب ١١٣٥م) [٢]. ويصف ابن الأنباري مراسم البيعة بقوله: "فتقدم الوزير فقبل يده مباركا، ثم أخذها صاحب المخزن وقبلها وبايعوه، ثم أخذت يده وقلت بعد أن قبلتها بايعنا سيدنا ومولانا الإمام المقتفي لأمر الله. ثم قمت من عنده ودخل الأمراء وبايعوه، ودخل العلماء والقضاة والفقهاء وكبار الناس أجمع فبايعوه، ثم حضر السلطان عنده، وكلمه المقتفي بكلام وعظة فيه وعرّفه ما يلزمه من طاعة الخلافة، وأمره بالرفق بالرعية والإحسان إليهم وخوّفه عاقبة الظلم، فبايعه السلطان وقبّل يده ورجع إلى دار السلطنة"[٣]. وبعد ذلك تم إرسال خبر البيعة لسائر البلدان الخاضعة للسلاجقة[٤].

ولا تسعفنا المصادر التي بين أيدينا لبيان تفاصيل الشروط التي اتفق عليها السلطان مسعود مع الوزير الزنبي، وصاحب المخزن، وكاتب الإنشاء، والتي تعهدوا بها للسلطان، ووافق عليها الخليفة، ونستطيع أن نستنتج بأنها جاءت منسجمة مع ما قاله السلطان مسعود لهؤلاء الثلاثة: "لا أريد أن يجلس إلا من لا يداخل نفسه في غير أمور الدين، ولا يجند، ولا يتخذ، ولا يجمع، ولا يخرج عليّ، ولا على أهل بيتي"[٥]. ويقول ابن الجوزي في هذا الصدد: "وقيل بل بايعوه على أن لا يكون عنده خيل ولا آلة سفر، وأخذوا جواري وخادمات وغلمان"[٦]، وهذا ما أكدته الحوادث اللاحقة، ففي سنة (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) تعرضت بغداد لهجوم من

---

(1) الفارقي، ص٢٥١/ ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص٦٧.
(2) الفارقي، ص٢٦٠/ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣١٤/ الدميري، حياة الحيوان، ج١، ص١٤١/ مرتضي، كلشن خلفا، ص١١٦/ القرماني، أخبار الدول، ص١٧٥.
(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص٦٧–٦٨.
(4) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٥٥.
(5) الفارقي، ص٢٥١.
(6) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣١٤/ وانظر، الذهبي، سير، ج٢٠، ص٤٠٢.

الملك محمد شاه، فبعث الخليفة برسالة للسلطان مسعود يقول فيها: "وقد أحاط العسكر بالبلد، وما يمكنني أن آخذ عسكراً لأجل العهد الذي بيننا"[1]. من هذه النصوص يتبين أن السلطان مسعود، بايع المقتفي لأمر الله وبضمان رجال الإدارة الخلافية، بتحديد مهامه بالأمور الدينية، وأن لا يسعى في أعداد جيش خاص بالخلافة، وقد وافق المقتفي على هذه الشروط والتزم بها.

وحتى يضمن السلطان مسعود التزام الخليفة بتعهداته، عمد إلى عدد من الإجراءات من اجل تجريد الخليفة من أية قوة قد تستغل لاحقاً وتكون عوناً للخليفة لاسترداد سلطاته الزمنية، فبدأ بسياسة الضغط المالية بحيث "استولى على جميع ما كان في دار الخلافة من خيل وبغل وأثاث وذهب وفضة... وزلالي وستور وسرادق وحصر ومساند، وطالب الناس بالخراج والبراءات، ولم يترك في إسطبل الخاص سوى أربع رؤوس من الخيل وثلاثة من البغل برسم الماء"[2]. واضطر الخليفة المقتفي لأمر الله إلى بيع عقاره ليدفع للسلطان ما استقر عليه وهو مائة وعشرون ألف دينار[3]. ولم يكتف السلطان بدار الخلافة بل تعدى ذلك لرجال الإدارة العباسية، وأهل بغداد، فقد طالب صاحب المخزن بمبلغ مائة ألف دينار: "يحصلها من ماله ومن الناس ومن دار الخلافة" وعندما علم الخليفة المقتفي بتعدي السلطان على الناس، بعث إليه قائلاً: "ما رأينا أعجب من أمرك أنت تعلم أن المسترشد سار إليك بأمواله فجرى ما جرى، وعاد أصحابه عراة، وولي الراشد ففعل ما فعل ثم رحل، وأخذ ما بقي من الأموال، ولم يبق في الدار سوى الأثاث فأخذته جميعه وتصرفت في دار الضرب، ودار الذهب، وأخذت التركات، والجوالي، فمن أي وجه نقيم لك هذا المال؟ وما بقي إلا أن نخرج من الدار ونسلمها، فإني عاهدت الله – تعالى– أن لا آخذ من المسلمين حبة واحدة ظلماً"،

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٦٤-٦٥/ وانظر، ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢١-٢٢/ ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص٢٣٠/الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٢٦-٢٢٧/ البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢٠٥.

(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص ٣١٤/ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٥٠.

(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣١٤-٣١٥.

فخفض السلطان مسعود المبلغ إلى عشرة آلاف دينار[1]. ومن الشروط التي فرضها السلطان على الخليفة أن لا يشتري مملوكا تركيا، فاقتصرت مماليك دار الخلافة على الأرمن والروم والأكراد[2]. وبذلك جرد السلطان مسعود الخليفة من جميع مظاهر قوته، من الأموال والخيل، وتعدى ذلك إلى العامة ورجال الإدارة، لضمان عدم خروج الخليفة عليه، محاولا استعادة سلطاته الزمنية.

شخصية الخليفة المقتفي لأمر الله

تولى الخليفة المقتفي لأمر الله الخلافة وله من العمر إحدى وأربعون سنة ونقش على خاتمه "كن من الله على حذر تسلم"[3]، ويتضح من هذا النقش شخصية المقتفي المتحفظة والمتزنة، فقد وصل من العمر سناً تجعله قادرا على تمييز الأمور بشكل دقيق، فلا هو الشاب الغر الذي يدفعه حماسه لاتخاذ قرارات غير محسوبة، كسلفيه المسترشد بالله والراشد بالله، ولا هو العجوز الخائر القوي الذي يرى الحياة مدبرة لا مقبلة، وهذا جعل البعض يشير على السلطان مسعود بعدم توليته وقالوا: "إنه رجل كبير قد جرب الأمور وعرفها، وأن من الرأي للسلطان أن يبايع فتا صغيرا، ليست له تجربة ولا سن عليه"[4].

لا تنجدنا المصادر عن نشأة الخليفة المقتفي لأمر الله في سنوات حياته الأولى، قبل أن يصل للخلافة، وتعود ندرة المعلومات عن حياة الخليفة المقتفي لأمر الله، لعدم مشاركته في الحياة السياسية، لظروف الخلافة، وتغلب السلاطين السلاجقة على الخلفاء، وهذا لا يعني أن المقتفي لأمر الله لم يكن مدركا لما كان يدور في حاضرة الخلافة من صراع بين الخلفاء والسلاطين السلاجقة فقد عاصر

---

(1) نفس المصدر، ج١٧، ص٣٢٠.
(2) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢١٥/ الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٢٩.
(3) الاربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص٢٧٥/ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٢٧/ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٤٩.
(4) ابن الأثير، الباهر، ص٥٣.

خلافة والده المستظهر، وأخيه المسترشد بالله ومن بعده الراشد وقد ترك ما آل إليه مصير المسترشد والراشد في شخصية المقتفي لأمر الله قدرا كبيرا من الحيطة والحذر في تعامله مع السلاجقة في السنوات الأولى من خلافته ومن الدلائل على حنكة المقتفي ودبلوماسيته في التعامل مع السلاجقة، الحوار الذي دار بينه وبين الدركزيني وزير السلطان مسعود، فقد قرر منح الخليفة بعض الإقطاعات وعندما استشاره الدركزيني بذلك رد عليه الخليفة بقوله: "إن في الدار ثمانين بغلا تنقل الماء من دجلة، فلينظر السلطان ما يحتاج إليه من يشرب هذا الماء ويقوم به"[1]، فعلق السلطان على رد الخليفة بقوله: "لقد جعلنا في الخلافة رجلا عظيما فالله - تعالى- يكفينا شره"[2]. وأضاف وزير السلطان: "قد كان الرأي في العدول عن هذا الرجل، ولكن الأمور مقدرة، وقد رأيت من الرجل ما دل على وفور العقل وحسن التوصل إلى أغراضه وعلى غاية المعرفة"[3].

وتمتع المقتفي لأمر الله بثقافة واسعة، فقد وصفه العماد الأصفهاني بقوله: "ذو علم وافر"[4]. ووصفه غيره بالعالم الأديب، المحب للحديث الحافظ له[5]. وقد تأثر بذلك من مؤدبه أبي البركات احمد بن عبدالوهاب السيبي[6]، الذي كان من أهل الحديث، عارفا بالأدب و الشعر، متعهدا لأهل العلم[7]. وكان المقتفي لأمر الله قارئا للقرآن، فقد قيل أنه كتب في خلافته ثلاث ربعات، واهتم المقتفي برواية

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٥٥.
(2) نفس المصدر، ج٨، ص٣٥٥/ وانظر، ابن الطقطقي، الفخري، ص٣١٠.
(3) ابن الأثير، الباهر، ٥٣.
(4) العماد الأصفهاني، خريدة القصر، ج١، ص٣٥.
(5) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢، ص٩٥/ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ٣٤٩.
(6) هو، احمد بن عبدالوهاب السيبي كان مؤدب لأولاد الخليفة المستظهر بالله، ولاه المسترشد بالله النظر بالمخزن، مات سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م. وانظر ترجمته، ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٨٨/ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج١، ص٣٦٠-٣٦١/ ابن كثير، البداية، م٦، ج١٢، ص٢٠٠.
(7) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٨٨/ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج١، ص٣٦٠-٣٦١/ ابن كثير، البداية، م١، ج١٢، ص٢٠٠.

الحديث، فقد روى عنه إمامه أبو منصور الجواليقي[1]، ووزيره عون الدين ابن هبيرة[2]. يصفه أبو طالب عبدالرحمن بن محمد بن عبدالسميع الهاشمي في كتابه المناقب العباسية: "وكان في أول أمره متشاغلا بالدين، ونسخ العلوم وقراءة القرآن"[3]، إلى جانب ذلك نظم الشعر وأجاد فيه، رغم عدم وصول معظم شعره، فقد ذكر ابن واصل، وله شعر حسن[4].

أوضاع الخلافة العباسية حتى نهاية عهد السلطان مسعود

بعد أن تقررت القواعد بين الخليفة المقتفي لأمر الله والسلطان مسعود، على أن يقتصر دور الخليفة على الأمور الدينية، أخذ المقتفي لأمر الله بترتيب جهازه الإداري، إذ اقر كلا من شرف الدين علي بن طراد الزينبي على الوزارة، واستدعى قاضي القضاة أبا القاسم علي بن الحسين الزينبي من الموصل، وكان القاضي الزينبي قد خرج مع الراشد بالله إلى الموصل في نوبته الأخيرة، كما أقر كلا من صاحب المخزن كمال الدين بن طلحة، وكاتب الإنشاء سديد الدولة ابن الأنباري في منصبيهما[5].

كان للحروب التي خاضها الخليفة المسترشد بالله مع السلاجقة من جهة والحروب التي خاضها السلاجقة فيما بينهم في التنافس على السلطنة من جهة أخرى دور كبير في تردي الأحوال الاقتصادية في بغداد والعراق عامة، فازدادت أسعار السلع بشكل مطرد، إلى جانب ندرتها في بعض الأحيان، وقد ترتب على ذلك انتشار الفوضى وانعدام الأمن، ومما زاد في تردي الأوضاع الاقتصادية في

---

(1) هو موهوب بن احمد البغدادي النحوي، كان مؤدبا ثم إماما للخليفة المقتفي لأمر الله، انظر ترجمته، الذهبي، العبر، ج٢، ص٤٥٨-٤٥٩/ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤، ص١٢٧.

(2) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤، ص١٧٣.

(3) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤، ص١٧٣.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص١٣٢.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٥٥.

العراق كثرة الضرائب المفروضة على الناس من قبل السلطان مسعود جعلت الخليفة المقتفي لأمر الله يؤجل صراعه مع السلاجقة لاسترداد سلطاته الزمنية.

إن قراءة مدققة لمصادر هذه المرحلة –بداية عهد المقتفي لأمر الله– تبين حالة الفوضى التي عاشتها بغداد، نتيجة ازدياد نشاط حركة العيارين، بحيث لخص ابن الطقطقي عهد الخليفة المقتفي بقوله: "وجرى في أيامه فتن وحروب بينه وبين سلاطين العجم، كانت الغلبة فيها له، وثار في أيامه العيارون والمفسدون فنهض بقمعهم أتم النهوض"[1]، ولهذا الأمر دلالته، فأمر العيارين كان سمة بارزة في بداية عهد المقتفي لأمر الله، وما بروز هذه الحركة إلا دليل على التراجع الاقتصادي في البلاد وانعدام الأمن فيها.

ترد أول إشارة لبروز حركة العيارين في عهد الخليفة المقتفي لأمر الله سنة (٥٣٢هـ/ ١١٣٨م)، إذ استغل العيارون خروج شحنة بغداد البقش الكبير لقتال سلجوق شاه وثاروا "ببغداد ونهبوا الأموال وقتلوا الرجال وزاد أمرهم حتى كانوا يقصدون أرباب الأموال ظاهرا ويأخذون ما يريدون ويحملون الأمتعة على رؤوس الحمالين"[2]، وعلى الرغم من قيام الشحنة بعد عودته لبغداد بالقبض على عدد منهم وصلبهم، إلا أنه استغل حركتهم لتحقيق منفعته الخاصة في جمع الأموال من خلال التعرض للعيارين ولغيرهم من الناس، مما أدى إلى ارتفاع الأسعار، وجلاء الناس عن بغداد إلى الموصل وغيرها من البلاد، وقد أثارت هذه الإجراءات غضب السلطان مسعود، فقبض على الشحنة وسجنه في تكريت ثم أمر بقتله، وجعل بهروز الخادم شحنة مكانه[3].

وفي العام ذاته (٥٣٢هـ/ ١١٣٨م) عظم أمر العياد ابن بكران "ببغداد والعراق وكثر اتباعه وصار يركب ظاهرا في جمع من المفسدين وخافه الشريف أبو الكرم الوالي ببغداد"، وأخذ يتقرب إليه ليتقي شره، وقد بلغت قوة ابن بكران

(1) ابن الطقطقي، الفخري، ص٣١٠/ الدوري، بغداد، ص١١٤.
(2) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٣٦١-٣٦٢.
(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص ٣٢٧/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٣٦١-٣٦٢.

ورفيقه ابن البزاز بحيث "أرادا أن يضربا باسمهما سكة في الأنبار"، ولم يستطع بهروز الخادم شحنة بغداد، من مواجهة ابن بكران، فأسند هذا الأمر إلى الوالي أبي الكرم الذي استطاع التخلص من ابن بكران بالحيلة، فقد كان ابن بكران على علاقة مع ابن أخي الوالي، فدبروا حيلة استطاعوا التخلص بها من ابن بكران -ثم قام بعد ذلك بالقبض على ابن البزاز ومجموعة من العيارين وصلبهم، فسكن الناس واطمأنوا، وهدأت الفتنة[1].

وفي سنة (٥٣٦هـ/ ١١٤٢م) قدم السلطان مسعود إلى بغداد وقد هاله ما رآه من تبسط العيارين وفسادهم، فأعاد بهروز الخادم إلى شحنكية بغداد- كان قد عزله وولى قزل المحمودي- ويعلق ابن الأثير على إجراء الخليفة هذا بقوله: "تاب كثير منهم ولم ينتفع الناس بذلك لأن ولد الوزير -وزير السلطان- وأخا امرأة السلطان كانا يقاسمان العيارين، فلم يقدر بهروز على منعم"[2]. وعندما علم السلطان بحقيقة الحال أمر النائب في الشحنكية أيلدكز بقتلهما، فنفذ أيلدكز أمر السلطان وقام بالقبض على أخي زوجة السلطان، وقتله وفر ابن الوزير من بغداد، وعلى أثر ذلك "هرب أكثر العيارين، وقبض على من أقام وكفى الناس شرهم"[3]. وبعد هذه الحادثة التي وقعت سنة (٥٣٨هـ/ ١١٤٣م) انقطعت أخبار العيارين في بغداد. ونلاحظ أن ازدياد نشاط حركة العيارين في هذه الفترة من عهد المقتفي لأمر الله يعود لعدة أسباب منها، تراخي رجال الأداة السلجوقية في ضبط الأمن في بغداد، إلى جانب تعاون بعض رجال السلاجقة المتنفذين مع العيارين من اجل جمع الأموال، مما أدى إلى انعدام الأمن، وإرهاق الناس اقتصاديا مما اضطرهم للخروج من بغداد للمدن المجاورة كما أسلفنا، وهذا يثير دهشتنا إذا ما علمنا أن السلطان مسعود أخذ منذ سنة (٥٣٣هـ/ ١١٣٨م) يقيم ببغداد في فصل

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٣٦٢/ عبدالمولى، العيارون والشطار البغادحة في التاريخ العباسي، ص١٣٦.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٥.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٧/ وانظر، ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٣٠-٣١/ عبدالمولى، العيارون والشطار، ص١٣٦-١٣٧.

الشتاء من كل عام[1]. إذا كان التراجع الاقتصادي الذي عاشه العراق في ظل الحكم السلجوقي، سببا في ظهور حركة العيارين كما أن صراع السلاجقة فيما بينهم على السلطنة أدى إلى خراب مدن العراق، وهذا ما ذكره القزويني المتوفى سنة (٦٨٢هـ/١٢٨٣م) عن مدينة النهروان، أنها "خربت بسبب الاختلاف بين الملوك السلجوقية وقتال بعضهم كونها كانت ممرا للعساكر فجلى عنها واستمر خرابها"[2]. لقد كان لهذه العوامل دورا كبيرا في تريث الخليفة المقتفي لأمر الله في مجابهة السلاجقة، منتظرا تبدل الظروف لصالحه.

أما فيما يتعلق بطبيعة العلاقة بين الخلافة والسلطنة في بداية عهد الخليفة المقتفي لأمر الله فقد حرص السلاجقة على توطيد هذه العلاقة مع الخليفة، ومن اجل تمتينها عرض السلطان مسعود على الخليفة الاقتران بشقيقته فاطمة بنت محمد بن ملكشاه، ووافق الخليفة على ذلك، وتم الزواج سنة (٥٣١هـ/ ١١٣٦م)[3]. وفي نفس العام بعث السلطان سنجر رسوله يمن الخادم لإعلان الولاء والطاعة والبيعة للخليفة[4]. كما حاول الوزير علي بن طراد الزينبي تمتين العلاقة بين الخليفة والسلطان عندما عمل على زواج السلطان مسعود من ابنة الخليفة المقتفي لأمر الله سنة (٥٣٤هـ/ ١١٣٩م)، ويتضح دور الزينبي في إتمام هذا الزواج من تعليق ابن الجوزي "فتمكن الوزير أبو القاسم ابن طراد من الدولتين[5]. وعلى اثر هذه المصاهرة أعاد السلطان مسعود إقطاعات الخليفة ومعاملاته وأموال التركات، مقابل عشرة آلاف دينار[6]. وفي هذه الفترة اتخذ الخليفة مجموعة من الإجراءات والتي من شأنها تقوية مركز الخلافة، ليتسنى له استثمارها في اللحظة المناسبة

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٣٦٥، ج٩، ص٦.
(2) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٤٧٢.
(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص ٣٢١/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٥٦/ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٦٦١/ ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص١٣١.
(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص ٣٢١.
(5) نفس المصدر، ج١٨، ص-٤/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٣٦٨، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص١٧٤.
(6) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص ٣٢٣.

لاسترداد نفوذه الزمني. وقد بدأ هذه الإجراءات برجل إدارته، عندما تخلص من وزيره ابن طراد الزينبي سنة (٥٣٤هـ/ ١١٣٦م) وقد ساهم هذا الوزير بالتضييق على الخليفة، وأخذ يعترض على معظم الأعمال التي يقوم بها، وعلى ما يبدو أن الخليفة قام ببعض الأعمال دون الرجوع إليه "ونفذ الخليفة خدما وعمالا على البلاد من غير مشاورة الوزير" وعندما تمادى الزينبي على الخليفة قام الأخير بالقبض على حاجبه فالتجأ الوزير إلى السلطان مسعود، عندها قام الخليفة بعزله[1]. وبالرغم من أن الزينبي كان له الفضل في وصول المقتفي للخلافة، إلا أن الخليفة لم يأمن جانبه، فقد عبر عن عدم ثقته به، وبكل من افترى على الراشد وقدح به بقوله: "إذا فعلوه مع غيري فهم يفعلونه معي"[2]. وهذا يفسر حملة التطهير التي قام بها المقتفي لأمر الله داخل إدارته، عندما عزل سنة (٥٣٥هـ/ ١١٤٠م) عددا كبيرا من المعدلين بلغوا الثلاثين[3]. وبعد عزل الوزير ابن طراد الزينبي، أناب الخليفة في وزارته قاضي القضاة علي بن الحسين الزينبي، ثم كاتب الإنشاء ابن الأنباري حتى وفاته سنة (٥٣٥هـ/ ١١٤٠م)، فاستقر في وزارة المقتفي أبو نصر المظفر بن محمد بن جهير أستاذ الدار[4].

ومن الإجراءات التي قام بها المقتفي لأمر الله من أجل تقوية مركز الخلافة استجابته لطلب خوارزمشاه علاء الدين أتسز (٥٢١-٥٥١هـ/ ١١٢٧-١١٥٦م) بمنحه عهداً بحكم المناطق التابعة للدولة الخوارزمية[5]، وقد وجد الخليفة المقتفي

(1) نفس المصدر، ج١٨، ص٤/ عبود، جهود الخلافة للتحرر من النفوذ السلجوقي، ص٥١.
(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٣٤.
(3) نفس المصدر، ج١٨، ص٩-١٠.
(4) العظيمي، تاريخ حلب، ص٣٩٥/ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص ٨/ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٦٩/ الذهبي، العبر، ج٣، ص١١/ الربيدي، بنو جهير، ص٩٤.
(5) نشأت الدولة الخوارزمية تحت حماية السلاجقة في أواخر القرن الخامس الهجري عندما أوكل السلطان ملكشاه ولاية خوارزم لأحد أتباعه انوشتكين، وأطلق عليه لقب خوارزمشاه وقد تعاقبت اسرة انو شتكين على حكم هذه الدولة واصبحت الدولة الخوارزمية فيما بعد من اشد المنافسين للسلاجقة. عن الدولة الخوارزمية، انظر: النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي/ عبود، الدولة الخوارزمية.

لأمر الله بالدولة الخوارزمية منافسا لخصومه السلاجقة، فقد قام علاء الدين أتسز أثناء انشغال السلطان سنجر بحروبه مع قبائل القرة خطاي من توسيع حدود دولته وإعلان استقلاله السياسي عن السلاجقة سنة (٥٣٨هـ/١١٤٧م) بعد أن خاض حروب مريرة مع السلطان سنجر، لتصبح الدولة الخوارزمية كياناً سياسياً مستقلاً[1]. وأخذ أتسز يتطلع للخلافة العباسية للحصول على شرعية حكمه "ويرجو العبد -أتسز- من حسنات تلك الحضرة الزاهرة أن يصدر عنها باسمه منشور برسمه على ولاية خوارزم جانبيها، وشرقيها وغربيها، وما ينضاف إليها وينعطف عليها من بلادها وديارها"[2]. استجاب الخليفة لطلب ورجاء علاء الدين أتسز وبعث له بالخلع والتشريفات، وقد تأكد وصولها بالرسالة التي بعث بها علاء الدين "وأما الخلع الحاصلة للعبد والتشريفات الواصلة إليه من المواقف المقدسة قدسها الله، فقد هزت عطفه، وشدت أزره"[3]. لقد جاءت موافقة الخليفة على منح علاء الدين أتسز عهدا لحكم المناطق التابعة له والاعتراف بدولته لتأكيد صلته بهذه القوة السنية الجديدة والمنافسة للسلاجقة خصم الخلافة اللدود عله يفيد منها في صراعه المقبل مع السلاجقة لإسترداد نفوذه الزمني، كما جاء الاعتراف بشرعية هذه الدولة حتى يتعزز موقفها للتصدي لخطر القرة خطاي الذي يهدد الحدود الشرقية للعالم الإسلامي "إن خوارزم حماها الله -تعالى- ثغر واقع في نحر الكفر ولأهلها أعداء... والعبد يغزوهم كل سنة كرتين في فصلين مختلفين"[4].

وفي عهد خوارزم شاه أيل أرسلان (٥٥١-٥٦٨هـ/ ١١٥٦/ ١١٧٣م) يؤكد في رسالة بعث بها للخليفة المقتفي لأمر الله، انتهاج سياسة أبيه في توطيد علاقته بالخلافة العباسية، كما ويعلن عن وقوفه إلى جانب الخلافة من خلال شجبه

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٨؛ عبود،الدولة الخوارزمية، ٢٧.
(2) ابن الوطواط، مجموعة رسائل ابن الوطواط، ج١، ص١٣.
(3) نفس المصدر، ص١٥.
(4) ابن الوطواط، ص١٧.

لاعتداء السلطان محمد على بغداد ومحاصرتها سنة (٥٥٢هـ/١١٥٧م)، وهنا يدق الملك الخوارزمي ناقوس الخطر الذي يهدد العالم الإسلامي ويطرح فكرة التوسط بين الخليفة والسلطان محمد، وذلك حتى يتفرغ المسلمون للخطر المحدق بهم والذي "لا تصل شرره بأقطار العراق بل طبق ضرره جميع أمصار الآفاق" ثم يدعوا إلى جمع الكلمة، وتوحيد الصف لأن هذا الخطر لا يدفع" إلا بتوافق كافة المسلمين وتطابق عامة المؤمنين تحت راية ملك من ملوك هذه الملة –وسلطان من سلاطين هذه الأمة" ويرشح أيل أرسلان السلطان محمد السجلوقي لهذه المهمة[1].

وقد فهم الباحث نافع عبود[2]. الرسالة فهما خاطئا، معتقدا أن أيل أرسلان بعث بها للخليفة المقتفي لأمر الله نتيجة خلاف وقع بين أيل أرسلان والخليفة فجاءت ليستفسر الملك الخوارزمي عن سبب تغير الخليفة عليه، والصحيح أن أيل أرسلان يستوضح في هذه الرسالة سبب الخلاف بين الخليفة والسلطان السلجوقي ويدعو فيها الخليفة العفو عن السلطان محمد حتى تتوحد كلمة المسلمين ضد الخطر الذي يتهددهم، فبعد أن يرشح أيل أرسلان السلطان محمد لقيادة المسلمين للوقوف بوجه القرة خطاي ويبدأ بذكر صفاته وقدراته ثم يضيف "ولا تتحصل له –أي السلطان محمد– هذه البغية ما لم تكتنف أحواله بركات وعناية سيدنا ومولانا الإمام المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين، وخليفة رسول رب العالمين– أدام الله جلاله ومد على الخافقين ظلاله، وميامن هدايته وإرشاده – وقد وصل العبد– أيل أرسلان– في هذه المدة أن الآراء المشرفة النبوية الأمامية المقتفية –زادها الله إشراقا– قد عدلت في حقه– السلطان محمد – عن لطفها المعهود وصفائها المألوف حتى تنسمت منها رائحة تغير، وتوسمت فيها شائبة تكدر والعبد ليس يعرف سبب ذلك فإن كان منشأ هذه الحادثة الكارثة من جهة السلطان الأعظم –أعلى الله قدره– فالعبد في ضمان طي صحائف استزادته

---

(1) ابن الوطواط، ص٢٢.
(2) عبود، الدولة الخوارزمية، ص٧٦.

وإعادته إلى ما حمد من لطائف عادته"[1]. يتضح من هذه القطعة من رسالة أيل أرسلان أن المقصود إصلاح ما تكدر بين الخليفة والسلطان محمد وليس بين الخليفة والملك الخوارزمي، ومن المحتمل أن يكون السلطان محمد قد أوعز لأيل أرسلان للتوسط بينه وبين الخليفة بعد فشله في حصار بغداد سنة (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م)، وتأكده أن الحل العسكري لن يجدي نفعا مع قوة الخلافة المتنامية كما سنرى في الصفحات القادمة.

وفي هذه المرحلة بدأ الخليفة بإتباع سياسة إتسمت بالحكمة والدهاء والاتزان في تعامله مع السلاجقة، إيذانا بِبدء الخلافة بالتعامل مع المتغيرات التي حدثت على ساحة السلاجقة، وتوظيفها لخدمة هدف الخلافة للتحرر من السيطرة السلجوقية على العراق. فقد اتفق سنة (٥٤٠هـ/ ١١٤٥م) كل من الأمير بوزابه صاحب فارس وخوزستان والأمير عباس صاحب الري على إسقاط سلطنة السلطان مسعود، بالاتفاق مع الملك محمد بن محمود والملك سليمان شاه ابن محمد، وعندما علم السلطان مسعود بهذه التطورات خرج من بغداد على رأس جيشه لضرب هذا التحالف إلا أن قواعد الصلح تقررت بين الطرفين بفضل حاجب السلطان عبدالرحمن طغايرك، الذي كان يميل لتحالف (عباس، بوزابه) بسبب تحكم غلام السلطان مسعود، "خاص بك" على أمور السلطنة، وقد جاءت بنود الصلح لتخدم المتحالفين، فقد "أضيف لطغايرك ولاية أذربيجان وأرانية، وصار أبو الفتح بين دارست وزير السلطان مسعود، وهو وزير بوزابه، فصار السلطان معهم تحت الحجر"[2]. وحتى يضمنوا عدم قيام السلطان بأي عمل من شأنه ضرب تحالفهم جعلوا الأمير عباس ملازما له وابعدوا عنه غلامه خاص بك[3].

(1) ابن الوطواط، الرسائل، ج١، ص٢٢-٢٣/ وانظر نص الرسالة في الملحق رقم (٤) .

(2) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٠-١١/ الراوندي، راحة الصدور، ص١٣٧-١٣٨/ البنداري، تاريخ آل سلجوق، ١٨٢/ ابن النظام، العراضة، ص٢٢.

(3) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص١٩٧.

وعلى ما يبدو أن السلطان مسعود لم يستسلم لسلب سلطاته، وبدأ بالعمل على زعزعة لتحالف الذي تشكل ضده، فاتفق مع غلامه خاصبك سرا على التخلص من أحد قطبي التحالف، عباس أو ابن طغايرك، وكان له ما أراد وتم قتل الأخير[1]. أثار هذا العمل حفيظة الأمير عباس، وهنا تحرك الخليفة مستغلا هذا الموقف عله يتخلص من السلطان مسعود بالاتفاق مع الأمير عباس لقتل السلطان، واختاروا صبيحة يوم العيد لتنفيذ مخططهم، أثناء خروج السلطان للصلاة، إلا أن غزارة الأمطار، والسيول التي جاءت صبيحة يوم العيد أبقت السلطان في داره، وبذلك فشل مخطط الخليفة والأمير عباس في اغتيال السلطان، واستطاع بعد ذلك السلطان مسعود من قتل الأمير عباس[2].

وبعد هذه الحادثة أخذت العلاقة بين الخليفة والسلطان بالتوتر، وقد أوعز السلطان لشحنته ببغداد مسعود البلالي بمضايقة الخليفة، والتطاول على حاشيته، ويصف الحسيني وضع الخلافة والإجراءات التي كان يقوم بها الشحنة، وتجاهل السلطان لشكاوي الخليفة، بقوله: "كان أصحاب السلطان مسعود يتصرفون في العراق تصرفات فاسدة أكثرها تقع على غير وفق المقتفي لأمر الله، وربما كان ينهاهم فلا ينتهون، ويزجرهم فلا ينزجرون والنائب عن السلطان ببغداد كان مسعود البلالي خادم سخيف العقل والرأي قليل الدين، بعيد عن الخير، قريب من الشر، وكان يعتمد أحوالا أكثرها خارج عن الشرع، بعيدة عن رسوم السياسة المعقودة... وكانت المراسلات من الديوان العزيز تتوالى إلى السلطان مسعود بالشكاوي منه، فتارة كان يزجره عن فعله وتارة يمسك عنه، فحصل من قلب الإمام المقتفي لأمر الله وحشة، وانطوى على هذا"[3].

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٥/ البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص١٩٧، ابن النظام، العراضة، ص١٢٤-١٢٥.

(2) الرواندي، راحة الصدور، ص٣٤٥/ ابن النظام، العراضة، ص١٢٥.

(3) الحسيني، زبدة التواريخ، ص١٢٩.

على الرغم من فشل محاولة الخليفة التخلص من السلطان مسعود، إلا أنها بينت إن الخليفة كان على إطلاع تام بخفايا الصراع داخل البيت السلجوقي، ومدى التراجع الذي أصاب نفوذ السلطان مسعود، وإدراكه أن البيت السلجوقي اخذ بالتصدع نتيجة الصراع الدائم بين ملوكه على السلطنة، لتعدد أبناء السلاطين والذي رأى كل واحد منهم أحقيته في السلطنة.

وانطلاقا من هذا الواقع، أخذ الخليفة يفكر جديا بإعداد جيش الخلافة الذي لن يستطيع بدونه من تحقيق هدفه في التخلص من التسلط السجلوقي وتحرير الخلافة من نفوذهم، وهذا الأمر لن يتم إلا بالتخلص من التعهد الذي قطعه للسلطان مسعود بأن يقتصر دوره على الأمور الدينية، وأن لا يجند ولا يجمع.

وفي خضم الصراع السلجوقي السلجوقي تهيأت للخليفة فرصة تاريخية للتحرر من تعهداته تجاه السلطان مسعود. فقد تجدد الصراع بين السلطان ومنافسيه على السلطنة، عندما توجهت مجموعة من الأمراء يتقدمهم الملك محمد شاه وأيلدكز المسعودي صاحب كنجة وأرانية، ومن الجبل البقش الكبير، وطرنطاي المحمودي شحنة واسط، وعلي بن دبيس صاحب الحلة إلى بغداد، بهدف إسقاط سلطنة مسعود، وتنصيب محمد بن محمود بن ملكشاه سلطانا على سلاجقة العراق، عمل الخليفة على معالجة الموقف بعدة اتجاهات، بدأها بإرسال العبادي الواعظ لإقناع الأمراء بعدم التعرض لبغداد، إلا أن هذا المسعى فشل أمام إصرارهم على خلع السلطان مسعود والخطبة للملك محمد شاه بالسلطنة. وعلى أثر ذلك بعث الخليفة للسلطان مسعود يخبره بواقع الحال، وبهروب مسعود البلالي شحنة بغداد والمكلف بالدفاع عنها، إلى تكريت، وجاء في رسالة الخليفة: "أما الشحنة الذي من قبلك فقد هرب هو وأمير الحاج إلى تكريت، وأحاط العسكر بالبلد، وما يمكنني أن آخذ عسكرا لأجل العهد الذي بيننا فدبر الآن فقد بلغ السيل الزبا" وجاء رد السلطان مسعود منسجما مع هدف الخليفة، عندما بعث إليه قائلا: "قد برئت ذمة أمير المؤمنين من العهد الذي بيننا وقد أذنت لك

أن تجند عسكرا وتحتاط لنفسك وللمسلمين"[١]. وبذلك استطاع الخليفة المقتفي لأمر الله من استغلال هذه الحادثة للتخلص من التزاماته التي التزم بها للسلطان مسعود.

كما وكشفت هذه الحادثة عن عبقرية ابن هبيرة، الذي كان يشغل ديوان الزمام، فقد أشار على الخليفة باتخاذ العسكر والتصدي للمحاصرين، وعدم الإذعان لمطالبهم، عندما طالبوا بمبلغ ثلاثين ألف دينار لفك حصارهم، فقد نصح الخليفة بقوله: "هؤلاء خرجوا عليك وعلى السلطان، وجاهروا كما بالعصيان فلجعل الله بالاستجارة، وقدم له الاستخارة، وانفق على ما عزمت بذله لهم في عسكر يقاومهم ويدفع شرهم، فإنك أن دفعتهم بالعطاء لن تسلم من عتب السلطان مسعود وإن هزمتهم باللقاء قلت له إني فللت جنود عصيانك من أهل طاعتك بجنود وأنت لا تحمد على ما تحمل ولا تشكر على ما تعمل"[٢].

وبعد أن اتخذ الخليفة قرار الدفاع عن بغداد والتصدي للمهاجمين شرع بالإعداد لهذه المواجهة، يصف ابن القلانسي إجراءات الخليفة بقوله: "خرج أمر الخليفة في سنة ٥٤٣هـ بالشروع في عمارة سور بغداد، وحفر الخنادق وتحصينها وألزم الأماثل والثناء- كبار المزارعين- والتجار واعيان الرعايا القيام بما ينفق على العمارات من أموالهم على سبيل القرض والمعونة[٣]. وبدأ الخليفة في استعراض العسكر" وجلس المقتفي في منظرة الحلبة واستعرض العسكر وحفرت الخنادق ببغداد" كما وأشرك الخليفة أهل بغداد في الدفاع عن مدنيتهم والتصدي للمهاجمين" ونودي بلبس العوام السلاح وأن يمنعوا عن أنفسهم وأموالهم"[٤].

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٦٤-٦٥/ وانظر، ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢١/ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٣٠١/ البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢٠٤.
(2) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢٠٤/ وانظر: الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٢٦.
(3) ابن اقلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٣٠٢/ حلمي، السلاجقة في التاريخ ص١٦٢.
(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٦٥.

بعد هذه الإجراءات التي اتخذها المقتفي لأمر الله، اضطر الأمراء السلاجقة للانسحاب بعدما عاثوا ودمروا بأطراف بغداد، وألحقوا الأذى بأهل القرى والرساتيق[1].

وتكمن أهمية هذه المواجهة بعدة نواحي، أهمها تخلص الخليفة من تعهداته للسلطان بعدم تجنيد الجند، وهذا ما أكده الأصفهاني بقوله: "وصار من ذلك اليوم للخليفة جند"[2]. فكانت هذه المواجهة بداية تكوين نواة الجيش العباسي، إذ اعتمد الخليفة في تكوين هذا الجيش على أهل بغداد" ونودي بلبس العوام السلاح"[3]، وقد أبان أهل بغداد مقدرة فائقة في التصدي للمحاصرين، واستبسالهم في الدفاع عن المدينة، وما مقتل خمسمائة إنسان من العامة أثناء الحصار إلا دليل على ذلك[4]. فقد استطاع الخليفة إشراك عامة بغداد وأعيانها وتجارها والمتعطلين من رجالها في الدفاع عن المدينة[5]. ومن النتائج المهمة التي حققها الخليفة في هذه المواجهة تحصينه مدينة بغداد كحفر الخنادق وبناء السور حولها[6].

واستطاع الخليفة في هذه الموجهة أيضا أن يجسر أزمة الثقة بينه وبين السلطان مسعود، عندما رفض الخطبة لغيره، داخل بغداد، ومن المحتمل أن رفض الخليفة هذا جاء أيضا، حتى لا يلتزم مستقبلا بالخطبة لأحد الملوك المتصارعين على السلطنة، وهذا ما حدث فعلا، بعد موت السلطان مسعود سنة (٥٤٧هـ/ ١١٥٢م)، فقد رفض الخليفة الخطبة لأي من الملوك المتصارعين، وانفرد بها تماما بعد موت السلطان سنجر سنة (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م).

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٦٥.
(2) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢٠٤/ زهراو مطر، عصر المقتفي، ص٧٨.
(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٦٥/ الجالودي، تطور السلطنة، ص١٣٦.
(4) نفس المصدر، ج١٨، ص٦٥-٦٦/ الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٢٦.
(5) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٦٥/ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢١-٢٢/ البنداري، تاريخ آل سلجوق، ٢٠٤-٢٠٥.
(6) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٦٥.

كما بينت هذه المواجهة مقدار الثقة التي بدأ يتمتع بها الخليفة المقتفي لأمر الله عندما استطاع رد هجوم آخر تعرضت له بغداد من قبل المهاجمين أنفسهم سنة (٥٤٤هـ/١١٤٩م)، بهدف قطع خطبة السلطان مسعود، والخطبة لملكشاه[1]. ونستطيع القول أن هذين الهجومين كانا بمثابة تدريب عملي للخليفة للدخول في المواجهة الحاسمة مع السلاجقة.

وفي سنة (٥٤٤هـ/١١٤٩م)، حدث تطور مهم في مؤسسة الخلافة، إذ وصل لوزارة المقتفي لأمر الله، الوزير الفذ عون الدين بن هبيرة[2]. ويبدو أن الخليفة أراد مكافأة ابن هبيرة لدوره في التصدي للأمراء السلاجقة في حصار سنة (٥٤٣هـ/١١٤٨م) والذي كان لرأيه وقع كبير لدى الخليفة، كما أبانت عن قدراته، واستعداده لمساندة الخليفة في صراعه مع السلاجقة، ويعد ابن هبيرة رجل إدارة من الطراز الأول فتدرجه في المناصب الإدارية، من الإشراف على المقامات المخزنية، مرورا بالإشراف على المخزن، وتسلمه لديوان الزمام، وصولا إلى الوزارة، قد أكسبه مقدرة كبيرة في الأعمال الإدارية، كما أعطاه وجوده في هذه المواقع فرصة للإطلاع عن كثب على ما تعانيه الخلافة العباسية من ظلم وتسلط السلاجقة، فكان لذلك أثر كبير في تشجيعه ومساندته للخليفة المقتفي لأمر الله، وابنه من بعده المستنجد بالله، للتخلص من النفوذ السلجوقي وتحرير الخلافة من هيمنتهم، وبما أن "أزمة أمور الملوك بأكف الوزراء"[3]. ندرك أهمية اختيار ابن هبيرة في وزارة المقتفي لأمر الله.

وتدل مراسم تنصيب ابن هبيرة في وزارة الخليفة، على ما لهذا الأمر من أهمية، يصف ابن خلكان مراسم التنصيب بقوله: "ولما وصل إلى باب الحجرة

---

(1) نفس المصدر، ج١٨، ص٨١/ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٥.

(2) عن ابن هبيرة انظر/ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٦، من ٢٣٠-٢٤٤/ الذهبي، سير، ج٢٠، ص٤٢٦-٤٣٢/ ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، ج١، ص٢٥١-٢٥٤/ الديباطي، المستفاد من ذيل بغداد، ص١٩٧-١٩٨، مقابلة الوزير عون الدين بن هبيرة ودوره في إحياء مؤسسة الخلافة العباسية ٥٤٤-٥٦٠هـ.

(3) الطرطوشي، سراج الملوك، ص٢٤.

استدعى فدخل وقد جلس له المقتفي بميمنة التاج، فقبل الأرض وسلم، وتحدث ساعة... ثم خرج وجهزوا له التشريف على عادة الوزراء فلبسه، ثم استدعي ثانيا فقبل الأرض، ودعا بدعاء أعجب الخليفة... ثم أن عون الدين خرج فقدم له حصان أدهم سائل الغرة محجل، وعليه من الحلي ما جرت به عادتهم مع الوزراء... وخرج بين يديه أرباب المناصب وأعيان الدولة وأمراء الحضرة، وجميع خدام الخلافة، وسائر حجاب الديوان والطبول تضرب أمامه، والمسند وراءة محمول على عادتهم في ذلك، حتى دخل الديوان ونزل على طرف الديوان وجلس في الدست، وقام لقراءة عهده الشيخ سديد الدولة أبو عبدالله محمد بن عبدالكريم بن الأنباري"[1]. أن هذه الصورة تعيد إلى أذهاننا كبار وزراء الدولة العباسية في العصر العباسي الأول، ونستطيع أن نطلق على هذا الوزير بحق وزير السيف والقلم معا.

موت السلطان مسعود وتدابير الخليفة للاستقلال بالعراق:

إذا كانت سنة (٥٤٣هـ/١١٤٨م) هي بداية تحرك الخليفة المقتفي لأمر الله للتخلص من النفوذ السلجوقي، من خلال بدئه بتكوين جيش الخلافة، والذي كونه من الأرمن واليونان الذين أصبحوا يعرفون بالخيلية[2]، إلى جانب عامة بغداد، أضف إلى لذلك تحصين المدينة من بناء السور وحفر الخندق حولها، فان عام (٥٤٧هـ/ ١١٥٢م) وهو العام الذي مات فيه السلطان مسعود، كان بمثابة استثمار هذه الاستعدادات للدخول في مواجهة منظمة مع السلاجقة للاستقلال بالعراق، وإعادة النفوذ الزمني للخلافة.

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٦، ص٢٣٢-٢٣٣.
(2) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢١٧/ الزهراني، نفوذ السلاجقة، ص٤٩.

يقول ابن الأثير: "في هذه السنة أول رجب -٥٤٧هـ- توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان ... ومات معه سعادة البيت السلجوقي فلم يقم له بعده راية يعتد بها ولا يلتفت إليها"(1).

ويعبر الأصفهاني في ما لخصه البنداري عن موقف الخليفة المقتفي لأمر الله عندما وصله نبأ موت السلطان مسعود بقوله: "فلما توفي السلطان مسعود قال -أي الخليفة-: لا صبر على الضيم بعد اليوم. ولا قوام مع هول هؤلاء القوم وآزره وزيره عون الدين بن هبيرة، وأعانه وثبت جنانه"(2). يتضح من هذا النص، أن الخليفة قد آثر التريث في مواجهة السلاجقة منتظرا تبدل الظروف، وتغير موازين القوة، لصالح الخلافة، فقد كان الخليفة على علم بتفاصيل الصراع المستمر بين الملوك والأمراء السلاجقة على السلطنة، كما كان من الذكاء بحيث لم يخضع لأي ضغط من قبل الملوك المتنافسين، رافضا الخطبة لأي منهم، معترفا فقط بسلطنة السلطانين سنجر ومسعود، حتى لا يلزم نفسه مستقبلا للخطبة لأحد هؤلاء الملوك، وبموت السلطان مسعود وانشغال السلطان سنجر بمشاكله مع جيرانه(3). استغل الخليفة المقتفي لأمر الله هذه الفرصة التاريخية ليبدأ رحلة كفاحه للاستقلال بالعراق وإعادة النفوذ الزمني للخلافة.

ويصور العماد الأصفهاني حالة الخلافة قبيل موت السلطان مسعود وتصرفات نوابه بقوله: "كانت السدة الشريفة الأمامية، قد منيت بجور الأعاجم، ولم يزل عودها من عداوتهم تحت سن العاجم. وكان أهون ما عندهم خلاف الخليفة وعناده، وتمردهم عليه بأن يحصل مرادهم لا مراده، ولم تزل بغداد مظلمة، مشحونة منهم بالشحن الظلمة. ولهم من الديوان العزيز مطالب لا يفي بها

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣١/ وعن السلطان مسعود انظر، ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٨٨/ الراوندي، راحة الصدور، ص٣٢٥-٣٥٨/الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٠٧-٢٣٥/ البنداري، ص٢٠٨-٢٠٩/ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٢٠٨.

(2) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢١٦.

(3) عن مشاكل السلطان سنجر مع جيرانه انظر، ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٣/ البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢٥٢-٢٥٩.

خواصه ومغارم تلحقه منهم يتعسر منها خلاصه. والحرم من جناياتهم خائف، والشرف لمهاباتهم عائف وشريعة الشريعة مكدرة، والدماء والفروج مستباحة مهدرة. والخليفة يَغضب، ويُعتب ولا يَعتب، ويُقدر عليه ولا يقدر، ويُغدر به وهو على العهد لا يغدر"[١]. بوصول خبر موت السلطان مسعود[٢]. لبغداد، بدأ الخليفة باتخاذ الترتيبات اللازمة لمواجهة المرحلة المقبلة و "تشمر لدفع الأعاجم عن بغداد"[٣]. وكانت أهم هذه الترتيبات، البدأ بإعادة تنظيم جيش الخلافة فلم يكن الجيش الذي كونه الخليفة من عامة بغداد، أثناء حصار سنة (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) جيشا نظاميا بقدر ما كان مجموعة من المتطوعين والتي دعت الضرورة للاستعانة بهم. إلا أن سنة (٥٤٧هـ/ ١١٥٢م) كانت البداية الحقيقية في تكوين الجيش النظامي للخلافة العباسية. فقد "نادى الخليفة أنه من تخلف من الجند ولم يحضر الديوان ليكتب أسمه ويجري على عادته في إقطاعه أبيح دمه"[٤]. كما استدعى الخليفة الأمير منكوبرس المسترشدي[٥]. من دمشق، للاستعانة بخبراته في تنظيم الجيش، فقد كان هذا الأمير خبيرا بتعبئة الجيوش، وفنون القتال[٦]. ثم قام بفتح باب التطوع لأهل

---

(1) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢١٦.

(2) حول موت السلطان مسعود، ذكر ابن هبيرة في تكابه الافصاح: (أنه لما تطاول على الخليفة المقتفي أصحاب مسعود وأسأوا الأدب ولم يمكن المجاهرة بالمحاربة اتفق الرأي الدعاء على مسعود بن محمد شهرا، كما دعا رسول الله (ص) على رعل شهرا، فابتدأ هو –ابن هبيرة– والخليفة سرا كل في موضعه يدعو سحر من ليلة تسع وعشرين من جمادي الأول سنة سبع واربعين وخمسمائة.واستمر الأمركل ليلة فلما كان ليلة تسع وعشرين من جمادي الآخرة كان موت مسعود على سريره لم يزد عن الشهر يوما وما نقص يوما، ووصل القصاد بذلك من همذان إلى بغداد في ستة أيام فأزال الله يده ويد أتباعه عن العراق وأورثنا أرضهم وديارهم" أبو شامة، الروضتين، ج١، ص٢٢٣.

(3) الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٤١.

(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٨٤/ أمين، تاريخ العراق، ص١٥٦.

(5) الأمير منكوبرس المسترشدي، احد أمراء الخليفة المسترشد بالله، توجه إلى الشام بعد مقتل الخليفة المسترشد بالله، وشارك في جهاد الصليبيين في الشام، وقد أبلى في ذلك بلاءا حسنا، تزوج بنت صاحب دمشق معين الدين آنر، ولما خلص العراق للإمام المقتفي لأمر الله استدعاه من دمشق، وفوض إليه ولاية البصرة، وكان خبيرا بترتيب الجيوش واسباب الحرب. الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٤٥.

(6) الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٤٥.

بغداد للانخراط في الجيش المزمع تكوينه، والذي أصبح يضم بالإضافة للمتطوعين من أهل بغداد مماليك الخليفة، من الأرمن واليونان والأكراد والذي أكثر من شرائهم في الآونة الأخيرة(1).

وبدأ الخليفة بترتيب أوضاع بغداد، فقد قبض على كل من كان يحتمي بسلطان السلاجقة، فاستولى على خيل وسلاح شحنة بغداد مسعود البلالي، والذي هرب إلى تكريت بمجرد سماعه نبأ موت السلطان مسعود، خوفا على نفسه من انتقام الخليفة(2). كما قام بحل اقطاعات الأمراء السلاجقة في العراق(3). ومن الإجراءات التي قام بها الخليفة السيطرة على المؤسسات الثقافية وتوجيهها بما يخدم غرضه، بحيث ألقى القبض على بعض مدرسي المدرسة النظامية، والذين أظهروا في أكثر من موقف عدم احترامهم للخلافة، مستندين بذلك على حماية السلاجقة، فقد قبض على ابن النجيب السهروردي وأنصاره فأهينوا وزج بهم في سجون بغداد(4).

وبذلك يكون الخليفة قد أكمل جميع الاستعدادات، والتي من شأنها أن تجعله أكثر قوة ومقدرة في التصدي لأي هجوم قد تتعرض له بغداد.

بدأ الخليفة تحركاته العسكرية، بإرسال وزيره ابن هبيرة على راس جيش تعداده ثلاثة آلاف مقاتل لتخليص الحلة من سيطرة مسعود البلالي الذي استولى عليها بعد مقتل عاملها، ونجح الوزير بطرد البلالي الذي هرب إلى همذان(5). وبعد هذا النصر الجزئي، بدأ الخليفة يفكر جديا بالسيطرة على مدن العراق، ففي يوم الاثنين الحادي والعشرين من شوال سنة ٥٤٧هـ/ كانون ثاني ١١٥٢م، توجه الخليفة إلى واسط، فأخضعها لسيطرته وعين خطلبرس شحنة فيها، ثم توجه إلى

---

(1) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢١٧.
(2) ابن حمدون، التذكرة، ج١٢، ق١٩٢/ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٨٤.
(3) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢١٧.
(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٨٤/ الجالودي، تطور السلطنة، ص١٣٢.
(5) نفس المصدر، ج١٨، ص٨٤-٨٥/ الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٤٢.

الحلة، ثم الكوفة، وعاد في ذي القعدة من نفس السنة إلى بغداد(1). وحاول الخليفة سنة (٥٤٨هـ/١١٥٣م) السيطرة على تكريت إلا أن قواته فشلت بذلك فخرج بنفسه على راس الجيش إلا أن المدينة استعصت عليه، فأنطلق إلى واسط لطرد ملكشاه الذي استولى عليها، وقد نجح في ذلك، ثم عاد إلى بغداد في نفس العام(2).

ويذكر العماد الأصفهاني أن العراق أصبح تحت سيطرة الخليفة" وملك الخليفة العراق من أقصى الكوفة إلى حلوان، ومن تكريت إلى عبادان، وأقطع واسط وأعمالها، والبصرة وأنهرها، ومعاقلها، وولايتها، والحلة والكوفة، ونهر الملك ونهر عيسى ودجيل، واراذان، وطريق خراسان إلى نواحي حلوان، وأقطع عون الدين ابن هبيرة جميع ما كان لوزير السلطان، وأرباب مناصبه في جميع هذه البلاد"(3).

لم يقف الأمراء السلاجقة ممن حلت اقطاعاتهم في العراق مكتوفي الأيدي فقد أخذوا بتحريض السلطان الجديد محمد بن محمود على التوجه إلى بغداد لإعادتها إلى السيطرة السلجوقية(4). ويورد العماد الأصفهاني في هذا المجال أن السلطان محمد لم يكن راغبا في الدخول بمواجهة عسكرية مع الخليفة "لا تعجلوا فإن مخالفة الخليفة شؤم ومواليه محمود ومعاديه مذموم، وأنا استقبح أن استفتح سلطنتي بمعاداته، ونية مناواته"(5). وهنا نتساءل، هل كان السلطان محمد حريصا على رضى الخليفة أم انه كان على علم بما وصلت إليه قوة الخلافة؟ فأراد أن يصل إلى مراده بالوسائل السلمية، فقد أورد الحسيني أن السلطان محمد بعث للخليفة طالبا السلطنة، وغلظ له الأيمان المؤكدة "أنني لست كمن تقدمني من السلاطين، وإنني عبد الطاعة، ومعتقد بالإمامة، لا أتعدى ما أمر به ولا اقترف ما أنهى عنه،

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٨٥.
(2) نفس المصدر، ج١٨، ص٨٥.
(3) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢١٦-٢١٧.
(4) نفس المصدر، ص٢١٧-٢١٨/ امين، تاريخ العراق، ص١٥٦.
(5) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٨٤/ البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢٠٩-٢١٢. القلقشندي، مآثر الانافة في معالم الخلافة، ج٢، ص٣٧-٣٨.

وإن وقع الرضى علمت أنني عند الله من المقبولين، ومتى نفرت الهمة الأمامية عني حسبت أن أكون عند الله من المطرودين"[١]. ومع أن هذه الإيمان من السلطان محمد لم تجده نفعا في الحصول على مراده، إلا أنها سجلت ولأول مرة في تاريخ الخلافة العباسية في العصر السلجوقي، استعطاف احد السلاطين للخلافة للحصول على لقب السلطنة، ورفض الخلافة لهذه الاستعطافات مستندة في ذلك على قوتها الذاتية.

وعلى الرغم من أن السلطان محمد آثر التريث، قبل الدخول في مواجهة عسكرية مع الخلافة، إلا أن الأمراء السلاجقة، قروا التوجه إلى بغداد يتقدمهم مسعود البلالي الذي كان له دور كبير في تجييش الأمراء وتحريضهم على الخليفة المقتفي لأمر الله، والبقش الكبير أحد أمراء السلطان مسعود وجمع كبير من التركمان وتوجهوا ابتداء إلى قلعة تكريت، لاستصحاب الملك أرسلان بن السلطان طغرل الذي كان محتجزا فيها، ويعلل ابن الجوزي ذلك بقوله: "ليكون اسم الملك جامعا للعسكر"[٢]. بعد رفض السلطان محمد التوجه معهم.

عندما علم الخليفة بتحركات السلاجقة، أخذ بالاستعداد لمواجهة الموقف فاستدعى الأمراء إلى بغداد، وحضر منهم عساكر واسط والبصرة، يتقدمهم الأمير منكوبرس المسترشدي، وقتلغ برس صاحب واسط وأعمالها، والأمير بدر ابن مظفر بن حماد صاحب الغراف[٣]. والبطائح، "واجتمع ببغداد عسكر لم يجتمع مثله في وقت من الأوقات." [٤]. ويصف الحسيني الترتيبات التي اتخذها الخليفة المقتفي لأمر الله قبيل بدء المعركة، بقوله: "وقد عبأ أمير المؤمنين عساكره، فجعل على الميمنة قويدان وابن سلمة القمي، وبدر بن حماد صاحب الغراف، وجماعة

(1) الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٤٣.
(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٩٦.
(3) الغراف، نهر كبير تحت واسط بينها وبين البصرة، وعلى هذا النهر كورة فيها قرى كثيرة وهي بطائح. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص١٩٠.
(4) الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٤٤/ انظر البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢١٨.

أخرى،وجعل على الميسرة الأمير قتلغ برس صاحب واسط عن مماليك الدولة، وثبت بالقلب -أي الخليفة- ومعه مماليكه وأصحابه، وصار معه في القلب منكوبرس المسترشدي صاحب البصرة... والوزير عون الدين ابن هبيرة أيضا في القلب"[1]. والتقى الطرفان على نهر بكمزا[2]. سنة (٥٤٩هـ/ ١١٥٤م)، وكانت المعركة بين كر وفر أثبت فيها الخليفة مقدرة فائقة على تنظيم الجيش، والصمود به في أحلك المواقف، فقد شارك هو وولي عهده في هذه المعركة، رغم محاولة أمراءه ثنيه عن ذلك فقال لهم: "لا والله إلا معكما، فرفع الطرحة عن رأسه وجذب السيف، ولبس الحديد هو وولي العهد وبكرا وصاح أمير المؤمنين: يا آل مضر كذب الشيطان وفر، وقرأ (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا) [3]. وحمل العسكر بجملته فوقع السيف في العدو، وسمع صوت السيف على الحديد كوقع المطارق على السنادين، وانهزم القوم، وتم الظفر وسبى التركمان، وأخذت أموالهم من الإبل والبقر والغنم ما لا يحصى"[4].

مثل هذا الانتصار بالنسبة للخلافة، بداية النهاية للوجود السلجوقي في العراق، وبدت الخلافة الطرف الأقوى فهي الأكثر تنظيماً، كونها تخضع لقيادة واحدة متمثلة بشخص الخليفة، والذي آثر أن يكون في قلب المعركة على رأس قواته العسكرية بينما السلاجقة مشتتين ومتنافسين فيما بينهم، والأوضح هدفا، فهدف الخليفة المقتفي لأمر الله واضح وهو التخلص من النفوذ السلجوقي في العراق، وتحرير الخلافة من هيمنتهم، ويصف العماد الأصفهاني حالة الخلافة بعد

---

(1) الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٤٥.

(2) بكمزا أو بجمزا، قرية تقع على طريق خراسان، وتبعد عن بعقوبا نحو فرسخين. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٣٤٠، ٤٧٥.

(3) الأحزاب، آية (٢٥).

(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٩٦-٩٧/الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٤٥-٢٤٦/ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٤٤-٤٥/ البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢١٨-٢٢٠/ زهرا ومطر، عصر المقتفي، ص٨٠.

هذه المعركة " ولما تمت على أولئك القوم في أملهم الخيبة، وتملكتهم من جانب أمير المؤمنين الهيبة"[1].

أما السلطان محمد فقد أدرك أن هذه الخطوة، قد جعلت الخلافة أكثر قوة وثقة، وأنها كشفت حالة الوهن والضعف الذي يعاني منه البيت السلجوقي، وهذا ما جعله يعاتب الأمراء المنهزمين بقوله: "كسرتم ناموسكم، وأتلفتم أنفسكم، وأهلكتم التركمان"[2].

وبعد هذه المواجهة والتي وقعت سنة (٥٤٩هـ/ ١١٥٤م) حدث تطور مهم له دلالاته في تطور نفوذ الخلافة الزمني، والبدء بممارسة هذا النفوذ، فقد أشار كل من ابن الجوزي، والمقريزي، في حوادث سنة ٥٤٩هـ إلى اختلال الأحوال في مصر" وفي هذه السنة اتصلت الأخبار باختلاف مصر والساحل وهلاك خليفتيهما وولي عهده والجند، وأنه لم يبق إلا صبي، فكتب المقتفي لأمر الله عهدا لنور الدين ابن زنكي وولاه مصر وأعمالها والساحل وبعث إليه الخليفة المراكب والتحف وأمره بالمسير إليها"[3]. أما المقريزي فيقول: "وقيل له –أي لنور الدين– قد اختلت أحوال الدولة بمصر"[4]. وبعد أن يلقبه الخليفة بالملك العادل يأمره بالتوجه لمصر[5].

ويرى الحياري أن معلومات الخلافة العباسية عن تطور الأوضاع بمصر جاءت بصفة رسمية عن طريق نور الدين زنكي، الذي طلب من الخليفة بعدما فتح دمشق سنة (٥٤٩هـ/ ١١٥٤م) أن يمنحه شرعية حكم المناطق التابعة له وكل ما يفتحه من البلاد[6]. ونضيف إلى ذلك مستندين إلى العماد الأصفهاني، وابن الأثير

(1) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢٢٠.
(2) نفس المصدر، ص٢٢١.
(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٩٨/ وانظر الذهبي، العبر، ج٣، ص٩/ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٥٢/ حسن المحاضرة، ج٢، ص٣.
(4) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٢٣.
(5) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٥٢.
(6) الحياري، صلاح الدين القائد وعصره، ص٥٦.

الأثير أن الخلافة كانت على علم بتطورات الأحداث بالقاهرة من خلال مصادرها الخاصة" وبث العيون، وأصحاب الأخبار، وبعث الجواسيس إلى جميع الأمصار"(1). ويصف ابن الأثير سياسة المقتفي بجمع الأخبار: "وكان يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار في جميع البلاد حتى لا يفته منها شيء"(2). فقد بدت الخلافة بعد سنة (٥٤٧هـ/ ١١٥٢م) بالتطلع لقيادة العالم الإسلامي دينياً وسياسياً مبتدئة بالتخلص من النفوذ السلجوقي الذي أخذت تحقق فيه نجاحا ملحوظاً منذ وفاة السلطان مسعود.

قد لا تكون مصادر المعلومات التي حصلت عليه الخلافة عن تطور الأوضاع بمصر بأهمية المعلومات ذاتها، ورد فعل الخلافة أولاً، ونور الدين ثانياً، فقد عبر رد فعل الخلافة عن مدى التطور الذي طرأ على نفوذها، بحيث تصدر أوامرها لأحد الولاة المتنفذين في الشام نور الدين زنكي للتحرك إلى مصر لإعادتها إلى حظيرة الخلافة العباسية، أما القضية الأخرى فهي إدراك نور الدين زنكي -أقوى الأمراء في الشام آنذاك والذي أخذ العمل على توحيدها للتصدي للفرنجة- أنه لا بد أن يحظى بدعم الخليفة للحصول على عهد يضفي الشرعية على حكمه للمناطق التي يسيطر عليها لاستكمال مشروعه، مع علمه أن الخلافة بدأت تستعيد قوتها ونفوذها، فأخذ يطلعها بتحركاته بشكل منتظم(3).

بعد الهزيمة التي مني بها السلاجقة في موقعة بكمزا، حاول مسعود البلالي أن يعيد الكرة مرة أخرى، عندما توجه إلى واسط في شعبان سنة ٥٤٩هـ/ تشرين أول ١١٥٤م، ونهبها، إلا أن ابن هبيرة استطاع هزيمة مسعود، وإعادة واسط لحظيرة الخلافة العباسية(4). ونظراً للجهود التي قام بها الوزير ابن هبيرة، وتقديراً لمواقفه

---

(1) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢١٧.
(2) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٦٨.
(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١١٩.
(4) نفس المصدر، ج١٨، ص٩٧/ زهراو مطر، عصر المقتفي، ص٨٤.

في مساندة الخليفة من أجل تحرير العراق والخلافة من النفوذ السلجوقي، خلع عليه الخليفة "بقميص وعمامة ولقبه سلطان العراق وملك الجيوش"[1].

أدرك السلطان محمد بن محمود أن الخليفة المقتفي لأمر الله ماض قدماً في توطيد أركان الخلافة، واضعاً نصب عينيه تحرير العراق من النفوذ السلجوقي فعقد العزم على التوجه إلى بغداد على رأس قواته، واستدعى لهذا الغرض عسكر الموصل ومسعود البلالي من تكريت، وبوصول خبر تحرك السلطان محمد لبغداد، بدأ الخليفة بالاستعداد لمواجهته" فلخرج الخليفة سرادقه، واستعرض مع الوزير العسكر في شوال – سنة ٥٤٩هـ فكانوا يزيدون على اثني عشر ألف فارس"[2]. إلا أن خشية السلطان محمد من ألدكز الذي كان محتفظا بالملك الصبي أرسلان شاه ابن طغرك جعله يؤجل تحركه لبغداد، وتفرقت عساكره كل إلى ولايته[3].

وفي سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م بدأ الخليفة بأتباع سياسته القديمة في ضرب الملوك والأمراء السلاجقة بعضهم بالبعض الآخر، ففي العام المذكور استجار الملك سليمان بن السلطان محمد ابن ملكشاه بالخليفة وأستأذنه القدوم إلى بغداد على أثر الخلافات التي حدثت بينه وبين الأمراء السلاجقة. وجد الخليفة بالملك سليمان ورقة رابحة يستخدمها لضرب السلطان محمد وإشغاله مرحليا عن التفكير بالتوجه إلى بغداد، ووافق الخليفة على قدوم الملك سليمان بعد أن بعث الأخير زوجته وابنه كرهائن لدى الخليفة، ووصل الملك سليمان إلى بغداد" ومعه عسكر خفيف يبلغون ثلاثمائة رجل، فخرج ولد الوزير ابن هبيرة لتلقيه ومعه قاضي القضاة والنقيبان ولم يترجل له ابن الوزير"[4]. ولم يحفل بوصوله إلى بغداد كما جرت العادة في استقبال الملوك والسلاطين السلاجقة[5]. وأجبر على تقبيل عتبة باب النوبي الذي

---

(1) نفس المصدر، ج١٨، ص٩٧.
(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٩٧.
(3) نفس المصدر، ج١٨، ص٩٨.
(4) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٤٨/ وانظر، ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٠٢، حسنين، سلاجقة ايران والعراق، ص١٢.
(5) الذهبي، العبر، ج٣، ص١٣.

لم يقبلها "قبل سليمان سلطان سلجوقي ولا ملك ديلمي"[1]. ويذكر الحسيني أن الملك سليمان أصبح يلقب بالملك المستجير عند أهل بغداد[2].

أحضر الملك سليمان إلى دار الخلافة، واستقبله الخليفة بحضور قاضي القضاة والشهود وأعيان العباسيين" وحلف للخليفة على النصح والموافقة ولزوم الطاعة وأنه لا يتعرض إلى العراق بحال فلما حلف خطب له ببغداد ولقب بألقاب أبيه غياث الدنيا والدين وباقي ألقابه، وخلع عليه خلع السلطنة"[3]. وبدأ الخليفة بتنفيذ مخططه، عندما جهز السلطان سليمان شاه بثلاثة آلاف فارس، وجعل الأمير قويدان صاحب الحلة حاجبا له، وشرف الدين الخراساني وزيره، وسار الخليفة مع الجيش إلى حلوان[4]. والتحق ملكشاه بن محمود بالسلطان سليمان وبصحبته الفا فارس، فجعله الخليفة ولي عهد السلطان سليمان، كما انضم لهذا الحلف ألدكز، وبذل لهم الخليفة المال والسلاح، ثم عاد إلى بغداد، وعلى الرغم من أن هدف الحملة العسكري لم يتحقق، إذ هزم جيش السلطان سليمان، وعاد جند الخلافة إلى بغداد في حالة يرثى لها[5]. إلا أن الخلافة حققت مكاسب سياسية من هذه الجولة أهمها، بروز دور الخلافة المحوري في تحريك الصراع من خلال تجميع خيوطه في بغداد، فقد أثبت الخليفة المقتفي لأمر الله مقدرة فائقة في استغلال الخلافات السلجوقية، وإستقطاب الملوك والأمراء السلاجقة المناوئين للسلطان محمد. كالسلطان سليمان شاه وملكشاه، وألدكز وزجهم في صراعه مع السلطان محمد. كما أن الطريقة التي تم بها استقبال سليمان شاه، ثم تجهيزه بالجيش وتعيين حاجب ووزير له من قبل المقتفي لأمر الله تبين ما وصلت إليه الخلافة من نفوذ

(1) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢٢٢.
(2) الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٥٣.
(3) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٤٨-٤٩/ وأنظر، ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٠٧.
(4) حلوان، تقع في آخر حدود السواد ممايلي الجبل من بغداد/ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٩٠.
(5) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٠٦-١٠٧/ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٤٨-٤٨/ الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٥٣-٢٥٥/ البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢٢٢/ الراوندي، راحة الصدور، ص٣٨١-٢٤٨/ الجالودي، تطور السلطنة، ص١٣٢.

وقوة بحيث وصل الأمر بفرض وزير على سلطان سلجوقي، وهذا ما لم يحدث منذ دخول البويهيين للعراق.

إزاء هذه التطورات بدأ السلطان محمد بالاستعداد للتوجه إلى بغداد لإعادتها لدائرة النفوذ السلجوقي، وتحجيم دور الخليفة الذي استطاع الاستقلال بالعراق رافضا الخطبة لأي من الملوك السلاجقة، باستثناء السلطان سنجر، وأرسل إلى حليفه قطب الدين مودود صاحب الموصل، ونائبه فيها زين الدين علي كوجك للانضمام إليه، وتوجه سنة (٥٥١هـ/ ١١٥٦م) من همذان قاصدا بغداد[1].

وبوصول خبر تحرك السلطان محمد لبغداد، بدأ الخليفة بالاستعداد لمواجهته والدفاع عن المدينة، وتدل الاستعدادات التي أتخذها الخليفة ووزيره ابن هبيرة، أن المقتفي لأمر الله كان يستعد للدخول في مواجهة شاملة وحاسمة مع السلاجقة، وهذا ما يفهم من قول العماد الأصفهاني: "وكان من حزم الخليفة أنه مذ توفي السلطان مسعود، ونفي مسعود الخادم البلالي من بغداد أوعز بإعداد الذخائر وإدخار العدد والاستظهار بشغل صناع السلاح وكانت حجارة المنجنيق معوزة، فأحضر منها ألوفا صارت محرزة. وأمر ببناء المراكب المقاتلة، والسفن فرعن –نزلن– في دجلة راسيات كالرعن –كالجبل الطويل–"[2]. ويصف الحسيني إستعدادات الخليفة بقوله: "واستعد الإمام المقتفي لأمر الله للحصار، وأدخل إلى بغداد من المير، والعلوفات، والأغنام، والأبقار ما يقيم بها وبمن فيها من العسكر، وبذل الأموال واجتمعت العساكر إليه من كل مكان، حتى صار من العساكر ما لم يعهد مثلها مجتمعه ببغداد"[3]. ثم أخذ الخليفة والوزير ابن هبيرة بتنظيم شؤون بغداد، وبناء الاستحكامات لمواجهة الحصار" واهتم الخليفة وعون الدين ابن هبيرة بأمر الحصار وجمع السفن وقطع الجسر –الذي يصل بين شطري بغداد– وجعل الجميع تحت التاج ونودي منتصف المحرم سنة اثنتين وخمسين أن لا يقيم

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٥١/ الجميلي، دولة الأتابكة في الموصل، ص٢١٩.
(2) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢٢٨.
(3) الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٤٧.

أحد بالجانب الغربي... ونقلت الأموال إلى حريم دار الخلافة، وخرب الخليفة قصر عيسى والمربعة والقرية المستجدة والنجمى"[١]. "وحكى زجاج الخاص انه عمل في هذه النوبة ثمانية عشر ألف قارورة للنفط سوى ما كان عندهم من بقايا نوبة تكريت"[٢].

وسمح الخليفة للوعاظ بالجلوس لإلقاء مواعظهم على الناس وبث الحماس فيهم، للتصدي للسلاجقة[٣]. وبذلك استكمل الخليفة المقتفي لأمر الله استعداداته، والتي تجعله قادرا على تحمل حصار طويل الأمد.

وصلت قوات السلطان محمد لبغداد وبدأت بمحاصرتها، وعلى ما يبدو أن التحصينات و الاستعدادات التي شاهدها السلطان محمد جعلته يعتقد أن الحل العسكري لن يكون سهلا، فأظهر للخليفة" أنه عبدالطاعة، وأنه ليس له مقصود بمجيئه إلى بغداد إلا أن يعود عنها... وهو أن يذكر اسمه على المنابر تلو اسم أمير المؤمنين"[٤]. إلا أن الخليفة رفض طلب السلطان كما رفض استقبال رسله، ورد عليهم: "فإنكم لو أردتم الإجمال لقدمتم الإرسال والآن إن استرجعتم ورجعتم ورأى الورى منكم الندم على ما فعلتم، فهنالك نسمع الرسائل، ونقبل الوسائل"[٥]. وبذلك رفض الخليفة تقديم أي تنازل للقوات السلجوقية.

بدأ المقتفي لأمر الله ووزيره ابن هبيرة في معلجة أمر الحصار باتجاهين: الأول، مقاومة الجيش السلجوقي من خلال الاستعدادات التي ذكرناها، وفتح باب التطوع لأهل بغداد، فأثبت فتيانها مقدرة فائقة في التصدي المحاصرين" وكان أمير المؤمنين أمر صبيان بغداد يعبرون إليهم بالمقاليع وزراقات النار فيردون العسكر

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٥١.
(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١١٣.
(3) نفس المصدر، ج١٨، ص١١١.
(4) الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٤٧/ وانظر ابن خلدون، العبر، ج٣، ص١٤١.
(5) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢٣٢/ وانظر، ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص١٣٢- فياض،الخلافة العباسية في عهد السلاجقة، ص١٥٢.

الكثير، ويتلقون النشاب بميازر صوف"[1]. . واستثمر الخليفة في هذا الحصار العيارين، فقد ذكر ابن الجوزي:" وفي ليلة السبت: خرج رجل من العيارين يقال له أبو الحسين العيار، فأخذ معه جماعة من الرجالة والشطار ونزل من السور وكبس طوالع العسكر، ومنهم قوم نيام وانتهبهم ووقعت الصيحة فانهزموا وعاد الرجالة إلى الباب"[2].

ولإدراك الخليفة ووزيره ابن هبيرة أن أمر الحصار قد يطول، قاموا بإجراءات اقتصادية تضمن عدم نفوق أسواق بغداد من السلع والمواد الغذائية، وأظهر ابن هبيرة عبقرية نادرة في هذا المجال يقول ابن الأثير: "وكانت الغلات ببغداد كثيرة لأن الوزير كان يفرقها بالجند عوض الدنانير ليبيعونها فلم تزل الأسعار عندهم رخيصة"[3]. ويضيف العماد الأصفهاني في هذا المعنى: "ولما طال الحصار وتمادى الانتصار، وخاف الخليفة الغلاء، ففتح الاهراء، واقتصر للأجناد في الأعطيات على تفريق التمور بينهم والغلات، وأخذوها واحتاجوا إلى اثمانها في النفقات فرموها في الأسواق، وباعوها في الدينار فخمد بذلك استعار نار الاسعار، وما زاد السعر في الأقوات، ولا على مطعوم في وقت من الأوقات[4].

أما الاتجاه الآخر الذي عمل عليه الخليفة وابن هبيرة لإفشال الحصار فهو الإيقاع بالأمراء المحاصرين لبغداد وزرع عدم الثقة بينهم "وكان الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة يراسل الأمراء السلطانية في السر، وينفذ إليهم التحف والمنح والدنانير ويظهر لهم أن هذه عن العلوفة التي يجب إنفاذها لهم"[5]. وأخذ يذكرهم بوجوب طاعة أمير المؤمنين ويخوفهم معاندته، التي تفضي إلى سخط الله، ويطلب منهم مناصحة السلطان، وعدم المجاهرة بعصيان أمير المؤمنين، والتعرض لبغداد"

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١١٢/ أمين، تاريخ العراق، ص١٥٢.
(2) نفس المصدر، ج١٨، ص١١٧.
(3) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٥١.
(4) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢٣٦/ الزهراني، نفوذ السلاجقة، ص٥٢.
(5) الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٤٨.

دار الخلافة ومقر الأئمة الأطهار من أهل بيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم[1]. ثم أخذ يمنهم إذا ما أقنعوا السلطان بفك الحصار والعودة إلى همذان "وإذا خاطبتموه بخطاب يفضي إلى رحيله عن بغداد في هذه المرة إلى أن يتيقن أمير المؤمنين حسن رأيه في الخدمة.وحينئذ يبلغ مراده، ويسعفه بمطلوبه، حل ذلك عند أمير المؤمنين منكم أحسن محل وعند الله -سبحانه- أو في منزلة"[2].

أثمرت مراسلات ابن هبيرة، بعض النجاح في خلخلة التحالف إذ "وقع الاستشعار بين محمد شاه، وكوجك فخاف كل واحد منهما من صاحبه"[3]. كما وضغط نور الدين زنكي على زين الدين علي كوجك، وعنفه على قتال أمير المؤمنين، "ففتر وأقصر"[4].

كما لعب أعوان الخليفة، وعيونه داخل المعسكر السلطاني، دورا بارزا في منع المحاصرين من اتخاذ خطوة حاسمة باتجاه شن هجوم شامل على بغداد، عندما منوهم بالاتصال بأعوانهم داخل بغداد لفتح أبواب سور المدينة، مما أطال الحصار على المهاجمين، فنفقت المواد الغذائية، ودبت الفوضى في المعسكر السلطاني[5].

وتظهر براعة الوزير ابن هبيرة، وحنكته السياسية مرة أخرى عندما بدأ يعمل على ضرب السلطان محمد في عقر داره، فقد بعث إلى الأتابك شمس الدين ألدكز "وحثه على الحركة مع أحد الملكين، ملكشاه، أو أرسلان شاه إلى همذان"[6]. وكان هذا العمل من قبل الوزير بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، بالنسبة للسلطان محمد والأمراء الذين معه، وعبر السلطان عن خيبة أمله عندما خاطب زين الدين كوجك قائلا: "قد أخذت بلادي، وأقطعت، وأنت أشرت علي بالمجيء

(1) الحسيني، زبدة التواريخ، ٢٤٨.
(2) نفس المصدر، ص٢٤٨.
(3) نفس المصدر، ص٢٤٨.
(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١١٧.
(5) نفس المصدر، ج١٨، ص١١٥/ وانظر، ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٥١-٥٢.
(6) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢٣٣/ وانظر، أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣٠.

إلى بغداد"[1]. فقد استطاع ملكشاه من الاستيلاء على همذان، وقطع خطبة السلطان محمد وإعلان نفسه سلطاناً على السلاجقة[2].

فلم يجد السلطان محمد مناصا من التوجه إلى همذان لإنقاذ عاصمته، بعد حصار لبغداد دام ثلاثة شهور[3].

بعد فشل السلطان محمد لحصار بغداد بدى واضحا، تلاشي الأطماع السلجوقية في العراق، "وعرفت الأعاجم أنه لا مطمع بعدها في بغداد"[4]. ويؤكد ذلك الحسيني أيضاً "وانقطعت بعد ذلك أطماع السلاطين السلجوقية عن بغداد"[5].

كما عبر عامة بغداد عن ذلك، عندما نهبوا دار السلطنة في بغداد "وكان فيها أموالا كثيرة، ونهبوا الأبواب، والأخشاب، وأخذوا الأطيار والغزلان"[6]. ويعد سماح الخليفة لعامة بغداد بنهب وتدمير دار السلطنة ببغداد، إيذانا بنهاية النفوذ السلجوقي في العراق، بتدمير أهم رمز لهم فيها.

بعد أن فك السلطان محمد الحصار عن بغداد وعاد إلى همذان خرج الخليفة يتفقد سور بغداد "ثم ركب يتفقد السور من أوله إلى آخره وعاد من دجلة يتفقده ثم عبر إلى الجانب الغربي، فنظر أثار الخراب، وما أحرق من الدور، ثم عاد منزله مسروراً، وأطلق للفقراء مالا كثيراً"[7].

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١١٧.
(2) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ج١٨، ١١٧.
(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١١٧-١١٨/ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٥١-٥٤/ البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص ٢٣٤/ الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٥٣/ الروانلي، راحة الصدور، ص٢٤٨-٢٨٥/ ابن العبري، تاريخ الزمان، ص١٧٣/ ابن خلدون، العبر، ج٣، ص١٥-١٦.
(4) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢٣٥.
(5) الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٥٣.
(6) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١١٧/ وانظر البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢٣٤.
(7) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١١٨/ وانظر، الذهبي، سير، ج٢، ص٤١٠.

وآخذ بعد ذلك يتفقد مدن العراق وقراه، فتوجه إلى مدينة أوانا[1]. ثم قصر نهر الملك، ورحل بعدها إلى البطائح، ثم عاد إلى بغداد[2]. ثم عاد سنة (٥٥٣هـ/١١٥٨م) وتوجه إلى الأنبار، وعبر الفرات،وزار قبر الحسين بن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- ثم توجه إلى واسط، وتجول في سوقها، ثم عاد إلى بغداد[3].

وبذلك يكون الخليفة المقتفي لأمر الله قد استقل بالعراق، ونجح في إعادة النفوذ الزمني للخلافة، وما جولات الخليفة بنواحي العراق، مدنه وقراه إلا تأكيدا على تفرده في حكم العراق.

وبموت السلطان محمد سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م، ومن قبله السلطان سنجر ٥٥٢هـ/١١٥٧م، يكون الخليفة قد تخلص من أقوى رجلين من رجال السلاجقة في ذلك الوقت[4].

يقول ابن الأثير واصفاً المقتفي لأمر الله: "وهو أول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه من أول الديلم إلى الآن، وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره وأصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المنتصر بالله (٢٤٧-٢٤٨هـ/ ٨٦١- ٨٦٢م) إلى أن يكون المعتضد بالله (٢٨٩-٢٩٧هـ/ ٨٩٢-٩٠١م) "[5].

---

(1) أوانا بلدة من نواحي دجيل بغداد، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ، من جهة تكريت، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٤٥٠.
(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١١٨.
(3) نفس المصدر، ج١٨، ص١٣٤.
(4) نفس المصدر، ج١٨، ص١١٨، ١٣٧.
(5) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٦٨.

عوامل نجاح الخليفة المقتفي لأمر الله في استعادة النفوذ الزمني للخلافة:

تضافرت مجموعة من العوامل التي ساعدت الخليفة المقتفي لأمر الله في التخلص من النفوذ السلجوقي في العراق، وإعادة السلطة الزمنية للخلافة، وكان من أهم هذه العوامل ما يتعلق بشخصية المقتفي لأمر الله، فعدم تسرعه وانتظاره للوقت المناسب في مواجهة السلاجقة، والإفادة من أخطاء سلفيه المسترشد بالله والراشد بالله، كان لها الأثر الكبير في نجاح مشروعه.

إلا أن أهم ما تميز به المقتفي لأمر الله، إدراكه أن المواجهة مع السلاجقة تحتاج إلى نفس طويل، فسخر لها كل الإمكانات والطاقات، التي من شأنها أن تحقق له نجاح مشروعه، فعمل على خمسة محاور رئيسية هي:

تأسيس جيش خاص بالخلافة يدافع عنها ويحمي مكتسباتها، واستثمار أهل بغداد بعدما اثبتوا مقدرة وحماسا كبيرين لسلفيه المسترشد بالله والراشد بالله، وكسب فقهاء وعلماء بغداد لتعبئة الناس، ومنحه الشرعية في قتال السلاجقة، واتخاذ إجراءات اقتصادية تؤمن له التمويل اللازم لصراعه مع السلاجقة، أما آخر هذه المحاور، فهي ضرب السلاجقة بعضهم ببعض، من خلال إذكاء روح التنافس فيما بينهم.

تكوين جيش الخلافة

أيقن الخليفة المقتفي لأمر الله أن هدفه في تحرير الخلافة من الهيمنة السلجوقية، لن يكتب له النجاح، ما دامت الخلافة عاجزة عن الدفاع عن نفسها، وهذا لن يتأتى إلا بتكوين جيش خاص بها، فمنذ دخول البويهيين للعراق، أصبحت جيوشهم هي جيوش الخلافة والمدافعة عنها، وسار السلاجقة على نفس النهج، وأخذوا العهود والمواثيق على الخلفاء بعدم تجنيد الجند[1]. ومع بدء حركة

(1) الفارقي، ص٢٥١/ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣٦٤/ بيات، السياسة السلجوقية في العراق، ص٩٩.

التحرر التي قادها الخليفة المسترشد بالله، بدأ الخلفاء بالعمل على تكوين جيش الخلافة.

وكان العام (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) بداية تشكيل نواة الجيش العباسي، عندما استغل الخليفة المقتفي لأمر الله، التمرد الذي قاده مجموعة من الأمراء السلاجقة، بهدف إسقاط سلطنة السلطان مسعود، وتوجهوا لبغداد لتحقيق هدفهم، وعلى أثر هذه الحصار استطاع الخليفة التخلص من العهد الذي قطعه للسلطان مسعود، بعدم تجنيد الجند، فقد أذن السلطان للمقتفي لأمر الله باتخاذ جميع الإجراءات الكفيلة برد المحاصرين عن بغداد، فما كان من الخليفة إلا أن فتح باب التطوع لأهل بغداد للانخراط بجيش الخلافة "ونودي بلبس العوام السلاح وأن يمنعوا عن أنفسهن وأموالهم"(١). وعلى الرغم من أن هذا الجيش لم يكن نظامياً، إذ جاء نتيجة الظروف التي مرت بها بغداد في تلك السنة، إلا أنها ستكون الخطوة الأولى على طريق بناء الجيش النظامي.

وبموت السلطان مسعود سنة (٥٤٧هـ/ ١١٥٢م)، بدأ الخليفة المقتفي لأمر الله بإعداد الجيش النظامي، فقد "نادى الخليفة أنه من تخلف من الجند ولم يحضر الديوان ليكتب إسمه ويجري على عادته في إقطاعه أبيح دمه وماله"(٢). وتعد سنة (٥٤٧هـ/ ١١٥٢م) البداية الحقيقية في تكوين الجيش العباسي، إذ بدأ بتسجيل الجند في الديوان، لتجري عليهم الاقطاعات، وشكل مماليك الخليفة من الأرمن، واليونان، والأكراد مستثنيا المماليك الأتراك، جل هذا الجيش(٣).

كما استقدم الخليفة بعض العسكريين المحترفين لتدريب عناصر جيشه كالأمير منكوبرس المسترشدي، والذي وصف بقدرته الفائقة على تنظيم الجيوش وخبرته الكبيرة في فنون القتال(٤). وقد أثبت هذا الجيش في أكثر من موقعة مقدرة

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٦٤-٦٤/ البنداري، ص٢٠٤/ فوزي، تاريخ العراق، ص٢٣.
(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٨٤.
(3) البنداري، ص١٢٧/ Bosworth, the Iranian World, p.127
(4) الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٤٥.

فائقة على تحقيق الانتصار تلو الانتصار، سواء كان ذلك في موقعة بكمزا أو حصار بغداد سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٤م، أو تحرير مدن العراق.

وأخذ الخليفة يستعرض هذا الجيش، الذي يلغ أكثر من إثني عشر ألف مقاتل في كثير من المناسبات، ففي سنة (٥٤٩هـ/ ١١٥٤م) "خرج العسكر في عيد الفطر على زي لم ير مثله لاجتماع العساكر وكثرة الأمراء"[١].

دور عامة بغداد في مساندة الخليفة:

قدم عامة بغداد صورا بطولية، في مساندة المقتفي لأمر الله في صراعه مع السلاجقة، وما كان هذا ليتم لولا مقدرة الخليفة في استثمار اندفاع وحماس أهل بغداد وتشجيعهم ضد السلاجقة، فقد عبر موقف أهل بغداد عن مدى ارتباطهم بالخلافة، وفي الوقت ذاته عن مدى استياءهم من السلاجقة.

فقد لاحظنا في أكثر من موقف مساندة أهل بغداد للخليفة من خلال الاستجابة لنداءاته، ففي سنة (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) عندما طلب الخليفة من العامة لبس السلاح للدفاع عن المدينة، لبوا دعوته، فخرج الناس بالعدة التامة[٢]. ويدل حجم الخسارة التي مني بها أهل بغداد، على مقدار حماسهم واندفاعهم في مساندة الخليفة، فقدبلغ عدد القتلى في صفوفهم حوالي خمسمائة انسان[٣].

وبعد فشل الأمراء السلاجقة في حصار بغداد، نادى الخليفة بإصلاحات السور فلبى العوام النداء "وخرج العوام بالدبادب والبوقات، وجاء أهل المحال فعمر وحفر خندقه"[٤]. معبرين عن فرحتهم الغامرة بالانتصار على السلاجقة.

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٩٧.
(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٦٥.
(3) نفس المصدر، ج١٨، ص٦٦/ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٣١٠.
(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٦٦.

وفي حصار سنة (٥٥٢هـ/١١٥٧م) ساهم عامة بغداد في الدفاع عن المدينة عندما "نودي من الديوان بحمل السلاح، فلبس العوام، والتجار، والرؤساء ثياب الحرب"(١). وساهم الصبيان والعيارون والشطار في الدفاع عن بغداد وقدموا صوراً بطولية دلت على عمق ارتباطهم بالخلافة، جاعلين أنفسهم تحت تصرف أمير المؤمنين "وكان أمير المؤمنين، أمر صبيان بغداد، يعبرون إليهم، بالمقاليع وزراقات النار فيردون العسكر ويتلقون النشاب بميازر صوف"(٢).

ويصف العماد الأصفهاني حال السلاجقة عند أهل بغداد بقوله: "وانخرقت مهابتهم عند أهل بغداد فطلبوا بكل نوع عليهم الاستحواذ، فصاروا يكبسونهم في الضياع ويغافصونهم (يفاجئونهم) بالقراع ويقطعون الطرق على علافتهم، ويوجدون السبل إلى تكثير مخافتهم. وكانت الأكلاك -نوع من العبارات- واصلة من الموصل إليهم بالميرة، والأقوات الكثير، فتلقوها في دجلة فأخذوها وعبروا بها عليهم وعجزوا أن ينقذوها، وامتنع أهل الموصل بعد ذلك عن تسيير الأكلاك فما أنفذوها"(٣).

فقهاء وعلماء بغداد ودورهم في مساندة الخليفة

ساند فقهاء وعلماء بغداد الخليفة المقتفي لأمرا الله في صراعه مع السلاجقة،منطلقين أن الخليفة هو رمز وحدة الأمة، والخلافة هي التعبير الشرعي للسلطة الزمنية والدينية في الدولة الإسلامية، كون" الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا"(٤). وظهر في تلك الفترة أو قريب منها عدد من الفقهاء الذين صنفوا المؤلفات، حول الإمامة ووظيفة الإمام، ومن هؤلاء الفقهاء

(1) نفس المصدر، ج١٨، ص١١٦/ فوزي، النهوض العربي، ص١٣٨.
(2) نفس المصدر، ج١٨، ص١١٢، ١١٧.
(3) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢٣٣.
(4) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٣.

القاضي الماوردي (ت٤٥٠هـ/١٠٥٨) الذي صنف كتابا وسمه بالأحكام السلطانية والولايات الدينية، بناء على طلب الخليفة القائم بأمر الله[١].

ويرى الماوردي، أن الإمامة تجمع بين الوظائف الدينية والزمنية، ويرى بتقديم حكم الإمامة "على كل حكم سلطاني"[٢].

وظهر في تلك الفترة أيضا إمام الحرمين أبو المعالي الجويني (ت ٤٧٨هـ/ ١٠٥٨م)، وصنف مجموعة من الكتب أهمها" غياث الأمم في التياث الظلم" وعرف الإمامة في هذا المصنف بأنها:" رياسة تامة وزعامة عامة ، تتعلق بالخاصة والعامة في مهمات الدين والدنيا، متضمنها حفظ الحوزة ورعاية الرعية"[٣].

وجاء الإمام الغزالي أيضا (ت ٥٠٥هـ/١١١١)، وصنف مجموعة من المؤلفات، منها إحياء علوم الدين اشهر كتبه على الإطلاق، والتبر المسبوك في نصيحة الملوك، وفضائح الباطنية، الذي صنفه بناء على طلب الخليفة المستظهر بالله العباسي، وغيرها من المصنفات[٤].

تعامل هؤلاء الفقهاء وغيرهم ممن تصدوا لمسألة الإمامة والسلطنة لواقع الحياة السياسية في الدولة الإسلامية من باب الضرورات تبيح المحظورات جائت نظرياتهم السياسية منسجمة مع الواقع السياسي للدولة الإسلامية، معللين ذلك بالحفاظ على وحدة ألامة وتطبيق الشريعة، وهذا ما جعل الغزالي يبرر تغلب السلاجقة على الخلفاء العباسيين بقوله:"وهي حاصلة لهذه الجهة المقدسة – المستظهر بالله – فالشوكة في عصرنا هذا من أصناف الخلائف للترك. وقد أسعدهم الله – تعالى- بموالاته ومحبته، حتى أنهم يتقربون إلى الله بنصرته..."[٥].

---

(1) نفس المصدر، ص١٢.
(2) نفس المصدر، ص١٣.
(3) الجويني، غياث الامم، ص١٥.
(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص ١٢٦.
(5) الغزالي، فضائح الباطنية، ص١٦٩-١٧٠.

وبذلك يكون الفقهاء قد أجازوا تغلب ذوي الشوكة على الخلافة وهذا ما عرف بالإحكام السلطانية، بأمارة الاستيلاء، ومع أن الماوردي أجازها كون الأمير المتغلب فرض نفسه على الخلافة بقوة السيف، إلا انه عدها خروجا عن عرف التقليد، فالأصل أن يفوض الخليفة سلطاته في الولايات البعيدة عن المركز أو حتى في حاضرة الخلافة، بمحض إرادته، لا بفرض الأمر الواقع، وقد أجاز الماوردي هذا الأمر مستندا على " حفظ القوانين الشرعية وحراسة الأحكام الدينية... فجاز فيه مع الاستيلاء والاضطرار ما امتنع في تقليد الاستكفاء والاختيار"[١].

وينطلق الجويني في جواز إمارة الاستيلاء من الفكرة الرئيسية لدى المادوردي، وهي تغلب صاحب الشوكة على الخلافة" فالاستظهار مع تعذر المناقضة، يتضمن ثبوت الإمامة- السلطنة"[٢].

كانت هذه الأجواء المشحونة بالأفكار، والآراء حول الإمامة، والسلطنة قد ساعدت الخليفة المقتفي لأمر الله على استكمال مشروعه، فبما أن الخليفة هو الذي يفوض للسلطان أو الأمير سلطاته الزمنية، وهذا ما اقره الفقهاء، فللخليفة الحق في استرداد هذه السلطات إذا ما توافرت له القوة التي تكفل له النجاح في ذلك، دون إثارة الفتنة، وهذا ما ركز عليه الفقهاء[٣].

واستنادا إلى ما تقدم ولإدراك الخليفة المقتفي لأمر الله، لأهمية دور الفقهاء والعلماء في مساندته، من خلال منحه الشرعية لقتال السلاجقة، وتعبئة العامة ضدهم أخذ يقرب هؤلاء الفقهاء والعلماء من الخلافة، من خلال عقد مجالس العلم، وحضور الخليفة نفسه لهذه المجالس، وما مظاهر الاحترام التي أظهرها المقتفي لأمر الله لأبي العلاء الحسن بن احمد الهمذاني[٤]، عندما استدعاه من

(1) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٥٦.
(2) الجويني، غياث الأمم، ص٢٣٦.
(3) عن العلاقة بين السلطنة والخلافة في الفكر الإسلامي، انظر، الجالودي، تطور السلطنة، الفصل الرابع، ص١٤٦-١٩٨.
(4) الحسن بن احمد بن الحسن بن العطار الهمذاني توفي سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م. انظر ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٢٠٨-٢٠٩.

همذان سنة(٥٤٦هـ/١١٥١م)، وقام له الخليفة، وأجلسه، وتجاذبا أطراف الحديث، وسأله الدعاء له، ثم أذن الخليفة للفقيه بالعودة إلى همذان[١]، إلا دليلا على احترام وتبجيل العلماء، وحرص الخليفة على كسبهم لجانبه.

كما قرب الوزير ابن هبيرة عددا كبيرا من الفقهاء والعلماء من مختلف المذاهب، وعقد لهم مجالس العلم في داره، وشاركهم في محاورهم في شتى المسائل الفقهية، يقول ابن رجب في هذا الصدد:" ولما ولي الوزير أبو المظفر- ابن هبيرة- رحمه الله- الوزارة بالغ في تقريب خيار الناس من الفقهاء والمحدثين، والصالحين، واجتهد في إكرامهم وإيصال النفع إليهم وارتفع أهل السنة به غاية الارتفاع[٢]

وهناك الكثير من المواقف التي دلت على وقوف ومساندة الفقهاء للخلافة في صراعها مع السلاجق، ففي سنة(٥٤١هـ/١١٤٦م) استجاب خطباء جوامع بغداد ومساجدها لأمر الخليفة بإغلاق الجوامع المساجد، احتجاجا على تجاوزات السلطان مسعود تجاه الخليفة، عندما سجن حاجب باب النوبي، فأغلقت المساجد، وتعطلت الصلوات فيها مدة ثلاثة أيام[٣].

وعندما حاول السلطان مسعود الاعتداء على صلاحيات الخليفة الدينية بتعيين الفقيه يوسف الدمشقي مدرسا في المدرسة النظامية، أمر الخليفة بمنع دخول الدمشقي جامع ودار الخلافة، مما اضطره للامتثال لأمر الخليفة، وعندما تقدم السلطان مسعود لأبي النجيب السهروردي للتدريس بالنظامية، رفض دون إبراز إذن الخليفة بذلك[٤]

ولإدراك الخليفة المقتفي لأمر الله ما للواعظ من دور في إثارة مشاعر الناس، ضد السلاجقة، وبث الحماس فيهم، فقد أوعز سنة(٥٥٢هـ/ ١١٥٧ م)

---

(1) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٢، ص٢٧.
(2) ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، ج١٨، ص٤٩.
(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٤٩.
(4) نفس المصدر، ج١٨، ص٧٧.

بالجلوس لإلقاء مواعظهم على الناس، وكان قبل ذلك منعهم مدة سنة وخمسة اشهر[1].

وعبر الفقيه أبو العلاء الحسن بن احمد الهمذاني عن مدى مساندته للخليفة المقتفي لأمر الله، من خلال إصداره فتوى بحق السلطان محمد عندما حاصر بغداد، يجيز للخليفة فيها قتال السلطان، ويعتبره خارجا مارقا فقد:"صرح القول قائما على المنبر بان السلطان، ومن معه من جنود خارجة مارقة"، ثم أضاف" ولو أن رجلا من عسكر أمير المؤمنين رمى رجلا من أصحاب السلطان بسهم وجاء آخر من غير الفريقين فنزع السهم من جراحه يكون هو أيضا خارجيا باغيا وكرر هذا القول في ذلك مرارا"[2].

إجراءات الخليفة المقتفي لأمر الله الاقتصادية

تولى المقتفي لأمر الله الخلافة وخزائنها خاوية من الأموال، اذ جرد السلطان مسعود الخلافة من كل مظاهر قوتها، ولا أدل على ذلك من رد الخليفة عندما طالبه مسعود بمزيد من الأموال" ما رأينا أعجب من أمرك أنت تعلم أن المسترشد سار إليك بأمواله فجرى ما جرى، وعاد أصحابه عراة، وولي الراشد ففعل ما فعل ثم رحل واخذ ما بقي من الأموال ولم يبق في الدار سوى الأثاث فأخذته جميعه، وتصرفت في دار الضرب ودار الذهب، وأخذت التركات والجوالي[3].

ولإدراك الخليفة ما للمال من أهمية قصوى في نجاح هدفه، فقد اتبع سياسة مالية صارمة، بحيث وصف بأنه كان محبا لجمعه وإدخاره[4].

---

(1) نفس المصدر، ج١٨، ص٤٩.
(2) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٢، ص٢٧.
(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٣٢٠.
(4) زهرا ومطر، عصر المقتفي، ص٨٧ نقلا عن الغساني، العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في أخبار الخلفاء والملوك.

بدأ المقتفي لأمر الله سياسته المالية، بالعمل على توفير دخل ثابت للخلافة، فقد أعاد الاقطاعات التي صادرها شحنة بغداد، كذلك أجور دار الضرب والتركات الحشرية والجوالي، ففي جمادى الأولى من سنة(٥٣١هـ/ ١١٣٦م)، دفع مبلغ عشرة الاف دينار للسلطان مسعود، حتى أعاد له هذه الإقطاعات[1] وأستطاع الخليفة من إعادة الإقتطاعات التي منحها لعماد الدين زنكي بعد موت الأخير ومن هذه الإقتطاعات "صريفين"[2] و "حربي"[3] ودرب هارون وقد بلغت واردات حربي ، على سبيل المثال في إحدى السنوات ثلاثين ألف دينار وهذا مؤشر يبين حجم واردات الاقطاعات التي حصل عليها الخليفة[4].

وبوفاة السلطان مسعود سنة (٥٤٧ هـ/١١٥٢م)، حل الخليفة جميع اقطاعات الأمراء السلاجقة في العراق، وأعاد توزيعها على أمراءه، وزاد هذا الإجراء من موارد الدولة المالية، من خلال الأموال التي يبعثها المقطع لبيت المال[5] .

وجاء اهتمام الخليفة المقتفي لأمر الله بالناحية الزراعية ، كونها الدعامة الأساسية في النشاط الاقتصادي، في ذلك العصر، وبدأ يبدي اهتماما كبيرا بأنظمة الري، وعمل على تحسينها، ففي سنة(٥٥٢هـ/١١٥٧م) وبعد فشل حصار السلطان محمد قام الخليفة بزيارة لأوانا، حيث اشرف على حفر فم الدجيل، احد فروع دجلة، والذي كان يغذي مسلحات زراعية واسعة[6] .

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٣٢٣.

(2) صريفين، قرية كبيرة، كثيرة الشجر، قرب عكبرا، وأوانا على ضفة نهر دجيل/ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٤٠٣.

(3) حربي، بليدة في أقصى دجيل بين بغداد وتكريت/ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٣٧.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٥٥/ ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص٦٩-٧٠.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٢/ البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢١٧/ الحسيني زبدة التواريخ، ص٢٤١-٢٤٢.

(6) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١١٨.

وما زياراته المتكررة لمدن العراق وقراه، وتجوله في الأسواق إلا دليل على اهتمامه الكبير بالناحية الاقتصادية[1].

ومن المؤشرات على مقدرة الخليفة على تنظيم الشؤون الاقتصادية، الإجراءات التي قام بها إثناء حصار بغداد سنة(٥٥٢هـ/١١٥٧م)، من خلال إدخال احتياطي كبير من الموارد الغذائية للمدنية، إلى جانب دفع مرتبات عينية للجند، حتى لا تنعدم السلع داخل بغداد، وذكرنا تفاصيل ذلك إثناء حديثنا عن الحصار.

استغلال الصراع بين السلاجقة

اعتمد الخليفة المقتفي لأمر الله على عامل مهم في صراعة مع السلاجقة وحقق فيه نجاحا كبيرا، إذ استغل حالة الصراع والتنافس بين السلاطين والملوك السلاجقة، ولم يقتصر على ذلك بل ساعد على إذكاء روح التنافس بينهم من خلال تقريبه لبعض الملوك، وضربه للبعض الآخر، فقد اتسم عهد السلطان مسعود بكثرة الاضطرابات نتيجة الحروب التي وقعت بين الملوك السلاحقة للوصول إلى السلطنة، وهذا ما جعل ابن الأثير يصف سلطنة مسعود بقوله:"وصار السلطان معهم أي الأمراء – تحت الحجر"[2]، واستغل الخليفة هذا الصراع محاولا قتل السلطان بالإتفاق مع الأمير عباس.

كما أظهر الخليفة براعته في استغلال حركة الأمراء بقيادة الأتابك الدكز سنة(٥٤٣ هـ/١١٤٨م)، بهدف إسقاط سلطنة مسعود، عندما تخلص من التزاماته للسلطان مسعود بعدم تجنيد الجند[3].

وتظهر حنكة الخليفة السياسية، باستقطابه للملكين سليمان شاه وملكشاه، والزج بهم لضرب منافسه السلطان محمد، بعد أن جهزهم بالعسكر

---

(1) نفس المصدر، ج١٨، ص١٣٤.
(2) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٠.
(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٦٤.

والأموال، وعلى الرغم من فشل خطة السلطان العسكرية، الا انه اظهر مقدرة فائقة في التعامل مع الأحداث بما يخدم هدفه في التحرر الكامل من النفوذ السلجوقي، وإذا لم تكن خطة الخليفة قد نجحت في ذلك الوقت، فقد حقق نجاحا كبيرا سنة(٥٥٢هـ/١١٥٧م)، أثناء محاصرة السلطان محمد لبغداد، إذ اتصل بملكشاه، وحرضه على التوجه إلى همذان عاصمة السلطان، فاضطر على أثرها السلطان محمد، للانسحاب عائدا لانقاد عاصمته[١] .

وفي نهاية هذا الفصل نستطيع القول أن الخليفة المقتفي لأمر الله، أكمل ما بدأه أخوه المسترشد بالله وتفوق عليه، وحقق الانتصار تلو الانتصار على الجيوش السلجوقية حتى استقل بالعراق" من أقصى الكوفة إلى حلوان، ومن ناحية تكريت إلى عبدان"[٢] ليبدأ دور حديد في مسيرة الخلافة العباسية، بدأه الخليفة المستتنجد بالله.

(1) نفس المصدر، ج١٨، ص١١٦.
(2) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢١٥.

الفصل الثالث

محاولات الانفراد بالحكم وبسط نفوذ الخلافة

من سنة (٥٥٥ـ٥٧٥هـ/ ١١٦٠ـ١١٧٩م)

اتسم عهد كل من الخليفتين المستنجد بالله(٥٥٥ – ٥٦٦هـ/١١٦٠ – ١١٧٠م) والمستضيء بأمر الله(٥٦٦– ٥٧٥هـ/ ١١٧٠ – ١١٧٩م) بالهدوء نسبيا، فلم تواجه الخلافة أخطارا حقيقة تعرض سلطتها ونفوذها للخطر، ومرد ذلك للسياسة التي انتهجها سلفهما الخليفة المقتفي لأمر الله، عندما جعل جل اهتمامه في تكوين جيش الخلافة، ليدافع عنها ويحمي مكتسباها، وسيكون منهجنا في بحث هذه الفترة، التعرض لثلاثة محاور رئيسة، نعتقد أنهما مثلت السمات البارزة لهذه الفترة وهي:

أولا: ترتيب أوضاع العراق الداخلية، وبسط نفوذ الخلافة.

ثانيا: التنافس والصراع بين رجال الإدارة العباسية على السلطة، وأثره على نفوذ الخليفة.

ثالثا: علاقات الخلافة بالقوى الإسلامية المحيطة بها.

ترتيب أوضاع العراق الداخلية وبسط نفوذ الخلافة

توفي الخليفة المقتفي لأمر الله في الثاني من ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ /الخامس والعشرين من نيسان سنة ١١٦٠م، وتمت البيعة لابنه أبي المظفر يوسف،ولقب بالمستنجد بالله، وعمره يومئذ سبع وثلاثون سنة[1].

تسلم المستنجد بالله الخلافة بعدما استطاع والده تحرير العراق من النفوذ السلجوقي، وبذلك أصبح الخليفة الجديد يدير العراق – الممتد من الكوفة إلى حلوان، ومن تكريت إلى عبادان– بشكل مباشر من بغداد.

(1) ابن العمراني، الأنباء، ص٢٢٦/ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٣٩/ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٦٨/ الاربلي، خلاصة الذهب، ص٢٧٦/ الدميري، حياة الحيوان، ج١، ص١٤١/ ابن سباط، ص١١١.

استهل الخليفة المستنجد بالله عهده بترتيب أوضاع العراق، بالتخلص من القوى المناوئة للخلافة، وعلى رأسها الأمير ترشك صاحب اللحف[١] ، وكان هذا الأمير مشكوكا في ولائه للخلافة، ففي سنة٥٥٦هـ/ ١١٦١م، تعرضت البندنيجين[٢] لهجوم بعض التركمان، فأوعز الخليفة بتجهيز العسكر، وأرسل للأمير ترشك لتولي قياده هذه الحملة، الا انه رفض التوجه لبغداد، وطلب من الخلافة أن تبعث بالعسكر إليه في اللحف، وقد أثار هذا الرفض غضب الخليفة إلا انه كظم غيظه، وأرسل إليه بالعسكر، ويبدو أن الخليفة أمر بعض أمراء الجيش بالقبض على الأمير ترشك وقتله، وهذا ما تم فعلا، فعندما وصل العسكر لبلد اللحف وقبضوا عليه، وقتلوه وبعثوا برأسه لبغداد[٣] وعلى ما يبدو أن هذا الأمير كان ينوي الخروج عن طاعة الخليفة، وهذا ما أكده ابن الجوزي" لأنهم دعوه فأبى أن يحضر، واضمر الغدر"[٤].

وفي رمضان من العام ذاته، ثار بنو خفاجة في الحلة والكوفة ونهبوا سوادها، وذلك عندما طالبوا برسومهم من الطعام والتمر، وتعبيرا عن غضبهم بدءوا بالاعتداء على قوافل الحجاج، التي كانت تمر من ديارهم، فخرج إليهم الأمير ارغش صاحب الكوفة، وانضم إليه الأمير قيصر شحنة الحلة وطاردوهم حتى رحبة الشام فأرسل بنو خفاجة يعتذرون ويطلبون الصلح إلا أن الأميرين رفضا طلبهم، والتقيا مرة أخرى، وقد انضم لبني خفاجة أعدادا كبيرة من العرب استطاعوا بهم من هزيمة جيش الخلافة، وقتل الأمير قيصر، وأعدادا كبيرة من جند الخلافة، وعلى اثر هذه الهزيمة التي مني بها جيش الخلافة، بدأ الوزير ابن هبيرة بالاستعداد للخروج إليهم، فما كان منهم إلا أن دخلوا إلى البادية ، وأرسلوا

---

(1) لحف، صقع معروف من نواحي بغداد، مما يلي العراق من جهة همذان. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص١٤.

(2) البندنيجين، بلدة مشهورة من طرف النهروان من ناحية الجبل، من أعمل بغداد، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ص٤٩٩.

(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٤٧/ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٧٢.

(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٤٧.

رسلا إلى بغداد يطلبون العفو، فأجيبوا إليه، واستمر بن خفاجة عنصر إزعاج، من فترة إلى أخرى للخلافة العباسية، من خلال اعتداءاتهم المتكررة على قوافل الحجاج [1].

واستطاعت الخلافة سنة(٥٥٧هـ/١١٦٢م) السيطرة على قلعة الماهكي، وكانت قبل ذلك تحت سيطرة سنقر الهمذاني، فسلمها لأحد مماليكه، ومضى إلى همذان ولضعف هذا المملوك وخشيته من التركمان والأكراد المحيطين بها، عرضها على الخليفة المستنجد بالله مقابل خمسة عشر ألف دينار، وبعض الأسلحة والأمتعة، وإقطاعه بعض القرى فوافق الخليفة، وتسلمها منه في السنة المذكورة، و"هذه القلعة لم تزل من أيام المقتدر بالله (٢٩٥- ٣٢٠هـ/٩٠٧- ٩٣٢م) بأيدي التركمان والأكراد إلى الآن"[2].

وفي سنة (٥٥٨هـ/ ١١٦٣م) قرر الخليفة إجلاء بني أسد من الحلة المزيدية عقابا لهم على مساعدتهم للسلطان محمد أثناء حصار بغداد سنة(٥٥٢هـ / ١١٥٧م) إلى جانب كثرة إفسادهم وتعرضهم للقوافل، فأوعز المستنجد بالله للأمير يزدن بن قماج، لقتالهم وإبعادهم عن البلاد، وكان بنو أسد يتحصنون بالبطائح[3] واللوير، وهي منطقة مستنقعات يصعب اختراقها، فطلب الأمير يزدن مساعدة ابن معروف مقدم بني المنتفق، وكان هؤلاء يقطنون البصرة، فحاصروهم وقطعوا عنهم الماء فاضطر بنوا أسد للاستسلام، فقتل منهم يزدن نحو أربعة آلاف رجل،واجبرهم على ترك الحلة، ،فتفرقوا في البلاد،وسلمت بلادهم لابن معروف[4].

---

(1) نفس المصدر، ج١٨، ص١٤٨، ١٥٦، ١٧٦، ٢٢٣، ٢٢٧/ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٨٦/ ابن خلدون، العبر، ج٣، ص١٤٦.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٨٣/ النويري، نهاية الأرب، ج٢٣، ص٢٩٧/ ابن خلدون، ج٣، ص٦٤٦.

(3) البطائح، أرض واسعة بين واسط والبصرة، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٤٥٠.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٨٣/ النويري، نهاية الأرب، ج٢٣، ص٢٩٨/ الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص٥٢/ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤، ص١٨١/ ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٦٤٦.

وباستثناء بعض المحاولات للملوك والأمراء السلاجقة، لإعادة نفوذهم في العراق، وهذا ما سنتناوله في المحور الثالث من هذا الفصل، فإن الخلافة العباسية في عهد الخليفتين المستنجد بالله، والمستضيء بأمر الله، لم تواجه أي خطر حقيقي يهدد نفوذها وسلطتها وهذا الأمر أتاح للخلافة فرصة لإبداء اهتمامها بأهل العراق، الذين عانوا الأمرين نتيجة الصراع المستمر بين الخلافة العباسية والسلاجقة من جهة والسلاجقة فيما بينهم من جهة أخرى، مما كان له ابعد الأثر في تردي الأحوال الاقتصادية، والتي انعكست على العامة من اهل بعداد بشكل مباشر.

وعلى ما يبدو أن الخليفة المستنجد بالله كان يشعر بمدى البؤس الذين كان يعيش به أهل العراق بحكم موقعه كولي للعهد، وهذا ما جعله يسقط الضرائب عن الناس في سائر أنحاء العراق بمجرد وصوله للخلافة،" واسقط الضرائب وما كان ينسب إلى سوق الخيل والجمال والغنم والسمك، والمدبغة والبيع في جميع أعمال العراق"[1].

والمتتبع لخلافة المستنجد بالله يلحظ مدى الانتعاش الاقتصادي الذي بدا يرفل به أهل العراق، ويعطينا هذا الأمر مؤشرا على أن الخليفة المستنجد بالله جعل جل اهتمامه العناية بسياسة البلاد الداخلية، ولإدراكه ما للناحية الأمنية من دور في الانتعاش الاقتصادي نجده يضرب بيد من حديد على كل من تسول له نفسه بالاعتداء على ممتلكات الناس،وحتى يشيع بين العامه أن الدولة لن تتساهل مع المفسدين واللصوص والعيارين، نجده في سنة (٥٥٩هـ/١١٦٣م) وسنة(٥٦٤هـ/١١٨٦م)، يأمر بصلب تسعة من اللصوص، وقد أوعز بأن يصلب كل واحد من هؤلاء اللصوص، في حي من أحياء بغداد المختلفة حتى تتحقق الفائدة من هذا العقاب[2] ولقد كان لهذه السياسة التي انتهجها الخليفة المستنجد بالله، إلى

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٤٧/ وانظر ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٨٢/ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٢٣٣.
(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٦٠، ١٨٢.

جانب زياراته المتكررة لمدن العراق وقراه، اثر واضح في استقرار الحياة الاقتصادية، ولا أدل على ذلك من أشارات المؤرخ المعاصر لهذه الفترة، ابن الجوزي والذي كان يعيش في بغداد آنذاك، فقد أشار في أكثر من موضع إلى تدني معظم أسعار السلع " وفي هذه الأيام(٥٥٦ هـ): رخص السعر فبيع اللحم أربعة أرطال[١] بقيراط[٢]، وكثر البيض فبيع مائة بيضة بقيراط، والعسل كل مَنْ[٣] بطسوج[٤]، والخوخ كل عشرة أرطال بحبة[٥] ونصف"[٦] كما لعبت زيارات الخليفة المستنجد بالله ووزرائه لمدن العراق دورا كبيرا في استقرار الأسعار ورخصها ففي سنة (٥٥٨هـ/١١٦٣م)" خرج الخليفة إلى ناحية الخالص [٧] وتشارف البلد ورخصت المواشي والأسعار رخصا كبيرا"[٨] ويقارن ابن الجوزي بين عهد المسترشد بالله المضطرب، وعهد المستنجد بالله الآمن والمستقر نسبيا بقوله:" ورخصت الأسعار في ربيع الأول – ٥٦١هـ – فحدثني بعض جيراننا أنه اشترى كارة[٩] دقيق باثني عشر قيراطا، قال" واشتريتها في زمن المسترشد باثني عشر دينار"[١٠].

إن الاستقرار الأمني والاقتصادي الذي ساد العراق في ظل خلافة المستنجد بالله، وبصورة أقل منها في عهد المستضيء بأمر الله، بفضل السياسة الداخلية التي انتهجها هذان الخليفتان، انعكست بشكل مباشر على الحياة الاجتماعية في

(1) الرطل البغدادي، يساوي الرطل الشرعي، وهو يساوي ١٣٠ درهماً، أي ٤٠٦,٢٥ غم. هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص٣٥.
(2) القيراط، يساوي ٣,١٢٥ غم. هنتس، المكاييل، ص٤٤.
(3) المن يساوي ٣,٠٢٥غم. هنتس، المكاييل، ص٤٦.
(4) طسوج، وحدة وزن فارسية، تساوي ٤/١ دانج (دانق) حوالي ٠,١٨ غم، هنتس، المكاييل، ص٢٣.
(5) الحبة، وهي وزن حبة الشعير، وهي تساوي تقريباً ٠,٠٥غم، هنتس، المكاييل، ص٢٣.
(6) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٤٨.
(7) الخالص، اسم كورة عظيمة من شرقي بغداد، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ٣٣٩.
(8) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٥٥.
(9) كارة، كانت كارة القمح تساوي في العراق ٢٤٠ رطلاً، أي ٩٧,٥ كغم. هنتس، المكاييل، ص٦٩.
(10) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٧١، ١٨٣.

العراق،فلم يسجل في هذه الفترة صدامات مذهبية ذات بال بين سنة وشيعة بغداد من جهة، والحنابلة والاشاعرة من جهة أخرى، أو بين محال وأحياء بغداد المختلفة، ويؤكد ذلك ابن الجوزي والذي كان على تماس مباشر بعامة بغداد، من خلال إلقاء دروسه ومواعظه في مساجد بغداد ومدارسها المختلفة، إذ دلت بعض ملاحظاته حول هذا الموضوع، أن الأمر لم يخرج عن حدود السيطرة فقد ذكر في حوادث سنة (٥٥٦هـ/١١٦٠م):" وانتشر في هذه الأيام التسنن والرفض حتى خشيت الفتنة"[١] فالأمر لم يصل إلى حد الفتنة، بقدر ما كان مسجلات كلامية بين الطرفين، وحتى لا يتطور الأمر إلى خلافات مذهبية حادة بين أصحاب المذاهب المختلفة، بادر المستنجد بالله ومن بعده المستضيء بأمر الله بوقف دروس الوعظ التي كانت تعقد ببغداد، في أكثر من مرة، أو تنظيمها بحيث يمنع كل من يحاول الإساءة لمذهب من مذاهب، أو التعصب لمذهب ضد آخر[٢].

وفي هذا الإطار منح الخليفة المستضيء بأمر الله صلاحيات واسعة لابن الجوزي، لضرب كل من تسول له نفسه بإثارة مشاعر أهل السنة، بسب الصحابة والانتقاص منهم" فمن سمعتموه من العوام ينتقص بالصحابة، فأخبروني حتى انقض داره، وادخله السجن"[٣].

ومثلت هذه المرحلة اهتماما بالعلماء والفقهاء وما حضور المستنجد بالله، والمستضيء بأمر الله لدروس الوعظ التي كان يلقيها ابن الجوزي، إلا دليل على ذلك[٤].

كما جرت العادة في عهد المستنجد بالله ومن بعده المستضيء بأمر الله، أن تقام دعوة في دار الخلافة يحضرها أرباب الدولة، والعلماء، والفقهاء والصوفية،

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٤/ وانظر، سبط بن الجوزي، مرآة ، ج٨، ق١، ص٢٦٢.
(2) نفس المصدر، ج١٨، ص١٤١، ١٤٨، ١٥٩، ١٩١، ٢٢٢.
(3) نفس المصدر، ج١٨، ص٢٢٢/ الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة ٥٧١هـ ص٦.
(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٢٠٠.

والقراء والوعاظ في شهر رجب من كل عام، وفي نهاية هذه الدعوة كانت تقدم الخلع لجميع المدعوين[1].

واستمر الوزير ابن هبيرة في إتباع سياسة التقرب من العلماء والفقهاء، بعقد مجالس العلم لهم في داره، إلى جانب دعوة الإفطار السنوية التي كان يقيمها هؤلاء العلماء والفقهاء ورجال الصوفية في شهر رمضان[2].

ومن الدلائل على الحركة العلمية النشطة في تلك الفترة،الأعداد الغفيرة التي كانت تحضر دروس ومواعظ ابن الجوزي[3] إلى جانب إنشاء ثلاثة مدارس جديدة في بغداد، والتي منها، المدرسة التي أنشأها الوزير ابن هبيرة، والسيدة بنفشا[4] حظية المستضيء بأمر الله[5].

إن هذا الاستقرار الذي ساد العراق في ظل هذين الخليفتين، مرده اهتمام الخلافة بشؤون العامة، بعد أن تخلصت أو كادت من الخطر السلجوقي على نفوذها، وسلطتها، وبدأت تمارس هذا النفوذ من خلال الاهتمام الواضح في شؤون العراق الداخلة، من اقتصادية واجتماعية وغيرها.

تنافس وصراع رجال الإدارة العباسية وأثره على نفوذ الخلافة

شهدت هذه المرحلة من تاريخ الخلافة العباسية تنافسا مريرا بين رجال الإدارة العباسية تمثلت بالمؤامرات التي كان يحيكها رجال الإدارة، سواء ضد بعضهم البعض للاستئثار بالسلطة أو ضد الخلافة إذا ما تعرضت مصالحهم

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٦٣/ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٢٥١.
(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص ١٤٨.
(3) نفس المصدر، ج١٨، ص٢١٤، ٢١٥، ٢١٨.
(4) بنفشا بنت عبدالله الرومية، مولاة الإمام المستضيء بأمر الله، ماتت سنة (٥٨٩هـ/ ١٢٠١م). ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٥٨/ المنذري، التكملة لوفيات النقلة، ج٢، ص٣٤٤/ ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص١١١-١١٥.
(5) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٤٨، ١٥٣، ٢٢٠/ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٢٤٠، ٣٢٦.

ونفوذهم للخطر من قبل الخليفة، وكان لهذا الأمر دور كبير في تراجع نفوذ الخليفة، أمام قوة بعض رجال الإدارة، بحيث أصبح الخليفة سجين دار الخلافة.

كانت أول هذه المؤامرات محاولة نقل الخلافة، من المقتفي لأمر الله إثناء مرض الخليفة لابنه أبي علي، فقد حاولت حظية المقتفي أم أبي علي نقل الخلافة لولدها بالاتفاق مع بعض الأمراء، بعد ما بذلت لهم الاقطاعات والأموال وتعهدت لهم بقتل ولي العهد المستنجد بالله، عند قدومه لزيارة والده، عن طريق جواريها، الا أن المستنجد كشف مخططها، وألقي القبض عليها وعلى ابنها واعتقلهما، وقام بقتل مجموعة من الجواري ممن تأمرن مع زوجة أبيه على قتله[١].

وبعد أن استقر الأمر للخليفة المستنجد بالله، اقر الوزير ابن هبيرة في الوزارة، وأبو الفرج عضد الدين ابن رئيس الرؤساء أستاذا لدار الخلافة،كما اقر أصحاب الولايات على ولاياتهم[٢].

شهدت الفترة الأولى من خلافة المستنجد بالله استقرارا كبيرا، في إدارة الخلافة، نظرا لوجود الوزير القوي ابن هبيرة على رأس جهازه الإداري، وهذا ما جعل المستنجد بالله يبدي اهتماما ملحوظا بشؤون العراق الداخلية، وما أن شغر منصب الوزارة بموت الوزير ابن هبيرة سنة (٥٦٠هـ/١١٧٠ م)[٣]. حتى بدأت سلسلة من المؤامرات بين رجال الإدارة العباسية، ذهب ضحيتها في نهاية المطاف الخليفة نفسه.

أدى موت الوزير ابن هبيرة ، إلى بروز شخصيتين سيكون لهما دور كبير في تطور الأحداث داخل الإدارة الخلافية، فقد برزت شخصية أمير العسكر قطب

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٣٩/ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٦٩/ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٢١١/ ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٦٤٥.

(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٤٠/ ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٦٤٦.

(3) عن ابن هبيرة، انظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٦٦-١٧٠/ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٦، ص٢٣٠-٢٤٤/الذهبي، سير، ج٢٠، ص٤٢٦-٤٣٢/ الدمياطي، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، ج٢١، ص١٩٧-١٩٨/ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، ج١، ص٢٥١-٢٨٩/ الزهراني، نظام الوزارة، ص١٦٠-١٦٤.

الدين قيمار[1]، وأستاذ الدار عضد الدين أبي الفرج ابن رئيس الرؤساء[2]، ومن الدلائل على قوة هذين الرجلين أن منصب الوزارة بقي شاغرا حتى شهر صفر سنة ٥٦٣هـ/ تشرين ثاني ١١٦٧م، ومن المحتمل أيضا أن الخليفة المستنجد بالله لم يجد الشخصية المناسبة، والقادرة على حفظ توازن القوى بين رجال إدارته، ليحل مكان الوزير القوي ابن هبيرة، ولتحد من سيطرة وتحكم ابن رئيس الرؤساء، فبعد موت ابن هبيرة ناب في الوزارة قاضي القضاة أبو البركات جعفر بن عبد الواحد الثقفي[3] .إلى أن وجد الخليفة ضالته بناظر واسط شرف الدين أبي جعفر احمد بن البلدي[4]، وكان اختيار الخليفة لابن البلدي لتولي منصب الوزارة اختيارا موفقا، فقد أظهر ابن البلدي مقدرة وكفاية فائقتين أثناء إدارته لواسط، يقول ابن الطقطقي في هذا الصدد:" كان أي ابن البلدي ناظراً بواسط فأبان في مدة ولايته عليها عن قوة وجلادة وارتفاعات نامية، وحلوم دارة، فعظمت منزلته عند المستنجد، وكوتب عن الخليفة إلى واسط بما يقتضي أن يكون وزيره"[5].

أضف إلى ذلك أن الخليفة آثر اختيار رجل من خارج إدارته في بغداد حتى لا يكون منحازا لأحد الأطرف داخل الإدارة العباسية، إنما أراده لضرب التكتلات داخل إدارته، وهذا ما ذهب إليه ابن الأثير بقوله:" وكان عضد الدين أبو الفرج بن رئيس الرؤساء قد تحكم تحكما عظيما، فتقدم إلى ابن البلدي بكف يده وأيدي أهله[6]، ويتضح من هذا النص أن ابن رئيس الرؤساء كان أقوى رجالات الإدارة الخلافية، ويبدو انه ومن خلال موقعه أخذ بتنصيب أقاربه في مواقع مهمة داخل إدارة الدولة،فجاء ابن البلدي للحد من نفوذه، هذا إذا ما علمنا أن هاتين

---

(1) قيماز بن عبدالله، من مماليك المستنجد بالله، أصبح قائدا لعسكر المستنجد بالله، والمستضيء بأمر الله مات سنة ٥٧٠هـ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ٢١٧.

(2) هو محمد بن عبدالله، قتل على أيدي الباطنية، وهو في طريقه للحج سنة ٥٧٣هـ/ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨ ق١، ص٣٤٦-٣٥٠.

(3) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص٢٣٦.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٩٨/ ابن الطقطقي، الفخري، ص٢١٧.

(5) ابن الطقطقي، الفخري، ص٢١٧.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٩٨.

الشخصيتين لم تكونا على وفاق" وكان عضد الدين أبو الفرج محمد ابن رئيس الرؤساء أستاذ الدار بينه وبين ابن البلدي كدر"[1] . وهذا الأمر يظهر مرة أخرى حنكة المستنجد بالله في اختيار ابن البلدي .

استقر ابن البلدي في وزارة الخليفة المستنجد بالله في صفر من سنة ٥٦٣هـ/ تشرين ثاني ١١٦٧م، ولقبه الخليفة بشرف الدين جلال الإسلام معز الدولة سيد الوزراء صدر الشرق والغرب[2] .

أظهر الوزير الجديد مقدرة فائقة في إدارة الدولة، والحد من نفوذ أستاذ الدار، وسائر المتنفذين في الإدارة الخلافية، كما حد من سوء الإدارة المالية التي كانت تعاني منها دواوين الدولة، جراء توليه أستاذ الدار لأقاربه في الوظائف المهمة،" فتقدم الخليفة إلى ابن البلدي بكف يده – أي أستاذ الدار – وأيدي أهله وأصحابه ففعل ذلك ووكل بتاج الدين أخي أستاذ الدار وطالبه بحساب نهر الملك لأنه كان يتولاه من أيام المقتفي لأمر الله، وكذلك فعل بغيره فحصل بذلك أموالا جمة، وخافه أستاذ الدار على نفسه فحمل مالا كثيرا"[3] . وفي سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م قبض الوزير على ابني عم أستاذ الدار وقطع يد ورجل احدهما، وكان عاملا على البيمارستان، كونه حصل أموالا لنفسه من أموال البيمارستان[4] .

كما حد الوزير من نفوذ أمير العسكر قطب الدين قيماز، عندما ألقى القبض في رمضان من سنة ٥٦٤هـ/حزيران سنة ١١٦٨م على الأميرين يزدن[5] وتتامش [6] ، وسلمهما إلى قيماز، ثم ضيق على الأخير عندما غرمه ثلاثين ألف

(1) ابن الطقطقي، الفخري، ص٢١٧.
(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٦٧/ ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص٢٣٦/ الذهبي، تاريخ الإسلام، حوداث، سنة ٥٦٣، ص١١/ ابن كثير، البداية والنهاية، م٦، ج١٢، ص٢٧٢.
(3) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٩٨.
(4) نفس المصدر، ج٩، ص١٠٤.
(5) هو يزدن التركي، كان من كبار الأمراء في خلافة المستنجد بالله والمستضيء بأمر الله، مات سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٢٠١.
(6) هو علاء الدين منصور تتامش بن قماج، من أمراء المستنجد بالله.مات سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م. الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٢، ص١٠١٠.

دينار" جمع فيها – قيماز– مراكبة وانية داره، وانكسر كسرة عظيمة"[1] وبذلك اثبت ابن البلدي مقدرة في الحد من نفوذ رجال الإدارة الخلافية، وعلى رأسهم أستاذ الدار ابن رئيس الرؤساء، وأمير العسكر قطب الدين قيماز، من خلال تجريدهم من مظاهر قوتهم، بتغريمهم الأموال، وضرب أتباعهم، وإبعادهم عنهم.

برغم هذه الإجراءات التي قام بها الوزير ابن البلدي، ضد أستاذ الدار، وأمير العسكر للحد من نفوذهما، إلا أنهما بقيا يتمتعا بنفوذ كبير داخل الإدارة، واخذوا يتحينون الفرص للتخلص من الوزير ابن البلدي، والذي تمتع بمساندة مطلقة من الخليفة المستنجد بالله[2]. وهذا ما جعل أستاذ الدار وأمير العسكر يفكران في التخلص من الخليفة نفسه، عندما شعرا بأنه يعد العدة مع وزيره للتخلص منهما، ففي سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م، مرض الخليفة مرضا شديدا، ويورد غير واحد أن الخليفة قرر التخلص من أمير عسكره قيماز وأستاذ الدار ابن رئيس الرؤساء، فكتب لوزيره ابن البلدي، يأمره بقتلهما ، وبعث بهذا الأمر مع طبيبه أبي غالب بن صفيه[3] الذي كان يعالجه أثناء مرضه وعندما علم الطبيب بفحوى الرسالة، بعث بها إلى أمير العسكر قيماز، فقام الأخير بإطلاع أستاذ الدار، والأميرين يزدن وتتامش على الأمر، وقررا على أثرها التخلص من الخليفة، واستشارا الطبيب ابن صفية،الذي أشار عليهما بأن يدخلاه للحمام، لعلمه أن هذا الأمر سيعجل بموته:" فدخل قطب الدين وبعض الجماعة وقالوا: يا مولانا الحكيم قد أشار بالحمام، فقال قد رأينا أن نؤخره، فغلبوا على رأيه، وادخلوه لحمام

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٨٣.
(2) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، م٤، ج١، ص١١٠.
(3) ومن الدلائل على اشتراك ابن صفية في مؤامرة قتل المستنجد بالله، قيام الخليفة المستضيء بأمر الله بقتل هذا الطبيب، انظر، عن أبي صفية وتفاصيل مقتل المستنجد بالله، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٦٥-١٦٦.

وقد كان أوقد عليه أي أوقدوا النار في الحمام قبل دخول الخليفة لتزداد حرارته- وردوا عليه باب الحمام ساعة فمات"[1].

ويذكر ابن الأثير،أن الوزير ابن البلدي كان متحفزا أثناء مرض المستنجد بالله، فقد"ركب الوزير ومعه الأمراء والأجناد وغيرهما بالعدد والأجناد وغيرهما فلم يتحقق عنده خبر موته، فأرسل إليه عضد الدين- ابن رئيس الرؤساء- يقول: أن أمير المؤمنين قد خف ما به من المرض وأقبلت العافية عليه فخاف الوزير أن يدخل بالجند فربما أنكر عليه ذلك فعاد إلى داره، وتفرق الناس عنه، وان عضد الدين وقطب الدين- قيماز- قد استعدا للهرب لما ركب الوزير خوفا منه أن يدخل الدار، ويأخذهما، فلما عاد - ابن البلدي- أغلق أستاذ الدار أبواب الدار، وأظهر وفاة المستنجد، واحضر هو وقطب الدين ابنه أبا محمد الحسن وبايعاه بالخلافة،ولقباه المستضيء بأمر الله، وشرطا عليه شروطا، أن يكون عضد الدين وزيرا، وابنه كمال الدين أستاذ الدار، وقطب الدين أمير العسكر فأجابهم إلى ذلك[2] . وتم بعد ذلك استدعاء الوزير ابن البلدي لمبايعة الخليفة الجديد فلما حضر قبض عليه ابن رئيس الرؤساء وقام بقتله[3]. وبذلك يكون أستاذ الدار ابن رئيس الرؤساء وأمير العسكر قطب الدين قيماز قد استأثرا بالسلطة دون غيرهم، بحيث أضحى الخليفة الجديد لا ينفذ أمرا إلا بعلمهما، وهذا ما جعل ابن الجوزي يصف حال الخليفة المستضيء بأمر الله بقوله:" واحتجب الخليفة عن أكثر الناس فلم يركب إلا مع الخدم، ولم يدخل إليه غير قيماز[4].

---

(1) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٦٥-٢٦٦/ وانظر، ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٠٨/ ابن الطقطقي، الفخري، ص٢١٦/ ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص١٩٤/ ابن العبري، تاريخ الزمان، ص١٨٦/ ابن الفرات، م٤، ج١، ص١١٨/ ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٦٤٨.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٠٨-١٠٩.

(3) نفس المصدر، ج٩، ص١٠٩/ ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص٢٣٧/ ابن الدبيثي، المختصر المحتاج إليه، "المستدرك"، ج١، ص٤٠.

(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٩٢.

وسرعان ما دب الخلاف بين حلفاء الأمس، فقد استأثر الأمير قطب الدين قيماز- والذي يسيطر عل القوة العسكرية في بغداد- بالسلطة بحيث أصبحت زمام الأمور بيد وحده دون الخليفة، وعلى ما يبدو أن هذا الأمر أثار الوزير ابن رئيس الرؤساء، ليبدأ الصراع حول نفوذ كل منهما، ولكن سرعان ما حسم الأمير قيماز الأمر لصالحه، عندما ضغط على الخليفة،واجبره على عزل الوزير، وابنه أستاذ الدار وذلك سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، ونهبت داراهما،وبذلك يكون الأمير قيماز قد احكم سيطرته على الخلافة[١] .

ويرى الحياري[٢] أن عزل الوزير ابن رئيس الرؤساء جاء نتيجة تسرع هذا الوزير بإرسال تقليد لصلاح الدين الأيوبي يعطيه الصفة الشرعية بحكم: بلاد مصر وأعمالها، والصعيد الأعلى، والإسكندرية، وما يفتحه من بلاد الغرب والساحل وبلاد اليمن.."[٣]، على اعتبار ان في هذا التقليد تخطيا لقائد صلاح الدين، نور الدين محمود، مما أثار غضب الخليفة، فجاء عزله نتيجة هذه الحادثة، التي انقسم بها رجال الإدارة العباسية،كما يرى الحياري إلى فريقين، فريق مؤيد لاستقلال صلاح الدين في مصر، وأخر مؤيد لنور الدين[٤] . ويرى الباحث أن الأمر قد لا يتعدى عن كونه صراعا على النفوذ بين قطبي الإدارة الخلافية، الوزير، وأمير العسكر،فقد ذكر ابن الأثير:" وفيها- سنة٥٦٧هـ- عزل الخليفة المستضيء بالله وزيره عضد الدين ابا الفرج ابن رئيس الرؤساء لأن قطب الدين قيماز الزمه بعزله فلم يمكنه مخالفته"[٥] واستنادا لذلك، نقول بأن عزل الخليفة لوزيره ابن رئيس الرؤساء جاء تحت ضغط أمير عسكره والمتنفذ في خلافته قطب الدين

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١١٤/ وانظر، ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٩٧/ الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث سنة ٥٦٧، ص٣٣.
(2) الحياري، صلاح الدين القائد وعصره، ص١٥٧.
(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص١٥١.
(4) الحياري، صلاح الدين، ص١٥٧.
(5) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١١٤.

قيماز،ويؤكد ما ذهبنا إليه أن الخليفة أعاد ابن رئيس الرؤساء إلى وزارته بعدما تخلص من قيماز مباشرة[1].

كان أهم نتيجة للتطورات التي حدثت داخل الإدارة الخلافية تمكن الأمير قطب الدين قيماز من الدوله، بحيث أصبح الآمر الناهي فيها كما استقر مكان ابن رئيس الرؤساء، أبو الفضل يحي بن جعفر[2] صاحب المخزن وأصبح نائبا في الوزارة[3] وعماد الدين صندل[4] المقتفوي في استاذية الدار[5].

وعلى ما يبدوان الخليفة حاول إعادة ابن رئيس الرؤساء للوزارة حتى يعيد توازن القوى داخل إدارته، بعدما تحكم الأمير قيماز بالخلافة، ففي سنة(٥٧٠هـ/ ١١٧٤م) خرج أمر الخليفةلأستاذ الدار، بإعادة عضد الدين ابن رئيس الرؤساء للوزارة، إلا أن الأمير قيماز عارض أمر الخليفة، وقام بعدة إجراءات، دلت على قوة نفوذه وسطوته داخل الدولة، "فبلغ هذا الخبر قيماز فغضب من ذلك، وأغلق باب النوبي، وباب العامة، وقال لا أقيم ببغداد حتى يخرج منها هو وأولاده- أي ابن رئيس الرؤساء- وان هذا عدوي، ومتى عاد إلى الوزارة قتلني[6] "، واستمر قيماز محاصراً لدار الخلافة، وأصر على تنفيذ مطالبه، ، وهي عدم رجوع ابن رئيس الرؤساء إلى الوزارة،وخروجه وأولاده من بغداد، وبعد المفاوضات تنازل قيماز ووافق على خروج ابن رئيس الرؤساء إلى الجانب الغربي من بغداد[7]. وبعد هذه المواجهة" دخل قيماز إلى الخليفة معتذرا، عما فعل من غلق الأبواب وغير

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٢١٥/ الحياري، صلاح الدين، ص١٥٧-١٥٨.

(2) هو أبو الفضل يحيى بن جعفر، شغل منصب صاحب المخزن في أيام المقتفي لأمر الله والمستنجد بالله، والمستضيء بأمر الله، مات سنة (٥٧٠هـ/ ١١٧٤م). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٢١٧/ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٣٣٦.

(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٩٧.

(4) صندل المقتفوي، من مماليك الخليفة المقتفي لأمر الله، ولاه الخليفة المستضيء بأمر الله استاذية دار الخلافة، ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٢٢.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١١٢.

(6) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص ٢١٢.

(7) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٢١٢-٢١٣/ الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة ٥٧٠، ص٦٠.

ذلك، وهو منزعج خائف، فقيل انه لم يذكر له في ذلك شيء فخرج طيب النفس"[1].

ويدل سكوت الخليفة على أفعال قيماز، على ما وصلت إليه قوة هذا الأمير، بحيث حاصر دار الخلافة، وأبطل قرار الخليفة بتعيين أبي الفرج ابن رئيس الرؤساء في منصب الوزارة،وما سكوت الخليفة هذا إلا سكوت المضطر والمغلوب على أمره.

أخذ قيماز وأتباعه يتصرفون بشؤون الدولة بما يخدم مصالحهم دون النظر لمصلحة الدولة،وبدت منهم أفعال دلت على ظلمهم للناس وتحكمهم بالخليفة، ففي شوال من سنة ٥٧٠هـ / نيسان ١١٧٤م قام الأمير تتامش صهر قيماز بتسيير عسكر لبلد الغراف[2]، فنهبوها وقتلوا عددا من أهلها" فجاء منهم جماعة- أي أهل الغراف – إلى بغداد، واستغاثوا فلم يغاثوا لضعف الخليفة مع قيماز وتتامش وتحكمهما عليه، فقصدوا جامع القصر، واستغاثوا فيه، ومنعوا الخطيب وفاتت الصلاة على أكثر الناس، فأنكر الخليفة ما جرى،فلم يلتفت قطب الدين وتتامش إلى ما فعل واحتقروه"[3] وعلى ما يبدو أن صاحب المخزن ظهير الدين ابن العطار[4]، ساند الخليفة في هذه الحادثة " فلما كان الخامس من ذي القعدة -٥٧٠- قصد قطب الدين قيماز أذى ظهير الدين ابن العطار صاحب المخزن، وهو خاص الخليفة، وله به عناية تامة فلم يراع الخليفة في صاحبه فأرسل – أي قيمار- إليه يستدعيه ليحضر عنده فهرب، فأحرق قطب الدين داره،وحلف الأمراء على

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٢١٣.
(2) الغراف، نهر كبير تحت واسط بينها وبين البصرة، وعلى هذا النهر كورة فيها قرى كثيرة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص١٩٠.
(3) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٣٤/ الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة ٥٧٠، ص٦١/ الحياري، صلاح الدين، ص١٥٨.
(4) ظهير الدين منصور بن نصر بن العطار، تولى المخزن وناب في الوزارة في عهد الخليفة المستضيء بأمر الله، مات سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٣٥٨-٣٦٠.

المساعدة والمظاهرة له وجمعهم وقصدوا دار الخليفة لعلمه أن ابن العطار فيها"[1] وأخذ مرة أخرى بحصار دار الخلافة،فلم يجد الخليفة إلا أهل بغداد للاستغاثة بهم، مستغلا حالة الفوضى في المدينة بحضور أهل الغراف، ونقمة الناس على قيماز" فلما علم الخليفة ذلك- حصار قيماز لدار الخلافة- ورأى الغلبة صعد إلى سطح داره،وظهر للعامة، وأمر خادما فصاح، واستغاث، وقال للعامة: مال قطب الدين لكم ودمه لي، فقصد الخلق دار قطب الدين للنهب فلم يمكنه المقام لضيق الشوارع،وغلبة العامة فهرب من داره من باب فتحة بظهرها لكثرة الخلق على بابه، وخرج من بغداد، ونهبت داره، واخذ منها من الأموال ما لا يعد ولا يحصى"[2].

وبعد أن تخلص الخليفة من قيماز في ذي القعدة من سنة ٥٧٠هـ أيار ١١٧٤م، خلع الخليفة على ابن رئيس الرؤساء خلع الوزارة، فبادر الوزير الجديد بدعوة الفقهاء، واستفتاهم في " حق قيماز وما يجب عليه من مخالفته أمير المؤمنين فكتب الفقهاء كلهم أنه مارق"[3].

وبذلك استطاع الخليفة المستضيء بأمر الله التخلص من هذا الأمير، الذين تحكم بالخلافة،وسخر كل إمكانياتها لخدمة أغراضه الخاصة، وبعدما سلب الخليفة كامل صلاحياته الزمنية، وبهروب قيماز من بغداد وموته وهو في طريقه إلى الشام[4]. اخذ الخليفة بممارسة صلاحياته بشكل مباشر، من خلال الخروج المتكرر في مختلف المناسبات، كحضور دروس الوعظ التي كان يقيمها الفقهاء، كابن الجوزي، أو دعوة فقهاء وعلماء بغداد، وجميع أرباب الدولة، لدار الخلافة

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٣٤.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٣٤/ وانظر، ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٢١٥/ ابن العبري، تاريخ الزمان، ص١٩١/ ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٢، ص٦٨/ ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٦٥١.

(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص ٢١٥.

(4) نفس المصدر، ج١٨، ص٢١٥/ ابن الوردي، ج٢، ص٢١٢/ النويري، نهاية الأرب، ج٢٣، ص٣٠٤.

لحضور دعوة الخليفة التي كان يقيمها في رجب من كل عام والتي انقطعت بسبب تحكم قيماز على الخليفة(1).

وفي إطار الصراع وتصفية الحسابات داخل الإدارة الخلافية، تم اغتيال الوزير عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء، في الرابع من ذي القعدة سنة ٥٧٣هـ/ الرابع والعشرين من نيسان سنة ١١٧٧م، على يد ثلاثة من الباطنية، بباب قطفتا، وهو في طريقه للحج(2).

وتعددت الروايات في مقتل الوزير ابن رئيس الرؤساء، فقد ذكر سبط ابن الجوزي، روايتين في هذا الصدد: الأولى، تواطأ الأمير تتامش مع الإسماعيلية لقتل الوزير، على خلفية الصراع في النوبة الأولى مع قطب الدين قيماز، ويذكر السبط أن الأمير تتامش كان يعد لقتل الخليفة نفسه "وكان -أي تتامش- قد كتب إلى الخليفة مرارا يعرضه للفرجة على الحاج، ويقول: أن هذا شعار الإسلام، ولو خرج أمير المؤمنين لاشتدت قلوب الحاج، فلما قتل الوزير خيف أن يكون أراد الخليفة"(3). وعلى أثر مقتل الوزير تم القبض على الأمير تتامش ونهبت داره(4).

أما الرواية الأخرى، فيرويها السبط عن والده، ومفادها أن ابن العطار، صاحب المخزن، هو الذي وضع الاسماعيلية لقتل الوزير "قال -أي والد السبط- كنت جالسا عند ابن العطار صاحب المخزن في ذلك اليوم -الذي قتل فيه الوزير- فجعل يقول يا حسام الدين إلى أين بلغ الساعة -أي موكب الوزير- وهو قلق يقوم ويقعد فلما جاء الخبر بقتله قام صائحا وقال: الله اكبر يا ثارات

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص ٢١٩، ٢٢٢، ٢٢٨.
(2) نفس المصدر، ج١٨، ص٢٤٠/ العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج٣، ص٨٦-٨٨/ أبو شامة، الروضتين، ج١، ص٢٧٨/ ابن الوردي، ج٢، ص١٣٦.
(3) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٣٤٨.
(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص ٢٤١.

الطبر[1]، يا ثارات عز الدين[2] يعني ابني الوزير ابن هبيرة فإنهما قتلا في أيام ابن رئيس الرؤساء، قال أبي: ومضيت مع صاحب المخزن إلى عزاء ابن رئيس الرؤساء فعزاهم وجعل يقول: قتل الله من قتل أباكم شر قتله، ومثل به أقبح مثله، فكان كما قال، قتل ابن العطار شر قتله، وقبح به أقبح تمثيل"[3]، ويبدو أن الرواية التي ذكرها السبط عن والده، وهو معاصراً للأحداث أقرب إلى الصحة، والسبط نفسه يرجح هذه الرواية على غيرها من الروايات، عندما يقول: "وقال آخرون إنما وضع الإسماعيلية عليه ابن العطار، صاحب المخزن وهو الظاهر"[4].

وهذا ما ذهب إليه الموفق البغدادي "صح عندي بعد سنين كثيرة أن ابن العطار الذي دس الحشيشية على الوزير عضد الدين حتى قتلوه"[5].

ويبدو أن الخلافات بين الوزير ابن رئيس الرؤساء، وصاحب المخزن ابن العطار، جاءت على خلفية الصراع على السلطة، فقد ناب ابن العطار في الوزارة بعد مقتل الوزير، وتتضح مكانة ابن العطار داخل الإدارة الخلافية، وقوة نفوذه فيها فيما ذكره ابن الجوزي أن أرباب وأعيان الدولة لم يحضروا عزاء الوزير المقتول لأن ابن العطار "كان يفارقه" وعندما وصل الأمر للخليفة "تقدم إلى أرباب الدولة، ومن جرت عادته بالحضور، فحضر في اليوم الثالث صاحب الديوان وقاضي القضاة والنقيب وغيرهم"[6].

(1) لعله لمقصود هنا "مطر وهو شرف الدين مطر بن هبيرة، فقد قبض عليه في السنة التي مات فيها والده، ٥٦٠هـ وكان ابن رئيس الرؤساء في تلك الفترة أستاذا لدار الخلافة.سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٢٦٢.

(2) هو، عز الدين ابن الوزير ابن هبيرة، فقبض عليه وأدع السجن عندما مات والده، ولم يخرج من السجن عندما أفرج على المسلجين، فعرف أنه مات، ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق١، ص٣٤٣.

(3) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٣٤٨-٣٤٩.

(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٣٤٨.

(5) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٥٧٥هـ ص٣٠٦.

(6) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص ٢٤١/ العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج٣، ص٨٨.

وفي ختام بحث هذا المحور، نجد الخلافة العباسية تعرضت في هذه الفترة إلى قوى جديدة، قديمة حاولت سلب الخلفاء سلطاتهم الزمنية، ونجحت في كثير من الأحيان بذلك، وتمثلت هذه القوى برجال الإدارة، ونقصد هنا بالقوى الجديدة، أن الخلافة لم تعتاد في مثل هذه الفترة على الأقل، أن تصارع رجال إدارتها على النفوذ، فمنذ عهد الخليفة القائم بأمر الله كان رجال الإدارة سندا للخلفاء في صراعهم مع القوى المتغلبة على الخلافة، وما أن استطاعت أن تتخلص من هذه القوى في عهد المقتفي لأمر الله حتى برز الصراع على النفوذ داخل الإدارة الخلافية، وكانت من الحدة بحيث ذهب ضحيتها الخليفة المستنجد بالله. أما ما قصدناه بالقديمة، أن هذه القوى ونقصد هنا رجال الإدارة كانت دائما على علاقة جدلية مع الخلافة –منذ حادثة أبي سلمة الخلال[1]– فإذا ما كان الخليفة قادرا على ضبط رجال إدارته، أصبحت هذه الإدارة منسجمة مع سياساته، والعكس صحيح، إذا ما جاء خليفة ضعيف، فإن ضعفه هذا يفتح الباب على مصراعيه للصراع بين هذه القوى، ويصبح الخليفة نفسه أداة يحركها الجانب الأقوى في هذا الصراع، داخل الإدارة، وهذا ما حدث للخليفة المستضيء بأمر الله، فبروز رجال أقويا ومتسلطين داخل إدارته كابن رئيس الرؤساء، وقيماز واشتداد الصراع فيما بينهما، كان تعبيرا واضحا لتراجع دور الخليفة في أداء مهامه كراس لجهازه الإداري، وكانت النتيجة الطبيعية إذا ما حسم احد الأطراف هذا الصراع لصالحه، أن ينعكس على سلطات الخليفة، وهذا ما حدث فعلا، عندما حسم قيماز الصراع لصالحه، حجر على الخليفة،واخذ يتصرف بشؤون الدولة بما ينسجم ومصلحة" محتقرا" الخليفة، على حد تعبير ابن الأثير[٢].

وعندما حاول الخليفة إعادة توازن القوى داخل إدارته بإعادة ابن رئيس الرؤساء للوزارة، لكبح جماح الأمير قيماز وأتباعه، وفشله في ذلك، لجأ لأداة أخرى،

---

(1) أقصد هنا محاولة نقل الخلافة للعلويين عن طريق أبي سلمة الخلال في عهد أبي العباس السفاح، وقيام الأخير بقتله.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٣٤.

طالما كان موقفها إلى جانب الخلافة، فزج بعامة بغداد في هذا الصراع والذين استطاعوا أن يحسموه لصلاح الخليفة.

علاقة الخلافة العباسية بالقوى الإسلامية المحيطة بها

بموت الخليفة المقتفي لأمر الله يكون العراق بنطاقه الضيق على حد تعبير ابن خلدون،والممتد ما بين الموصل واوسط،والبصرة وحلوان،يدار من قبل الخليفة العباسي بشكل مباشر[1] وأصبحت الخلافة في هذه الفترة بمنأى عن أي خطر حقيقي يهدد سلطتها والمناطق التابعة لها، اللهم إلا من بعض الملوك والأمراء السلاجقة الذين حاولا إعادة العراق إلى دائرة نفوذهم، ولكنها لم تكن محاولا جدية، ولم تشكل خطرا حقيقيا على الخلافة العباسية، كما سنرى.

ومثّل العام(٥٦٧هـ/١١٧١م) مرحلة حاسمة في مسيرة الخلافة العباسية اذ استطاع الملك العادل نور الدين محمود زنكي (٥٤١-٥٦٩هـ/ ١١٤٦-١١٧٣م) عن طريق قائده صلاح الدين الأيوبي (٥٦٤-٥٨٩هـ/ ١١٦٨-١١٩٣م) من إسقاط الخلافة الفاطمية في مصر، الخصم التقليدي للخلافة العباسية، وبذلك أصبح غالبية العالم الإسلامي أذاك يدينون بالولاء الديني للخليفة العباسي في بغداد،كما عادت وحدة الأمة الدينية ممثلة بشخص الخليفة العباسي السني الذي أصبح صاحب الحق الوحيد في منح الشرعية للولاة في حكم البلاد التابعة لكل سلطان أو ملك أو أمير، ومثّل سقوط الخلافة الفاطمية، مرحلة مهمة في إعادة بناء العالم الإسلامي مذهبيا[2]، وجهاديا بظهور القائد الفذ الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، الذي

---

(1) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٦٤٥.

(2) المقصود هنا حركةالإحياء السني التي بدأها الوزير السلجوقي نظام الملك، ثم من بعده نور الدين، ثم صلاح الدين، من خلال بناء المدارس في خراسان والعراق وبلاد الشام، ومصر، لنشر المذهب السني، فقد ذكر المقريزي، أن صلاح الدين الأيوبي، كان أول من بنى مدرسة في مصر، وهي المدرسة الناصرية، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٣١٩، وعن المدارس التي بنيت في العهدين الزنكي والأيوبي، انظر النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، شيساني مدارس دمشق في العصر الأيوبي/ مقابلة، المؤسسات الاجتماعية والثقافية في بلاد الشام.

أخذ بتوحيد الجبهة الإسلامية –مصر وبلاد الشام– مستندا على الشرعية التي منحتها إياه الخلافة العباسية للتصدي للخطر الفرنجي في مناطق جنوب بلاد الشام والساحل الشامي.

الخلافة العباسية والسلاجقة:

بعد فشل السلطان محمد بن محمود بن ملكشاه لحصار بغداد، وتخلص الخلافة العباسية من السيطرة السلجوقية عاد السلطان محمد إلى همذان وما لبث أن مات فيها بداء السل سنة (٥٥٤هـ/ ١١٥٩م) [(١)]. وبموت السلطان محمد دب النزاع بين الملوك والأمراء السلاجقة فيمن يخلفه في السلطنة، فطائفة إنحازت لملك شاه أخي السلطان محمد، وطائفة أخرى انحازت لعمه سليمان شاه، أما الطائفة الثالثة أرادت تولية أرسلان شاه بن طغرل بن محمد[(٢)]. إلا أن أكثر الأمراء كان توجههم مع السلطان سليمان شاه، ومن الجدير بالذكر أن الأخير كان يخطب له على منابر بغداد، وكان لهذا الأمر دور كبير في ميل الأمراء السلاجقة لسلطنته، وهذا ما جعل ملك شاه، بعد ما سيطر على أصفهان وكثر جمعه أن يبعث للخلافة العباسية طالباً "أن يقطعوا خطبة عمه سليمان شاه ويخطبوا له، ويعيدوا القواعد في العراق إلى ما كانت أولا، وإلا قصدهم"[(٣)]. إلا أن ملك شاه مات سنة (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) ويورد ابن الأثير أن موت ملك شاه كان بتدبير الوزير عون الدين بن هبيرة، عن طريق جارية اشتراها احد مماليكه، واستطاعت من دس السم في طعام ملك شاه[(٤)]. وبموت الأخير استقر سلميان شاه في السلطنة[(٥)]. وعلى ما يبدو أن السلطان سليمان شاه لم يكن بالشخصية القادرة على استقطاب السلاجقة حوله،

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٦٦/ البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢٨٧/ الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٥٦/ امين، تاريخ العراق، ص١١٢.
(2) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٦٧،
(3) نفس المصدر، ج٩، ص٧١.
(4) نفس المصدر، ج٩، ص٧١ وانظر، البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢٦٩-٢٧٠.
(5) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٧١.

فقد اشتهر عنه ميله لحياة الترف واللهو، وأخذ يسيء لأمرائه، فاتفق خادمه شرف الدين كردبازو مع ألدكز أتابك الملك أرسلان شاه ابن طغرل على قتله، وتم لهم ذلك سنة (٥٥٦هـ ١١٦٠م)، وبذلك استقر الأمر لأرسلان شاه بن طغرل، وكان لا يزال طفلا فتحكم بالأمر اتابكه زوج أمه ألدكز[1].

في خضم هذا الصراع بين الملوك والأمراء السلاجقة على السلطنة، كانت الخلافة العباسية ترقب تطور الأحداث في همذان، واصفهان، عاقدة العزم على التصدي لأية محاولة من قبل السلاجقة لإعادة سيطرتهم على العراق. وفي بادرة من الخلافة العباسية دلت على حنكة سياسية من قبل الخليفة المستنجد بالله، ووزيره ابن هبيرة، للتعرف على نوايا السلطان سليمان شاه تجاه الخلافة، بعد ما استقر في السلطنة، قام الخليفة بإرسال الحاجب سونج النظامي إلى السلطان "يسأله الطاعة والإذعان، ويطلب منه أن يخطب له في جميع البلاد. ويذكره بإحسان المقتفي إليه وأفضاله عليه"[2]. امتثل السلطان لطلب الخليفة "وكتب إلى البلاد ليخطب إليه -أي الخليفة-"[3] معتقداً أن الخلافة تخطب وده، وأن العراق ستعود لسيطرته فبادر بإرسال الرسل لبغداد، وهم القاضي نبيه الدين أبا هريرة الهمذاني، كما بعث معه الأمير طغايرك ليكون نائبا له ببغداد إلا أن الخليفة المستنجد بالله ووزيره ابن هبيرة، إتخذا موقفا متشدداً تجاه طلب السلطان سليمان شاه، وكان رد الوزير حاسما "فقيل لهما -أي الرسولين- ما أنتما إلا سفيرا إهتداء وإهداء، وخفيرا ولاية وولاء، والتعرض للخطبة تعرض للخطوب، ولا ترغبا في الخطبة أن رغبتما في الولاء المخطوب"[4]. وعندما احتجا بأن الرسول وعد السلطان بذلك، رد عليهم ابن هبيرة بقوله: "ما كان لرسولنا أن يقول ما لم نشر به... وغدا

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص ١٤٢/ الراوندي، راحة الصدور، ص٣٩٢-٣٩٣/ الحسيني، زبدة التواريخ، ٢٥٧-٢٥٨/ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٧٢.

(2) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢٦٨.

(3) نفس المصدر، ص٢٦٨.

(4) نفس المصدر، ص٢٦٨.

يوافقكم رسولنا على أنه لم يقل ما قلتماه، ولم يعقد ولم يخل فيما به عقدتماه، فافترقوا للاجتماع في غد والمعاودة لموعد"[1].

وفي اليوم التالي مات الحاجب سونج النظامي رسول الخليفة، وبعده بأسبوع مات رسول السلطان القاضي أبو هريرة، ويبدو أن الخلافة العباسية، قتلت سونج النظامي كونه وعد السلطان بأشياء لم يؤمر بها، وحتى تقطع الخلافة أمل السلطان بالسيطرة على بغداد، قامت بقتل رسوله، وكان ذلك ردا عنيفا من قبل الخلافة على مطلب السلطان سليمان، فاضطر على أثر ذلك الأمير طغايرك لمغادرة بغداد. ويعلق الأصفهاني على إجراءات الخلافة بقوله: "فتلاشت تلك الرسالة لعدم رسلها، ولروعة مثل ذلك الحادث، لم يرجعوا إلى مثلها، ووقعت في أنفسهم من بغداد الهيبة، ومن حصولها الخيبة، فلم يقدر ملك إليها، ولم يقدر سلطان عليها"[2]. وفي المحرم من سنة ٥٥٦هـ/ كانون الثاني سنة ١١٦١م قطعت خطبة السلطان سليمان شاه عن منابر بغداد، وما لبث أن مات مسموما في السنة المذكورة على يد خادمة كردبازو[3].

بعد موت السلطان سليمان شاه، استقر في السلطنة أرسلان شاه بن طغرل، وذكرنا أن اتابكه زوج امه ألدكز أصبح المتنفذ في سلطنته، كما أصبح البهلوان بن ألدكز – أخو أرسلان شاه من أمه – حاجبا له[4]. استغل الاتابك ألدكز موت السلطان سليمان، وبعث للخليفة المستنجد بالله طالبا "الخطبة لارسلان شاه أيضا، وأن تعاد القواعد إلى ما كانت عليه أيام السلطان مسعود فأهين رسوله وأعيد إليه على أقبح حالة"[5].

---

(1) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢٦٨-٢٦٩.
(2) نفس المصدر، ص٢٦٩.
(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص ١٤٦/ الرواندي، راحة الصدور، ص٣٩٩/ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٧٢.
(4) الرواندي، راحة الصدور، ص٤٠٨/ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٨٣/ امين، تاريخ العراق، ص١١٣-١١٤.
(5) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٨٣/ أمين، تاريخ العراق، ص١١٤.

وعلى ما يبدو أن بغداد بدأت بإتباع سياستها القديمة، بإذكاء روح التنافس بين الملوك والأمراء السلاجقة، فعندما استقر أرسلان شاه في السلطنة، بدأ اتابكه ألدكز، بدعوة أمراء السلاجقة لطاعة السلطان، فبعث إلى آقسنقر الأحمديلي، صاحب مراغه، يدعوه للحضور في خدمة السلطان أرسلان إلا أنه رفض طلب ألدكز وهدده بقوله: "إن كففتم، وإلا فعندي سلطان، وكان عنده محمد بن محمود بن محمد بن ملك شاه"[١]، واستند الأحمديلي في تهديده هذا على وعد الوزير ابن هبيرة "وكان الوزير ابن هبيرة قد كاتبه يطمعه في الخطبة لولد محمد شاه"[٢]. ونجحت خطة الوزير بضرب الاتابك ألدكز بالأمير أقسنقر، ودارت بين الطرفين معركة، استطاع فيها اقسنقر من هزيمة قوات السلطان أرسلان التي كان يقودها البهلوان بن الدكز[٣]. كما قام الوزير ابن هبيرة بمراسلة أمراء ألدكز يوبخهم على طاعتة، ويضّعف رأيهم ويحرضهم على مساعدة الأمير أينانج صاحب الري، والذي رفض طاعة السلطان أرسلان شاه، ونجح الوزير في ذلك إلا أن الأتابك ألدكز إستطاع هزيمة الأمير أينانج، وبذلك فرض طاعة الأمراء السلاجقة للسلطان أرسلان شاه[٤].

وبعد ذلك خفت حدة الصراع بين الخلافة العباسية، والسلاجقة، حتى سنة (٥٦٢هـ/ ١١٦٦م)، إذ بدأت بعض المحاولات اليائسة لإعادة النفوذ السلجوقي في العراق، ففي هذا العام، توجه الأمير شمله صاحب خوزستان على رأس قواته لبغداد، وأرسل للخليفة المستنجد بالله "يطلب شيئا من البلاد ويشتط في الطلب" وعندما بعث إليه الخليفة يلومه ويحذره عاقبة فعله، أجاب: "بأن ألدكز والسلطان أرسلان شاه، أقطعا الملك الذي عنده – ولد ملكشاه– البصرة وواسط، وعرض التوقيع بذلك،وقال أنا اقنع بثلث ذلك[٥]. وعندما أدرك الخليفة المستنجد

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٧٣.
(2) نفس المصدر، ج٩، ص٧٣.
(3) نفس المصدر، ج٩، ص٧٣.
(4) الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٥٩-٢٦٠/ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٧٣.
(5) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٩٦.

بالله خطورة مسعى الأمير شمله، بعث إليه بالأمير أرغش صاحب النعمانية، وشرف الدين أبو جعفر البلدي وكان آنذاك ناظرا لواسط، لطرده من العراق، ونجحوا في ذلك[1]. ومن المحتمل أن محاولة الأمير شمله، جاءت من باب جس النبض من قبل الأتابك ألدكز، للتعرف على رد فعل الخلافة، تجاه مطلب الأمير شمله.

وفي محاولة أخرى حاول الأمير سنكا صاحب خوزستان، -حكم خوزستان بعد موت عمه الأمير شمله- السيطرة على أجزاء في العراق، عندما بنى قلعة بجانب قلعة الماهكي ليسهل السيطرة على المناطق المحيطة بها، إلا إن جيش الخلافة استطاع هزيمته، وقتله سنة (٥٦٩هـ/١١٧٣م) [2].

وفي محاولة دلت على ضعف الملوك والأمراء السلاجقة في مواجهة الخلافة، تعرضت البندنيجين سنة (٥٧٣هـ/١١٧٧م) لهجوم من أبن ملكشاه بن محمود المقيم بخوزستان "فخربها ونهبها وفتك في الناس وسبى حريمهم، وفعل كل قبيح"، إلا إن جيش الخلافة بقيادة الوزير ابن رئيس الرؤساء استطاع من هزيمة الملك السلجوقي، وأجبره على الانسحاب لخوزستان[3]. وكانت هذه المحاولة الأخيرة التي قام بها السلاجقة، في هذه الفترة.

نلاحظ من خلال تتبعنا للعلاقات بين السلاجقة والخلافة العباسية في عهد الخليفتين المستنجد بالله، والمستضيء بأمر الله، أن السلاجقة بدأوا يدركون، أن عودتهم للعراق والسيطرة عليه باتت في حكم المنتهية، لما وصلت إليه الخلافة من قوة بحيث أصبحت قادرة على الدفاع عن نفوذها، والمناطق التابعة لها، كما أن السلاجقة لم تعد القوة القادرة على فرض نفسها على الخلافة نتيجة الصراع المستمر فيما بينهم على السلطنة، بسبب تعدد أبناء السلاطين والملوك، والذي رأى كل واحد منهم أحقيته في تزعم السلاجقة، كما برز نفوذ الأتابكه، الذين لعبوا دورا كبيرا في هذا الصراع. أضف لذلك، إفتقار السلاجقة للشخصية

(1) نفس المصدر، ج٩، ص٩٦-٩٧/ الزهراني، نفوذ السلاجقة، ص١٦٠.
(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٢٠٤/ ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٦٥١.
(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٢٠٤/ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٤١.

القوية والقادرة على استقطاب الملوك والأمراء السلاجقة، فتفتت السلاجقة وعدم وحدتهم يضيف سببا مهما في نجاح الخلافة في التخلص من النفوذ السلجوقي في العراق.

الخلافة العباسية ونور الدين محمود زنكي

كان من أهم نتائج ضعف السلاجقة، وتفككهم، بعد انقضاء، مرحلة السلاطين العظام، بروز وتعاظم دور الأتابكيات. والأتابكة مماليك من الأتراك كانوا لدى السلاطين السلاجقة، أوكلت إليهم مهمة الأشراف والوصاية على الأمراء السلاجقة الصغار من أبناء السلاطين أو الملوك، الذين أرسلوا مع أبنائهم لحكم الأقاليم والمدن المختلفة، المقطعة لهم، وبعد ضعف دولة السلاجقة، بدأ يبرز دور هؤلاء الأتابكة، من خلال التدخل في الحياة السياسية، بل نجد بعضهم، استطاع تنحية الأمير السلجوقي أو قتله، وحل مكانه في الإقطاع، وقد انتشرت مثل هذه الاتابكيات في القسم الغربي من الدولة السلجوقية، في بلاد الشام، والجزيرة، وآسيا الصغرى، وأربل، والموصل، والعراق، وغيرها من المناطق[1].

وكانت أبرز هذه الاتابكيات، والتي لعبت دورا مهما في تاريخ المنطقة – العراق وبلاد الشام- في تلك الفترة الاتابكية الزنكية (٥٢١-٦٤٨هـ/ ١١٢٧-١٢٥٠م) وتعد هذه الاتابكية من أكبر الاتابكيات، وسميت بالزنكية نسبة لمؤسسها عماد الدين زنكي بن أقسنقر[2].

تولى عماد الدين زنكي الموصل سنة (٥٢١هـ/ ١١٢٧م)، من قبل السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، وقد مر معنا فيما يخدم موضوع بحثنا علاقة عماد

(1) السامرائي وآخرون، تاريخ الدولة العربية، ص٣١٠.
(2) آقسنقر من مماليك السلطان ملكشاه، ولاه حلب سنة (٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م) واسماه قسيم الدولة، وبعد موت ملكشاه، وقف اقسنقر إلى جانب ابنه بركياروق، وقاتل ضده منافسة تتش. قتل آسنقر سنة (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م). دائرة المعارف الإسلامية، بقلم هيوار، مج٢، ص٤٧٣-٤٧٤.

الدين مع السلاطين والملوك السلاجقة من جانب، وعلاقته بالخلافة العباسية من جانب آخر، ويرى ابن الأثير أن سبب تولية السلطان محمود لعماد الدين في الموصل التصدي للخطر الفرنجي[1]، ولعب هذا الاتابك وأبناؤه من بعده دورا بارزا في التصدي للفرنج[2].

أخذ عماد الدين بعد توليته للموصل في إخضاع أجزاء كبيرة من الإمارات المحيطة به كجزيرة ابن عمر ونصيبين، وسنجار، وحران، كما استطاع ضم مدينة حلب سنة (٥٢٢هـ/١١٢٨م)، وبعد ذلك بدأ بالهجوم على المعاقل الفرنجية فسيطر على حصن الاثارب سنة (٥٣٥هـ/ ١١٤٠م)، إلا إن أهم انتصار حققه على الفرنجة كان سنة (٥٣٩هـ/ ١١٤٤م)، بفتحه أول إمارة فرنجية أسست في الشرق، وهي إمارة الرها[3].

تم اغتيال عماد الدين زنكي سنة (٥٤١هـ/ ١١٤٦م) أثناء محاصرته لقلعة جعبر الفرنجية على يد مجموعة من مماليكه[4]. وبموته اقتسم ولداه سيف الدولة غازي، ونور الدين محمود اتابكيته، فاستقر الأول في الموصل بينما استقر الثاني في حلب، لتبدأ المرحلة الثانية من جهاد الزنكيين لتحرير بلاد الشام من الفرنجة.

تسلم نور الدين محمود زنكي حلب وكان له من العمر ثلاثون عاماً، وعلى ما يبدو أن نور الدين، وضع نصب عينيه، استكمال ما بدأه والده عماد الدين وهو تحرير بلاد الشام من الوجود الفرنجي، وأدرك أن هذا الأمر سيحتاج إلى وقت طويل، وإمكانات مالية وبشرية هائلة، فبدأ مشروعه بإعلان الجهاد من خلال توحيد الجبهة الإسلامية، وفي ذات الوقت التصدي للفرنج الذين لن يعطوه هذه الفرصة، إلا أن الأحداث أثبتت أن هذا الرجل كان يمثل قائد المرحلة بكل اقتدار.

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٢٤.
(2) عن جهاد الزنكيين ضد الفرنج، انظر: ابن الأثير، الباهر في الدول الاتابكية، خليل، عماد الدين زنكي/ حبشي، نور الدين والصليبيين/ زكار، الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٩٤-٥٣١.
(3) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٨-٩.
(4) نفس المصدر، ج٩، ص١٣.

فقد نجح في توحيد بلاد الشام الإسلامية، وكلل هذا النجاح بضم مصر لدولته التي أمدته بقوات بشرية وإمكانات مالية كبيرة، استطاع فيما بعد تابعه صلاح الدين الأيوبي من استكمال مشروعه في تحرير معظم الساحل الشامي، وفتح القدس الشريف[1]. في خضم هذه التطورات لم تكن الخلافة العباسية بمعزل عنها، سواءً في بلاد الشام، أو في مصر الفاطمية.

تبدأ علاقة الخلافة العباسية بنور الدين محمود، بعدما استطاعت في عهد المقتفي لأمر الله التخلص من النفوذ السلجوقي في العراق سنة (٥٤٧هـ/ ١١٥٢م) فبعد سنتين من هذا التاريخ، سيطر نور الدين محمود على دمشق[2]. وفي العام ذاته أيضا جاءت الأخبار باختلال الأوضاع بمصر فقد قتل الخليفة الفاطمي الظافر بالله (٥٤٤هـ/١١٤٩-١١٤٥م) وتولى ابنه الفائز بنصر الله (٥٤٩-٥٥٥هـ/ ١١٥٤-١١٦٠م) وله من العمر خمس سنين[3]. وبناءاً على هذه التطورات بعث الخليفة المقتفي لأمر الله تقليداً لنور الدين محمود زنكي، ولاه فيه مصر وأعمالها والساحل -أي الساحل الشامي- وأرفق مع التقليد المراكب والتحف، وأمره بالمسير لمصر، ويرى الحياري أن هذا التقليد مثل حافزاً قوياً لنور الدين للعمل على فتح مصر، وإعادتها لحظيرة الخلافة العباسية السنية، من خلال منحه الشرعية بحكم المناطق الخاضعة له، وما يضاف إليها من البلاد[4]. وبدأنا نلاحظ أن نور الدين أخذ يطلع الخلافة العباسية، على تطورات الأحداث على الجبهة الإسلامية، ففي سنة (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م)، وصلت رسل نور الدين محمود تحمل الهدايا ورؤوس الفرنج، وتبشر الخلافة بفتح غزة، واستعادتها من الفرنج[5].

---

(1) عن جهاد صلاح الدين ضد الفرنجة انظر: ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين)/ الاصفهاني، البرق الشامي/ الحياري، صلاح الدين القائد وعصره.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٤٥-٤٦.

(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٩٨/ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٤٣/ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٠٨، ٢٢٣/ الحياري، صلاح الدين، ص٥٦-٥٧.

(4) الحياري، صلاح الدين، ص٥٨-٥٩.

(5) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١١٨.

ارتكزت علاقة الخلافة العباسية بنور الدين محمود على محور أساسي، هو الضغط المتواصل من قبل الخلافة على نور الدين لفتح مصر وإعادتها لحظيرة الخلافة العباسية، وقد بدأ هذا الضغط منذ سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م وهو العام الذي فتح فيه نور الدين دمشق، وأصبح هذا الأمر إحدى أولويات الخلافة، بعدما تحررت من النفوذ السلجوقي. ويصور لنا ابن المارستانية في سيرة الوزير ابن هبيرة مدى استحواذ هذه الفكرة على الخلافة العباسية ورجال إدارتها، فقد ذكر أن احد سكان بغداد رأى رؤيا، مفادها: أن الإمام بمصر سوف يستبدل، وتعود الدعوى لبني العباس، وقد قصت هذه الرؤيا على الوزير ابن هبيرة، وزير المستنجد بالله، فقام الوزير بمكاتبة نور الدين ذاكرا له قصة الرؤيا، ويحضه بذات الوقت على فتح مصر، مع علمه أن قوات نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه في حملتها الأولى قد دخلت مصر وذلك سنة (٥٥٩هـ/١١١٣م) [1]. وكان لهذه المكاتبة دور كبير في حظ نور الدين، وعقله العزم على فتح مصر، وهذا ما أكده أبو شامه في الروضتين فبعدما اضطربت الأوضاع بين كبار رجال الإدارة الفاطمية ضرغام، وشاور، واضطر الأخير إلى اللجوء لنور الدين طالبا المساعدة في إعادته للوزارة "فحرك ذلك ما كان تخمر في نفسه –أي نور الدين– مما كان كاتبه بن ابن هبيرة"[2]. وهو الاستيلاء على مصر.

وهذا الأمر يبين الهاجس الذي كانت تعيشه الخلافة العباسية والذي سيطر عليها وعلى رجال إدارتها، وهو إعادة مصر لحظيرة الخلافة العباسية من خلال الضغط المتواصل على أقوى الأمراء المتنفذين في الشام نور الدين محمود لاستغلال الفرصة التاريخية لإسقاط الخلافة الفاطمية.

إمتثل نور الدين لطلب الخلافة العباسية، باستغلاله لحالة الصراع بين ضرغام وشاور، وقيام الأخير بطلب المساعدة من نور الدين، فما كان من الأخير،

---

(1) أبو شامه، الروضتين، ج١، ص٤٩٩–٥٠٠/أبن الاثير، الكامل، ج٩، ص٨٤/ الحياري، صلاح الدين، ص١٤٨.

(2) أبو شامه، الروضتين، ج١، ص٥٠١.

إلا أن جهز جيشا تحت قيادة قائده القدير أسد الدين شيركوه، وتوجه إلى مصر، وصحبته شاور الوزير المخلوع[1].

استطاع القائد شيركوه من إعادة شاور للوزارة، إلا أن الأخير نقض الاتفاق الذي أبرمه مع نور الدين وهو: "ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد – أي مصر– بعد اقطاعات العسكر، ويكون معه من أمراء الشام من يقيم معه في مصر، ويتصرف هو –شاور– بأوامر نور الدين واختياره"[2]. وبذلك تكون حملة نور الدين الأولى لمصر قد فشلت في تحقيق الهدف الرئيسي منها، وهو إعادة مصر لحظيرة الخلافة العباسية، وعلى ما يبدو أن نور الدين زنكي عندما وصلته أخبار دخول أسد الدين مصر، وإعادة شاور للوزارة، اعتقد أن البلاد فتحت بناء على الاتفاق المبرم بينه وبين شاور، فبعث بهذه الأخبار إلى الخلافة العباسية، ويورد ابن الجوزي في حوادث سنة (٥٥٩هـ/١١٦٣م): "وورد البشير إلى المستنجد بالله بفتح مصر فقال حاجب الوزير ابن تركان قصيدة"[3]. ويتضح من تسرع نور الدين ببعث البشارة بفتح مصر إلى الخلافة العباسية، وقبل التأكد من وضع قواته فيها وما آلت إليه، الهاجس الذي كان يعيشه نور الدين، وهو تنفيذ طلب الخلافة في إعادة مصر، والخطبة للخليفة العباسي فيها.

وأضاف فشل الحملة على مصر نتيجة خيانة شاور، وتسرع نور الدين محمود ببعث البشارة للخلافة العباسية، دافعا جديدا في تصميم نور الدين على متابعة طلب الخلافة العباسية لفتح مصر.

وفي تلك الأثناء مات الخليفة المستنجد بالله سنة (٥٦٦هـ/ ١١٧٠م)، وبويع بالخلافة ابنه المستضيء بأمر الله في التاسع من ربيع الأول سنة ٥٦٦هـ/ العشرين من كانون أول سنة ١١٧٠م[4]. وبعثت الخلافة عن طريق الوزير عضد الدين ابن

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٨٤.
(2) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٦٤.
(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص ١٦٠.
(4) نفس المصدر، ج١٨، ص١٩٠-١٩١.

رئيس الرؤساء وزير الخليفة آنذاك، لنور الدين والذي كان محاصراً للموصل الخلع والتقليد، طالبا مبايعة الخليفة الجديد، وبذات الوقت حضه على إقامة الخطبة العباسية في مصر، لعلم الخلافة أن قوات نور الدين التي بعثها في الحملة الثالثة إلى مصر تحت قيادة أسد الدين وابن أخيه صلاح الدين، أخذت تحقق نجاحا ملموسا في مصر، وخاصة بعدما تخلصت من الوزير الفاطمي شاور، ثم أخذت الخلافة العباسية بالضغط على نور الدين لإعلان الخطبة العباسية في مصر[١].

ويورد ابن الأثير، أن نور الدين بعث لصلاح الدين الذي تسلم زمام الأمور في مصر بعد موت عمه أسد الدين شيركوه "يأمره بقطع الخطبة العاضدية – نسبة للعاضد (٥٥٥-٥٦٧هـ/ ١١٦٠-١١٧١م) آخر الخلفاء الفاطميين- وإقامة الخطبة المستضيئية فامتنع صلاح الدين واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليهم لميلهم إلى العلويين... فلما اعتذر لنور الدين بذلك لم يقبل عذره، وألح عليه بقطع خطبته والزمه إلزاما لا فسحة له في مخالفته"[٢]. وفي الجمعة الأولى في شهر محرم سنة ٥٦٧هـ/ أيلول سنة ١١٧١م، قطعت الخطبة الفاطمة في مصر، وخطب للخليفة المستضيء بأمر الله على منابرها[٣]. ولما وردت البشائر على نور الدين بالخطبة للخليفة العباسي في مصر، سارع بندب القاضي شهاب الدين ابن أبي عصرون[٤]. محملا "بهذه البشارة إلى الديوان العزيز –الخلافة العباسية- وأمر كاتبه عماد الدين الأصفهاني بإنشاء بشارة[٥]. تقرأ في سائر البلاد الإسلامية، وبشارة أخرى خاصة تقرأ بحضرة الإمام في مدينة السلام"[٦]. وصل ابن أبي عصرون لبغداد في الثاني والعشرين من المحرم سنة ٥٦٧هـ الخامس والعشرين من

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٩٩/ المقرزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٣٠٠-٣٠١.
(2) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١١١/ انظر، ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص٢٠٠.
(3) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١١١/ ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص٢٠٠-٢٠١.
(4) عبدالله بن محمود بن هبة الله، ولاه صلاح الدين قضاء دمشق، وكان من الأئمة الشافعيين. مات سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٠٥/ كثير، البداية، م٦، ج١٢، ص٢٥٥-٢٥٦.
(5) أنظر نص البشارة ملحق رقم (٥) .
(6) أبو شامة، الروضتين، ج١، ص٥٠٢/ ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص٢١٦.

أيلول سنة ١١٧١م، واستقبلته الخلافة بالإكرام والإعظام "فجلس الوزير عضد الدين ابن رئيس الرؤساء في الديوان، واستحضر أرباب المناصب، والدولة والخواص، والأمراء، وأشار إلى كاتب الإنشاء أبي الفرج ابن الأنباري، بقراءة مكتوب الملك العادل نور الدين، ثم ثنى بمكتوب برز بخط الخليفة المستضيء بأمر الله يتضمن الشكر لله على ما أباحه من عودة الحق إلى مستقره"(١) وعمت الاحتفالات بهذه المناسبة مدينة بغداد بحيث "أغلقت الأسواق، وعملت القباب"(٢) وأثناء احتفالات بغداد بعودة مصر لحظيرة الخلافة العباسية، بعثت بأستاذ الدار عماد الدين صندل المقتفوي، وبصحبته ابن أبي عصرون لنور الدين "مكملا بالأهبة السود والحلل الموشية والطوق الذهب الثقيل واللواء الجليل، وحضر الرسول عند نور الدين وحضر أكابر الدولة والخواص، وكان يوما مشهودا، وقرأ موفق الدين خالد بن محمد بن صغير القيسراني كاتب الديوان، ثم لبس نور الدين الفرجية وتقلد بالسيفين -كناية عن ولايته لبلاد الشام ومصر- ووضع في عنقه الطوق، وخرج راكبا من داخل القلعة واللواء الأسود - شعار العباسيين- منشور على رأسه، وقدم له مركوبا أحدهما ركبه، والآخر كان جنبيا بين يديه محلى بحليته، وجمع بين تقليد السيفين بالأشعار بتقليده الإقليمين الشام والديار المصرية، وخرج إلى ظاهر دمشق ونثر عليه الذهب، وانتهى في تسييره إلى الميدان الأخضر ثم عاد إلى القلعة"(٣).

كما كان مع رسول الخلافة تشريف لصلاح الدين، لكنه دون تشريف نور الدين، فسيره الأخير مع خلع من عنده للأمراء في مصر، وعندما وصل التشريف لصلاح الدين لبسه وركب به، ويعلق ابن واصل على هذا التشريف، بقوله: "وهي أول خلعة عباسية دخلت مصر، بعد انقراض الدولة العلوية"(٤).

---

(1) أبو شامه، الروضتين، ج١، ص٤٩٧/ ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص ٢١٨.
(2) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص ١٩٦/ وانظر، ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١١٢.
(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص ٢١٨-٢١٩/ وانظر، أبو شامه، الروضتين، ج١، ص٥٠٥.
(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص ٢٢٠/ وانظر، ابن الأثير، الباهر، ص١٥٧.

كما بعثت الخلافة العباسية إلى مصر أعلام سود، وخلع للخطباء فقام صلاح الدين بتفريقها على الجوامع، والمساجد، والقضاة، والعلماء[1]. وبذلك يكون الملك العادل نور الدين زنكي قد نفذ طلب الخلافة، منذ ثمانية عشر عاما، عندما أمره للخليفة المقتفي لأمر الله بالمسير إلى مصر، فجاء هذا الفتح نتيجة هذا الأمر، إلى جانب الضغوط المستمرة من قبل الخليفتين المستنجد بالله والمستضيء بأمر الله، وقد عبرت الخلافة العباسية عن مدى رضاها عن الملك العادل من خلال التشريف الذي بعث به إليه، وحامل هذا التشريف، أستاذ دار الخلافة عماد الدين صندل "ولم ير من بغداد رسول مثله في جلالته وعظمة قدره"[2].

وبسقوط الخلافة الفاطمية، تعود الخلافة العباسية لتزعم العالم الإسلامي ولتبدأ بممارسة سلطتها الدينية والزمنية، من خلال الضغط المتواصل على ولاتها في الشام ومصر لتحرير الساحل الشامي، والقدس الشريف من الفرنجة.

الخلافة العباسية وصلاح الدين الأيوبي في عهد المستضيء بأمر الله

يعود أول اتصال مباشر بين صلاح الدين الأيوبي، والخلافة العباسية، إلى سنة (٥٦٧هـ/ ١١٧١م)، عندما بعث صلاح الدين بكتاب من إنشاء القاضي الفاضل إلى وزير المستضيء بأمر الله، آنذاك عضد الدين ابن رئيس الرؤساء، وقد حمل هذا الكتاب الخطيب شمس الدين بن المحسن بن الحسن بن أبي المضاء البعلبكي، وهذا الرجل هو أول من خطب على منابر مصر لبني العباس[3]. فقد جاء في كتاب القاضي الفاضل: "وأنهض لإيصال ملطفاته، وتنجيز تشريفاته خطيب الخطباء بمصر وهو الذي اختاره لصعود المنبر، وقام بالأمر قيام من بر

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص ٢٢٠/ ابن الأثير، الباهر، ص١٥٧.
(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص٢١٨.
(3) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١١١/ أبو شامة، الروضتين، ج١، ص٤٩٢/ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص٣٩٠/ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٤٣.

واستفتح بلباس السواد الأعظم[1]". وحمل كتاب صلاح الدين للخلافة العباسية، أمرين مهمين: الأول، تبشير الخلافة بإقامة الخطبة للخليفة المستضيء بأمر الله، والأمر الآخر، طلب صلاح الدين من الخلافة تقليده ما فتح من البلاد، فقد جاء في كتاب القاضي الفاضل: "فإنه -أي صلاح الدين- مفتقر إلى أن يشكر ما نصح، ويقلد ما فتح، ويبلغ ما اقترح، ويقدم حقه ولا يطرح، ويقرب مكانه وان نزح، ويأتيه التشريفات الشريفة وتتواصل إليه إمداد التقويات الجليلة اللطيفة"[2]. وعلى ما يبدو أن الخلافة العباسية وافقت على طلب صلاح الدين، وبعثت مع رسوله شمس الدين بكتاب تحدد فيه البلاد التابعة له، وجاء في هذا الكتاب: "اقتضت الآراء الشريفة لا زال التوفيق قرينها، والتأييد مظافرها ومعينها، إمضاء تصرفه، وإنفاذ حكمه في بلاد مصر وأعمالها والصعيد الأعلى والإسكندرية وما يفتحه من بلاد الغرب والسلحل وبلاد اليمن، وما افتتحه منها وما يستخلصه بعد من ولايتها، والتعويل في هذه الولايات عليه واستنفاذ ما استولى عليه الكفار من البلاد، وإعزاز كل من أذلوه، واضطهدوه من العباد لتعود الثغور بيمن نقيته ضاحكة المباسم، وبإصابة رأيه قائمة المواسم[3]".

ويرى الحياري أن هذا التقليد قد آثار خلافات حادة داخل الإدارة العباسية بين مؤيدي استقلال صلاح الدين في مصر، وبين مؤيدي نور الدين ، إذ اعتبر هذا التقليد تخطي لنور الدين على اعتبار أن صلاح الدين نائبا له في مصر، واضطر الخليفة المستضيء بأمر الله لعزل وزيره ابن رئيس الرؤساء، وكان هذا العزل كما يراه الحياري، نتيجة التقليد الذي بعث به لصلاح الدين[4]، والتساؤل الذي نطرحه في هذا المجال. هل كان تصرف الوزير ابن رئيس الرؤساء من تلقاء نفسه أم انه اطلع الخليفة على هذا التقليد، وأخذ موافقته عليه؟ إن أمراً بهذه الأهمية لا

(1) أبو شامة، الروضتين، ج١، ص٤٩٧.
(2) نفس المصدر، ج١، ص١٩٥/ انظر نص الرسالة في ملحق رقم (٦) .
(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٠، ص١٥٠-١٥٨/ مآثر الأنافة، ج٣، ص٨٦-٩٨.
(4) الحياري، صلاح الدين، ص١٥٧.

بد أن يكون الخليفة قد أبدى موافقته عليه، وبالتالي لا يتحمل الوزير عبء هذا الأمر وحده، وهناك تساؤلاً آخر نطرحه أيضاً وهو متى استطاع صلاح الدين تكوين أنصاراً ومؤيدين له داخل الإدارة العباسية؟ إذا ما علمنا أن صلاح الدين لم يبرز على مسرح الأحداث، ولم تكن له أية صفة سياسية أو عسكرية، إلا بعد موت عمه أسد الدين شيركوه سنة (٥٦٤هـ/ ١١٧١م)، فهل في هذه الفترة الزمنية القصيرة استطاع صلاح الدين تكوين أنصار له داخل الإدارة العباسية؟ بحيث يكونوا قادرين على استعداء أقوى الولاة في الشام وهو نور الدين زنكي، لقد اجتهدنا في غير هذا الموضع أن عزل ابن رئيس الرؤساء كان نتيجة صراع على النفوذ بين أمير العسكر قطب الدين قيماز، وبين الوزير ابن رئيس الرؤساء.

تعود أهمية الحادثة السابقة، أن الخلافة أصبحت تمارس دورها ونفوذها، الديني والزمني من خلال منح العهود لولاتها بحكم المناطق التابعة لهم، وحرص هؤلاء الولاة للحصول على هذه الشرعية، كما أصبحت تحض هؤلاء الولاة على الدفاع عن المسلمين، وتقدم لهم النصح والإرشاد في كيفية إدارة ولاياتهم، من خلال توخي العدل، والاهتمام بالفئات المحرومة والتي قدرت عليهم مادة الرزق، من رعاياهم، وقد جاءت علاقة الخلافة العباسية بصلاح الدين، من خلال هذا الإطار، ففي سنة (٥٧٠هـ/ ١١٧٤م)، أي بعد سنة واحدة من موت نور الدين زنكي بعث صلاح الدين للخلافة العباسية، طالبا تقليده الديار المصرية والشامية "وكان صلاح الدين قد كتب إلى بغداد يعدد فتوحاته، وجهاده للفرنج وإعادة الخطبة العباسية بمصر، واستيلاءه على بلاد كثيرة من أطراف المغرب، وعلى بلاد اليمن كلها، وأنه قدم إليه وفد سبعين راكبا، كلهم يطلب لسلطان بلده تقليدا، وطلب صلاح الدين من الخليفة تقليده مصر، واليمن، والمغرب، والشام وكل ما يفتحه بسيفه"[1]، استجابت الخلافة العباسية لطلب صلاح الدين، وبعثت له أثناء

---

(1) المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص٥٩-٦٠/ وانظر، السبكي، طبقات الشافعية، ج٧، ص٢٠-٢١.

وجوده بحماة" بالتشريف والأعلام السود، وتوقيع بسلطنة بلاد مصر والشام وغيرها"[1]. والمتصفح لهذا التقليد المطول[2]، يلاحظ أن الخلافة العباسية، بعد أن منحت صلاح الدين ما طلبه من التقيد "وقد قلدك أمير المؤمنين البلاد المصرية واليمنية غورا ونجداً وما اشتملت عليه رعية، وجندا، وما انتهت إليه أطرافه براً، وبحراً وما ستنفذ من مجاوريها مسالمة وقهرا، أضاف إليها بلاد الشام وما تحتوي عليه من المدن الممدنة، والمراكز المحصنة مستثنيا ما هو بيد نور الدين إسماعيل بن نور الدين محمود[3]. -رحمه الله- وهي حلب وأعمالها، فقد مضى أبوه عن آثار في الإسلام ترفع ذكره في الذاكرين"[4]. مارست دورها ونفوذها كونها صاحبة الحق في منح الشرعية لولاتها، إلى جانب أن الخلافة من الناحية النظرية مسؤولة عن المسلمين، وأن هؤلاء الملوك والأمراء يحكمون باسم الخليفة الذي منحهم شرعية حكمهم، من هذا الإطار نجد الخليفة المستضيء بأمر الله يوجه صلاح الدين ويحضه في هذا التقليد على عدة أمور تتعلق بسياسته الداخلية تجاه رعايا الدولة، إلى جانب حضه على الجهاد لتخليص البلاد من الفرنجة، وخص القدس الشريف لما لها من مكانة لدى المسلمين، ونفهم من هذه الوصايا أن الخلافة عبرت عن مدى مسؤوليتها في الحفاظ على المسلمين، والأراضي الإسلامية، من خلال جعل ولاتها مسؤولين أمامها وإن كان هذا الأمر شكليا، فقد جاء في نص التقليد"..وملاك ذلك كله في إسباغ العدل الذي جعله الله ثالث الحديث الشريف والكتاب... كذلك نأمر هؤلاء على اختلاف طبقاتهم بأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر... وهو يأمرك أن تفقد أحوال الفقراء الذين قدرت عليهم مادة الرزق"[5]. ثم تأتي وصية

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٣٣/ المقريزي، السلوك ج١، ق١، ص٦٠.
(2) انظر التقليد في ملحق رقم (٧).
(3) استمر الملك الصالح إسماعيل في حكم حلب حتى وفاته سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م، ثم تسلمها عماد الدين زنكي بن مودود، إلى أن سيطر عليها صلاح الدين سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٥٣-١٦٢/ شاكر، التاريخ الإسلامي، ج٦، ص٢١٨-٢١٩.
(4) السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٩.
(5) السيوطي، ج٢، ص١١-١٣.

الخلافة بقتال الفرنج "ويتلوه جهاد العدو الكافر في مواقف القتال، وأمير المؤمنين يعرفك من ثوابه ما يجعل السيف في ملازمته أخا.. ولا عذر لك في ترك جهاده بنفسك ومالك، إذا قامت لغيرك الأعذار، وأمير المؤمنين لا يرضى منك أن تلقاه – أي العدو– مصافحا، أو تطرق أرضه مماسيا أو مصابحا، بل يريد أن تقصد البلاد التي في يده قصد المستغير لا قصد المغير، وأن تحكم فيها بحكم الله الذي قضاه على لسان سعد في بني قريظة والنظير، وعلى الخصوص البيت المقدس فإنه بلاد الإسلام القديم، وأخو البيت الحرام في شرف التعظيم الذي توجهت إليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم... فانهض إليه نهضة متوغل في فرحه، وتبدل صعب قيادة بسمحة، إن كان له عام حديبية فاتبعه بعام فتحه"[1].

بهذا التقليد يصبح الملك الناصر صلاح الدين الحاكم الفعلي لمصر وبلاد الشام، باستثناء حلب التي بقيت بيد الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود حتى وفاته سنة (٥٧٧هـ/ ١١٨١م) [2]، إلى جانب المناطق التي سيطر عليها الفرنج، ولتبدأ المرحلة الثانية من جهاد الفرنج لتحرير الساحل الشامي، والقدس الشريف بناء على نص كتاب التقليد من الخلافة العباسية. وأخذ الملك الناصر صلاح الدين يطلع الخلافة بتحركاته ضد الفرنجة، ولإدراكه لمدى القوى التي أخذت تتمتع بها الخلافة، وحرصا منه على نيل دعمها ومساندتها المعنوية، نجده يحاول استقطاب رجال الإدارة العباسية، ومراكز القوى فيها "وكان السلطان قد نفذ معه –القاضي شهاب الدين الشهروزي[3]– على عادة إنفاذه في كل سنة إلى أعيان العراق وأماثله، وأكارمه، وأفاضله، والعلماء، والشعراء، والقراء، والمتصوفة، من الفقراء عطايا وهدايا وخلعا وتشريفات سنايا، وربما بلغ المبلغ ألوفا يسدى بها إلى ذوي المعروف معروفا"[4].

---

(1) نفس المصدر، ج٢، ص١٣-١٤.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٣٥-١٣٣.

(3) قاضي القضاة أبو القاسم بن يحيى بن عبدالله الشهرزوري، ت٥٩٩هـ/ ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٠٢-١٠٢.

(4) الأصفهاني، البرق الشامي، ج٣، ص٨-٨٩.

الخلافة العباسية والدولة الخوارزمية

عمل الخوارزميين منذ نشأت دولتهم، على إضفاء الصفة الشرعية عليها من خلال اتصالهم بالخلافة العباسية، للحصول على تقليد يخولهم حكم البلاد التابعة لهم، وبدأت اتصالاتهم هذه في عهد الخليفة المقتفي لأمر الله، عندما وصلته رسالة علاء الدين اتسز (٥٢١-٥٥١هـ/ ١١٢٧-١١٥٦م) يطلب فيها تقليده البلاد التابعة له وإضفاء الصفة الشرعية على حكمه لهذه البلاد.

ويتضح من الرسائل المتبادلة بين الطرفين حرص الخوارزميين على إبقاء علاقة الود والاحترام والتبعية مع الخلافة العباسية، وقد حفظ لنا رشيدالدين بن الوطواط كاتب الإنشاء في البلاط الخوارزمي مجموعة من هذه الرسائل والتي أماطت اللثام عن طبيعة هذه العلاقة بين الخلافة العباسية والدولة الخوارزمية في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الدولة الخوارزمية، في الوقت الذي أحجمت المصادر المعاصرة لتلك الفترة عن الحديث عن تلك العلاقات، اللهم إلا في عهد الخليفة الناصر لدين الله، كما ما سنرى في الفصل الرابع.

لم تختلف الرسالة التي بعث بها خوارزم شاه أيل بن أتسز (٥٥١-٥٦٨هـ/١١٥٦-١١٧٢م) للخليفة المستنجد بالله في مضمونها عن الرسائل التي بعث بها والده اتسز للخليفة المقتفي لأمر الله، والتي يظهر به ولاءه للخلافة العباسية.

جاءت رسالة خوارزم شاه أيل للخلافة العباسية، والتي يرجح أنه بعث بها في أواخر سنة (٥٥٥هـ/١١٦٠م) أو السنة التي تليها ليؤكد على ولاءه للخلافة، فقد عبر فيها عن مدى حزنه وألمه لموت الخليفة المقتفي لأمر الله، وقدم تعازيه وتعازي أهل خوارزم للخليفة الجديد المستنجد بالله، وعدها فاجعة فجع بها المسلمون "ومصيبة المسلمين -سقى الله روضته وأفاض عليه رحمته- مصيبة عمت مشارق الدنيا ومغاربها... فلم ير أحد من المسلمين إلا وقد طار سهاده، وزال رقاده، وحل

عناءه، وقل عزاءه"[1]. ثم يستدرك خوارزم شاه أيل بأن هذه المصيبة التي فجع بها المسلمون قد خفت وطأتها، وتبدل حزن الأمة إلى فرح "ببركات نهوض مولانا وسيدنا الإمام المستنجد بالله أمير المؤمنين، وخليفة رسول رب العالمين، أعلى الله كلمته، وزاد في الدين والدنيا عظمته، بأعباء عهده، بسعادات جلوسه على سرير الخلافة ثبته الله من بعده، أطفأت ذلك الجمر، وتداركت ذلك الأمر، وفرغت القلوب المشتغلة، وسكنت الكروب المشتعلة"[2].

ثم يبين خوارزم شاه أيل ولاءه للخلافة من خلال الإجراءات التي قام بها بمجرد ورود نبأ موت الخليفة المقتفي لأمر الله "أمر العبد –أيل- جميع أهل الولاية بعقد مجلس العزاء والمبالغة في عد تلك المناقب والالاء، كما كان الدين يقتضيه، والإسلام يرتضيه، فجلسوا ثلاثة أيام... ثم بعد ذلك طويت مفارش التعزية، ونشرت أعلام التهنئة، وأصبح الناس يتباشرون بجلوس مولانا وسيدنا الإمام المستنجد بالله أمير المؤمنين... فزينت الخطبة بميامن اسمه وحليت السكة بمحاسن رسمه"[3].

وبعد ذلك يقدم خوارزم شاه أيل اعتذاره للخليفة المستنجد بالله لعدم قدرته على المجيء بنفسه لحاضرة الخلافة العباسية لتقديم التعازي بموت الخليفة المقتفي لأمر الله، والتهنئة للخليفة المستنجد بالله نتيجة الأخطار التي تتهدد خوارزم "ولولا مواظبة العبد على حفظ خوارزم التي هي خطة متصلة ببلاد الترك ملتصقة بديار الشرك يهجم عليها إن غاب العبد عنها، أهل الكفر وينالونها لانالوا المنى بالناب والظفر، لكان هو اسبق وافد، وأسرع وارد على المواقف المقدسة النبوية –قدسها الله- ماشيا إليها برأسه دون قدمه مقيما فيها رسم التعزية

(1) ابن الوطواط،ا لرسائل، ص٢٥/ عبود، الدولة الخوارزمية، ص٧٧.
(2) نفس المصدر، ص٢٥.
(3) نفس المصدر، ص٢٦.

والتهنئة بنفسه لا قلمه، لكن العذر لائح والمانع واضح، وكرم مولانا وسيدنا المستنجد بالله أمير المؤمنين، خليفة رب العالمين... خليق لقبول الأعذار"[1].

وبعد أن قدم خوارزم شاه تعزيته، وتهنئته، وبين للخلافة انه لا زال على طاعته وولاءه للخلافة العباسية، من خلال الخطبة للخليفة، وضرب اسمه على السكة، طلب من الخليفة المستنجد بالله تجديد التقليد لحكم البلاد التابعة له "هذا والعبد مع تنازح الديار وتباعد المزار، منتظر لوصول الأوامر العالية، متطلع إلى ورود الإشارات السامية نفذها الله في أقطار الأرض شرقا وغربا، وبعدا وقربا ليظهر في امتثالها شعار الإخلاص، ويبرز في الجري على مقتضياتها شواهد الاختصاص"[2].

وتبين لنا مجموعة رسائل رشيد الدين ابن الوطواط، أن الخلافة العباسية ممثلة بوزيرها ابن هبيرة بعثت برسول لخوارزم شاه أيل لأخذ البيعة منه، ومن رجالات واعيان خوارزم للخليفة المستنجد بالله، فقد جاء في الرسالة التي بعث بها خوارزم شاه ايل للوزير ابن هبيرة" وقد وصل إلي وورد علي في السنة الماضية -٥٥٥هـ- في المجلس العالي لا زال عاليا على يد إنسان يقال له سعد الدولة[3]، زعم أنه من مشاهير حضرة العراق -حرسها الله- كتاب كريم... والذي أشار إليه المجلس العالي -لا زال عاليا- في أثناء كتابه، وأدراج خطابه من اخذي البيعة لمولانا وسيدنا الإمام المستنجد بالله أمير المؤمنين، وخليفة رسول رب العالمين... على نفسي ثم على من تبعني من سروات هذه الأقطار، ورجالات هذه الأمصار"[4] وقد جاء رد خوارزم شاه على رسالة الوزير ابن هبيرة عن طريق حاجبه كامل الدين محمود، مؤكدا فيها على ولاءه وطاعته للخلافة العباسية، وتجديده البيعة للخليفة

(1) نفس المصدر، الرسائل، ص٣٦/عبود، الدولة الخوارزمية، ص٧٨.
(2) ابن الوطواط، ص٢٦-٢٧.
(3) هو سعد الدولة نظر المستنجدي الحبشي، احد مماليك المستنجد بالله. الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة ٥٧٥هـ ص٣٦.
(4) ابن الوطواط، ص٣٢/ عبود، الدولة الخوارزمية، ص٧٨.

المستنجد بالله بقوله: "فذاك –البيعة– مفزوع عنه لأني أحببت تلك الدعوة المرشدة، وأحببت تلك البيعة المسعدة، من آبائي الصالحين وأسلافي الناصحين... وهذه سنة أتسزية –إشارة لوالده اتسز– عليها غرس نبعي، وأس طبعي، وبها شد ديني... وأما خطبة هذه الخطبة وشحتها ووشيتها، وسكة هذه البقعة، فقد زينتها وحليتها بميامن إسم مولانا وسيدنا الإمام المستنجد بالله أمير المؤمنين"[1]. ويعتذر خوارزم شاه ايل لتأخره عن بيعة الخليفة "لانقلاب الممالك، واضطراب المسالك، والتهاب الفتن في البلاد"[2].

يتضح من خلال الرسائل المتبادلة بين الخلافة العباسية والدولة الخوارزمية، منذ عهد الخليفة المقتفي لأمر الله، حرص الدولة الخوارزمية على ولائها للخلافة العباسية، من خلال تجديد البيعة للخلفاء العباسيين المتعاقبين سواء بذكر أسماء الخلفاء على منابر خوارزم، أو نقش أسمائهم على السكة، إلا إن هذه العلاقات أخذت بالتوتر في عهد الخليفة الناصر لدين الله، كما سنرى في الفصل الرابع.

وفي ختام حديثنا عن علاقات الخلافة العباسية، بقوى الأطراف يتضح مدى التطور الذي طرأ على نفوذ وسلطات الخلفاء في هذه الفترة، سواء بما يتعلق بالخطر السلجوقي، والذي استطاعت الخلافة أن تؤكد سيطرتها على العراق عندما ردت بعض المحاولات من قبل الملوك والأمراء السلاجقة، لإعادة سيطرتهم على الخلافة.وبذلك أكدت أن انتصارها في عهد الخليفة المقتفي على السلاجقة لم تكن سياسة انتهجها هذا الخليفة وانتهت بنهايته، وإنما سياسة ثابتة انتهجتها الخلافة، كان محورها السيطرة على العراق كخطوة أولى لمحاولات أخرى من اجل فرض هيبة الخلافة، ومد نفوذها إلى سائر البلاد الإسلامية، وهذا ما سعى إلية الخليفة الناصر لدينا لله فيما بعد.

---

(1) نفس المصدر، ص٣٢.

(2) نفس المصدر، ص٣٢، وعن حروب خوارزم شاه، أنظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٦٩-٧٠ عبود، الدولة الخوارزمية.

أما فيما يتعلق بعلاقات الخلفاء بولاتهم كنور الدين زنكي، ومن بعده صلاح الدين الأيوبي، أو مع الدولة الخوارزمية، فقد جاءت لتعبر عن مدى النفوذ الذي بدأت تتمتع به الخلافة من خلال توجيه هؤلاء الولاة لتنفيذ أهداف الخلافة وسياستها، والتي تجلت بتنفيذ نور الدين زنكي لطلبها بإسقاط الخلافة الفاطمية في مصر، وإعادتها لحظيرة الخلافة العباسية، ثم توجيه صلاح الدين الأيوبي وحضه على الجهاد لتحرير الساحل الشامي، والقدس الشريف، وقد حقق في ذلك نجاحا كبيرا، توج بفتح بيت المقدس في عهد الخليفة الناصر لدين الله.

الفصل الرابع

الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ/ ١١٧٩-١٢٢٥م)
ودوره في استقلال مؤسسة الخلافة وعلاقته بقوى الأطراف

وصول الناصر لدين الله للخلافة

بويع أبو العباس احمد بالخلافة، صبيحة يوم الأحد غرة ذي القعدة سنة ٥٧٥هـ/ آذار ١١٧٩م، وهو اليوم الذي مات فيه والده المستضيء بأمر الله، ولقب بالناصر لدين الله، ونقش على خاتمه "رجائي من الله عفوه"(١).

ومع أن الناصر لدين الله كان وليا لعهد أبيه، إلا أن اختياره، جاء نتيجة الصراع الخفي بين رجال الإدارة العباسية، إذ انقسموا إلى فريقين، فريق يؤيد تولية أبي العباس احمد، ويتزعم هذا الفريق مجد الدين ابن الصاحب الشيعي(٢). أستاذ دار الخلافة، وحظية المستضيء بأمر الله السيدة بنفشا. والفريق الآخر، يؤيد تولية أخيه أبي منصور هاشم(٣)، ويتزعم هذا الفريق، النائب في الوزارة ابن العطار السني الحنبلي(٤).

ويتضح من خلال الشخصيات الرئيسة في هذا الصراع، أن الأمر كان صراعا بين السنة والشيعة داخل الإدارة الخلافية، ممثلا بأستاذ الدار الشيعي، ونائب الوزارة السني الحنبلي، والذي حسم في نهاية المطاف لصالح الشيعة، وذهب ابن العطار ضحية هذا الصراع، إذ قتل على يد ابن الصاحب سنة (٥٧٥هـ/ ١١٧٩م) (٥). ومما يؤكد ذلك المكانة التي حظي بها ابن الصاحب لدى الخليفة الناصر لدين الله، إذ أصبح الرجل الأول في إدارة الخليفة، وكان لموقعه هذا

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٤٨/ ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص٢٤٢-٢٤٣/ الإربلي، خلاصة الذهب، ص٢٨٠/ الصفدي، نكت العميان، ص٣٩/ حمارنة، وقفة عند الخليفة العباسي الناصر لدين الله، ص١٤٢.

(2) مجد الدين هبة الله بن علي، ولي استاذ دار الخلافة في عهد المستضيء، وكان شيعياً، ومن المقربين للخليفة الناصر، وهو الذي تولى اخذ البيعة له، قتل سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، على يد عبيدالله بن يونس. انظر، ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٨٩، الذهبي، سير، ج٢١، ص١٦٤-١١٦٥/ ابن أبي عذيبة، إنسان العيون في مشاهير سادس القرون، ق٧٠-٧١.

(3) أبو المنصور هاشم بن المستضيء، أخو الإمام الناصر، مات ٥٧٨هـ ١١٨٣م، سبط بن الجوزي، ج٨ ق١، ص٣٧٣.

(4) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة ٥٧٥هـ /سير، ج٢٢، ص١٩٣-١٩٤.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٣٥٨-٣٥٩/ الذهبي، سير، ج٢١، ص٨٤-٨٥.

والصلاحيات الواسعة التي بدأ يمارسها، أثر كبير في بروز التشيع ببغداد، "وظهر التشيع بسبب ابن الصاحب، ثم انطفى بهلاكه"[1]. وسنناقش سياسة الناصر المذهبية، وبشيء من التحليل في الصفحات القادمة.

وبعد ما استقر الأمر للخليفة الناصر لدين الله، خلع على جميع أرباب الدولة، "وسيرت الرسل إلى الأفاق لأخذ البيعة"[2].

شخصية الناصر لدين الله

اختلف المؤرخون في وصف شخصية الناصر لدين الله، فمنهم من وصفه بالخليفة الفذ الذي استطاع أن يجنب العراق القوى الطامعة فيه، ويجعل منه بلداً آمناً يعيش الناس فيه برخاء وأمن "فزال ببركة خلافته المقدسة عنهم البؤس والبأس وعاد الناس إلى صحة وخصب"[3]. ويضيف الرحالة ابن جبير الذي زار العراق زمن الناصر – سنة ٥٨٠هـ: "وهو –أي الناصر– ميمون النقيبة عندهم قد استسعدوا بأيامه رخاءاً وعدلاً وطيب عيش فالكبير والصغير منهم داع له"[4]. أما الموفق البغدادي فيصف الناصر بقوله: "ولم يزل الإمام الناصر مدة حياته في عز، وجلالة، وقمع الأعداء، واستظهار على الملوك، لم يجد ضيماً، ولا خرج عليه خارجي إلا قمعه، ولا مخالف إلا دمغه"[5].

ويتفق الباحث حسين أمين مع هذا الرأي فيصف عهد الناصر لدين الله بقوله: "بلغت الخلافة العباسية في عصورها الأخيرة، قمة مجدها من النفوذ والقوة"[6]. ويضيف "وسيكون لهذا الخليفة النصيب الأوفر في القضاء على

(1) الموفق البغدادي، الناصر لدين الله، ص١٠٧، وانظر، ابن الأثير، ا لكامل، ج٩، ص١٨٩.
(2) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٤/ وانظر، الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٥٧٥، ص٣٨.
(3) الذهبي، المختصر المحتاج إليه "المستدرك"، ج١، ص٣٥.
(4) ابن جبير، الرحلة، ص١٧٥.
(5) الموفق البغدادي، ص١٠٨.
(6) امين، تاريخ العراق، ص١٦٦.

النفوذ السلجوقي، وتحرير العراق نهائياً من الآثار البغيضة، ومن أي مظهر من مظاهر السيطرة والنفوذ"(1).

أما ابن الأثير فيرى غير هذا الرأي، ويصف خلافة الناصر لدين الله بقوله: "وكان قبيح السيرة في رعيته،ظالماً فخرب في أيامه العراق، وتفرق أهله في البلاد، فأخذ أملاكهم، وأموالهم"(2).

يتضح من هذه الآراء التي ساقها المؤرخون، أن شخصية الناصر شخصية خلافية، اختلف في تقييمها وتقييم المرحلة التي جاء بها، ومرد ذلك لعدم فهم السياسات المتباينة التي مارسها الناصر طيلة فترة خلافته، إلى جانب طبيعة المرحلة التي تولى بها الخلافة، والتي تعرض العراق فيها لأخطار متعددة، هددت استقلاله، واستقلال الخلافة. وبالنسبة للسياسات التي مارسها الناصر، وطبيعة المرحلة التي جاء بها فسنتركها للصفحات القادمة، وسنحاول أن نزيل هذا التناقض عن الناصر من خلال تحليلنا لشخصيته، يصف الموفق البغداد شخصية الناصر بقوله: "كان الناصر لدين الله شابا مرحا عنده ميعة الشباب يشق الدروب والأسواق أكثر الليل، والناس يتهيبون لقياه"(3). إن هذا الوصف ينسحب على الناصر في بداية عهده، فقد تولى الخلافة وعمره حينذاك اثنتان وعشرون سنة، وامتد به العمر إلى أن وصل إلى سن التاسعة والستين، وبذلك يكون الناصر، قد مكث في الخلافة سبعا وأربعين سنة، مارا بأطواره الثلاثة في الخلافة، شابا، ورجلا، وشيخا، وقد لعبت هذه الأطوار دورا مهما في خلافته، بحيث انعكست على سياساته، ولا نقصد هنا أن مروره بهذه الأطوار، قد انعكست عليه سلبيا، وإنما جعلته أكثر دراية، وحنكة وتجربة في إدارة الدولة، ومما يؤكد وضوح الرؤيا والهدف لدى هذا الخليفة، وصف الموفق البغدادي لخلافته "وظهر التشيع بسبب ابن الصاحب ثم

(1) نفس المرجع، ص١٦٧.
(2) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٦١/ وانظر، الذهبي، سير، ج٢٢، ص٢٠٠/ ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ج١٣، ص١١٥/ المقريزي، السلوك، ج١، ص٢١٨.
(3) موفق البغدادي، ص١٠٧.

انطفى بهلاكه، وظهر التسنن المفرط ثم زال، وظهرت الفتوة والبندق والحمام الهادي"[1]. فالمتتبع لخلافة الناصر، يجد فكرة رئيسة استحوذت على هذا الخليفة، وهي فرض هيبة الخلافة، وتوسيع رقعة نفوذها لمعظم البلدان الإسلامية، فكان تقسيم الموفق البغدادي لعهد الناصر من التشيع، إلى التسنن ثم الفتوة، يندرج تحت تحقيق الفكرة السابقة، وجاء تناقض المؤرخين في وصف شخصية الناصر، منطلقاً من عدم فهم سياساته التي كان يمارسها، والتي جاءت منسجمة مع واقع الحال، وتطورات الأحداث في عصره، من أجل تحقيق هدفه، في بسط نفوذ الخلافة، ويعطينا ابن الطقطقي وصفا دقيقا وعميقا للخليفة الناصر لدين الله، يقول: "كان الناصر، من أفاضل الخلفاء، وأعيانهم، بصيرا، مجربا، سائسا، مهيبا، مقداماً، عارفا، شجاعاً، متأيدا، حاد الخاطرة والنادرة، متوقد الذكاء والفطنة،بليغا غير مدافع عن فضيلة علم، ولا نادرة فهم. يفاوض العلماء مفاوضة خبير، ويمارس الأمور السلطانية ممارسة بصير... وكان باقعة زمانه، ورجل عصره"[2]. وستتضح لنا شخصية الناصر بكل أبعادها من خلال الإجراءات التي قام بها من أجل إعادة نفوذ الخلافة وفرض هيبتها في الصفحات القادمة.

سياسة الناصر الداخلية

أمضى الخليفة الناصر لدين الله طيلة فترة خلافته، في العمل على توطيد أركان الخلافة، وبسط نفوذها، وقد نجح في ذلك نجاحا كبيرا. ومن أجل تحقيق هذا الهدف اتبع سياسات متعددة،ومتباينة، فرضتها عليه في كثير من الأحيان طبيعة القوى التي تعامل معها، سواء كانت هذه القوى داخلية، ممثلة بخصوصية التركيبة الاجتماعية والمذهبية في العراق، أو خارجية. تتعلق بقوى الأطراف، وموقفهم تجاه الخلافة.

---

(1) نفس المصدر، ص١٠٧.
(2) ابن الطقطقي، الفخري، ص٣٢٢.

فقد أدرك الخليفة الناصر لدين الله ابتداءا، أن تحقيق هدفه، في بسط نفوذ الخلافة، وضرب أية قوة تحاول السيطرة على العراق، والتحكم في الخلافة، يأتي من خلال تماسك جبهته الداخلية، وذلك بتوحيد جميع القوى داخل بغداد والعراق عامة، وحتى يحقق هذا الهدف نجد الناصر يتصدى لإدارة شؤون الخلافة بنفسه دون إعطاء صلاحيات واسعة لرجال إدارته، تعطيهم الفرصة للتحكم في شؤون الدولة، وعلى ما يبدو أن صراع رجال الإدارة في عهد والده المستضيء بأمر الله، جعلته أكثر حيطة وحذرا في التعامل مع رجال إدارته، "وكان مع سعادة جده شديد الاهتمام بمصالح الملك لا يخفي عليه شيء من أحوال كبارهم، وصغارهم"[1]. ويبدو أن الناصر أراد فرض هيبته على الرعية ورجال إدارته، وملوك الأطراف، باهتمامه وحرصه الشديد لمعرفة دقائق الأمور في سائر أنحاء الخلافة، بتبنيه لنظام العسس، فقد أمر عيونه ورجاله الذين بثهم في أحياء بغداد ودروبها، بتزويده بأحوال الناس وأخبارهم على شكل تقرير يومي يأتيه كل صباح[2]. ونتيجة اهتمام الناصر بجمع المعلومات بشتى الوسائل والطرق، ومعرفته لدقائق الأمور، التي تحدث في العراق، بحيث أصبح لا يخفى عنه من الأمور إلا ما قل، حتى أن أهل العراق كان احدهم يخاف أن يتحدث مع زوجته في منزله بما يظن أن الخليفة إذا بلغه عاقبه عليه[3]، بل ذهب الأمر إلى أبعد من ذلك، فقد ذكر بعض المؤرخين أن الناصر يعلم الغيب، وأنه مخدوم من الجن، وهذا ما جعل الموفق البغدادي، يقول عن الناصر، كأنه يرى البلاد جميعها دفعة واحدة[4]. إن هذه الحالة التي تشكلت حول شخصية الناصر، كان الهدف منها فرض هيبته على الرعية، ورجال إدارته، وحكام الأطراف وقد نجح في ذلك، فقد وصفه ابن واصل بقوله: "وكانت هيبته

(1) الموفق البغدادي، ص١٠٨.
(2) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٦٢/ ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ج١٣، ص١١٥.
(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص١٩٣.
(4) الموفق البغدادي، ص١٠٨-١٠٩/ سير، ج٢٢، ص١٩٥-١٩٦.

عظيمة جداً"[١]. أما الموفق البغدادي، فيقول: "والناس يتهيبون لقياه"[٢]. وقد وصل الأمر بملوك الأطراف إذا ما ذكر الناصر بمجالسهم "خفضوا أصواتهم هيبة وجلالا"[٣].

وارتبطت سياسات الناصر الداخلية بثلاثة محاور رئيسة، تمثلت بسياسته الدينية والمذهبية، ثم سياسته الاجتماعية، وأخيرا إحيائه لنظام الفتوة.وقبل مناقشة هذه المحاور لا بد أن نتعرف، على ساسة الناصر التي اتبعها مع وزرائه، والذي سيعتمد عليهم في إحيائه لمؤسسة الخلافة، فقد حدد الناصر لوزرائه أدوار رئيسة سيلعبها هؤلاء الوزراء، دون أن يكون لهم دور في صياغة توجهات الدولة، إذ جعلهم الناصر، وزراء تنفيذ لا وزراء تفويض.

اعتمد الناصر على عدد كبير من الوزراء ونواب الوزراء في تنفيذ سياساته، ولا أدل على سياسته الحازمة مع وزرائه، من مقولة ابن دحية: "وأوقع بوزراء السوء على الإطلاق"[٤]. ومع أن الناصر عين في وزارته خمسة عشر وزيراً، ونائب وزير، إلا أنه لم يحمل منهم سوى أربعة فقط لقب وزير، بينما حمل الباقون لقب نائب وزير[٥].

وكان وزراء الناصر يمرون قبل تعيينهم في إدارته، باختبار دقيق، فقد ذكر ابن الطقطقي، أن الناصر إذا أراد تعيين أحد الأشخاص في إدارته سواءا كان وزيرا أو نائبا للوزارة، كان يأمر عيونه بترديد اسم هذا الشخص بين الناس، وأنه سيستلم إحدى المناصب في إدارة الخليفة، ثم يأمرهم بجمع الأخبار حول رأي الناس في هذا الشخص، فإذا جاءت الأخبار بما ينسجم واختيار الخليفة قام

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص ١٩٣.
(2) الموفق البغدادي، ص١٠٧.
(3) نفس المصدر، ص١١١.
(4) فوزي، النهوض العربي، ص١٥٥، نقلا عن ابن دحية، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس.
(5) الاربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص٢٨٣/ ابن الطقطقي، الفخري، ص٣٢٣-٣٢٨/ فوزي، النهوض العربي، ص١٥٦/ Rashad, the Abbasid Caliphate,p.77.

بتعيينه[1]. ويبين هذا الأمر مدى حرص الناصر على رضا الرعية عن رجال إدارته، ويؤكد ذلك انه عزل وزيره نصير الدين بن مهدي[2] عندما "هجاه أهل بغداد وكتبوا الأشعار، وأوصلوها إلى الخليفة، فكانت سبب حتفه، لأن الخليفة قال ما كتبوا هذا إلا وقد اهلك الحرث والنسل"[3].

وأنيطت بوزراء الناصر مهام متعددة، سواء في إدارة دواوين الدولة، أو قيادة جيوش الخلافة، وبذلك يكون وزراء الناصر وزراء السيف والقلم معا، من أمثال الوزير ابن يونس[4]. وابن القصاب[5]. وابن مهدي وغيرهم.

سياسة الناصر الدينية

أُخذ على الناصر ميله للشيعة، بل وصفه البعض بالتشيع "وكان الناصر لدين الله يتشيع، ويميل إلى مذهب الأمامية[6]" واستنادا إلى ما قاله الموفق البغدادي

---

(1) ابن الطقطقي، الفخري، ص٣٩/ فوزي، النهوض، العربي، ص١٥٥.

(2) هو نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي، أصله من مازندران، عينه الخليفة ابتداء نقيبا للطالبيين، ثم فوض إليه أمور الوزارة نيابة من سنة (٥٩٧-٦٠٢هـ/ ١٢٠٠-١٢٠٥م) ثم الوزارة كاملة من سنة (٦٠٢-٦٠٤هـ/ ١٢٠٥-١٢٠٨م)، مات ابن مهدي سنة (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م). انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٩٧، ٣٤٥/ سبط بن الجوزي، ج٨، ق٢، ص٥٣٣-٥٣٤/ ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٤٤، ١٦٨.

(3) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٣٣-٥٣٤.

(4) أبو المظفر عبيدالله بن يونس (٥٨٣-٥٨٥هـ) كان أحد الشهود المعدلين في بغداد تقلد وزارة الخليفة الناصر لدينا لله، أرسله الخليفة على رأس جيش لقتال السلطان طغرل الثالث السلجوقي فهزم ووقع في الأسر مدة ثم أطلق. انظر، ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٩٧/ ابن الطقطقي، الفخري، ص٣٢٣.

(5) مؤيد الدين أبي المظفر محمد بن أحمد القصاب، أصله من شيراز ناب في وزارة الناصر إلى أن خلع عليه خلع الوزارة سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م، مات سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٤م. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٣١-٢٣٢/ ابن الطقطقي، ص٣٢٤/ الذهبي، المختصر، المحتاج إليه "المستدرك"، ج١، ص٢٩-٣٠.

(6) الأمامية، فرقة من فرق الشيعة ترى بإمامة علي بن أبي طالب، وينطلقون من أن الإمامة نص ظاهر، وأن النبي (ص) قد صرح بها لعلي بن أبي طالب في مواضع علة تعريضا وتصريحا، ويرون أن أمر الإمامة لا يجوز أن يترك للأمة. الشهرستاني، الملل والنحل، ص١٦٢.

عن بداية عهد الناصر من ظهور التشيع، ورد ذلك لابن الصاحب الشيعي، والذي كان يشغل أستاذية دار الخلافة، فإننا نرى هذه المقولة اقرب إلى الدقة، مما ذكره المؤرخون، عن تشيع الناصر، وأخذه برأي الأمامية، فهذه المقولة مجانبة للحقيقة، إذ لو كان الإمام الناصر، يرى رأي الفرقة الإمامية لما صحت خلافته لأن هذه الفرقة ترى أن الإمامة قد نص عليها لعلي بن أبي طالب –رضي الله عنه– بالتعريض وبالتصريح[١]، ومن وجهة النظر هذه، فإن خلافة العباسيين باطلة، ولا يعقل أن يتبنى خليفة عباسي هذا الرأي.

واعتاد المؤرخون على وصف بداية عهد الخليفة الناصر لدين الله بظهور التشيع بشكل كبير، بسبب المكانة التي حظي بها أستاذ الدار الشيعي ابن الصاحب في إدارة الخليفة حتى سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م)، مستندين على مقولة الموفق البغدادي: "وظهر التشيع بسبب ابن الصاحب، ثم انطفى بهلاكه"[٢]. ومع وجاهة هذا الرأي إلا أن الأمر ليس كما صوره البغدادي تماما، كما أننا لا نميل إلى التحديد الزمني في هذا الأمر، وإلا كيف نفسر وصول ناصر بن مهدي الشيعي لنيابة الوزارة سنة (٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، ثم خلع عليه خلع الوزارة الكاملة سنة (٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م) [٣].

كما أن بروز التشيع في عهد الناصر، لم تكن سياسة انتهجها ابن الصاحب من تلقاء نفسه، فهذا الأمر لا ينسجم وشخصية الناصر وفلسفته في إدارة الدولة، والتي ارتكزت على معرفة دقائق الأمور وأبسطها في دولته، فلا يعقل أن تتوجه الدولة في سياستها المذهبية هذا الاتجاه دون علم الخليفة، بل دون موافقته، وعلى ما يبدو أن الخليفة أراد من وراء ذلك كسب الشيعة إلى جانبه، من خلال إعطاء ابن الصاحب صلاحيات واسعة تجعله قادرا على حمايتهم ومنحهم

---

(1) الشهرستاني، الملل والنحل، ص١٦٢–١٦٣/ المقريزي، الخطط، ج٢، ص٣٥١.
(2) الموفق البغدادي، ص١٠٧.
(3) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٤٤، ١٦٨/ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨ ق٢، ص٣٤٠.

حرية تامة في ممارسة شعائرهم الدينية دون خوف أو وجل، وحتى يظهر الخليفة للشيعة، أنه لا يفرق بين رعاياه سنة كانوا أو شيعة، ولتزداد ثقتهم بالخلافة، نجد الناصر يسمح بذكر اسم ابن الصاحب على منابر بغداد بعد ذكر اسمه(١).

وبدأنا نلاحظ في هذه الفترة، ممارسة الشيعة لشعائرهم الدينية وبشيء من التعصب، وهذا طبع العوام، فقد أخذوا يسبون الصحابة، قائلين، "لم يبق كتمان بعد اليوم"(٢). وجعل الناصر سنة (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) مشهد الجواد أمنا لمن لاذ به(٣). وبذلك يظهر الناصر تسامحا كبيرا مع الشيعة.

وهذا الأمر لا يعني بالضرورة انحياز الخليفة الناصر للشيعة دون السنة، ففي تلك الفترة أيضا كان الشيخ عبدالرحمن بن الجوزي السني الحنبلي يلقي مواعظه بحضور الخليفة ووالدته، وكبار رجال الدولة بباب بدر في سلحة دار الخلافة(٤). كما كانت المدرسة النظامية تعج بعلماء السنة الذين كانوا يلقون مواعظهم كرضي الدين القزويني رئيس الشافعية في المدرسة المذكورة(٥).

لقد ارتكزت سياسة الناصر المذهبية في تعامله مع الشيعة والسنة على مبدأ انه خليفة المسلمين جميعا بصرف النظر عن مذاهبهم، وهذا ما جعله ينتهج سياسة التسامح مع الشيعة، حتى بعد مقتل ابن الصاحب سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) على يد عبيد الله بن يونس السني الحنبلي(٦)، فلم تسجل حوادث ذات شأت عن اضطهاد الشيعة، مما يؤكد أن سياسة التسامح التي انتهجها الناصر مع الشيعة كانت سياسة ثابتة، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، عندما بدأ بمحاولة تقريب وجهات النظر بين السنة والشيعة، ففي سنة (٦٠٨هـ/ ١٢١١م): "أمر الخليفة أن يقرأ مسند الإمام احمد بن حنبل بمشهد الإمام موسى بن جعفر،وبحضرة صفي الدين محمد بن

---

(1) ابن جبير، ص١٧٥.
(2) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص١٨٦.
(3) الذهبي، سير، ج٢٢، ص٢٠٥.
(4) ابن جبير، ص١٧٠.
(5) نفس المصدر، ص١٦٧.
(6) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٨٩/ الذهبي، سير، ج٢٢، ٢٠٧.

سعد الموسوي، بإجازة من الخليفة، وأول ما قرأ منه مسند أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- وحديث فدك، وما جرى فيها"[1].

لقد جاءت سياسة الناصر المذهبية لتنسجم مع توجهاته في بناء جبهة داخلية متماسكة قدر الإمكان، يستطيع بها، تحقيق هدفه في إحياء مؤسسة الخلافة، وبسط نفوذها الديني والسياسي، على أكبر قدر ممكن من البلدان الإسلامية، وما لجوءه لإحياء نظام الفتوة إلا تأكيدا على هذه السياسة.

لم يكتف الخليفة الناصر بالعمل على تقريب وجهات النظر بين السنة والشيعة وهم أكبر فئتين في العراق لخدمة هدفه، فحسب بل نجده يتقرب من جميع التيارات الفكرية والدينية في عهده، ويفرض احترامه على الفقهاء والعلماء.فقد أظهر احتراما منقطع النظير للصوفية، حتى بلغ من زهده، أنه بنى رباطا في بغداد، وهو رباط المرزبانية على شاطئ نهر عيسى "وعزم على أن ينقطع فيه ويترك الخلافة زاهدا في الدنيا، وأنشأ في ذلك كتاباً بليغاً ليقرأ على الناس، ولقد وقف المشايخ بالعراق على نسخته"[2]. ولا نعتقد أن الخليفة كان جادا في مسألة ترك الخلافة، وإنما أراد من وراء ذلك إظهار مدى احترامه، وتدينه، للصوفية والرعية لتزداد مكانته وهيبته بين الناس.

ويذكر سبط بن الجوزي عددا كبيرا من الربط التي بناها الخليفة الناصر لدين الله، ليعزز من مكانته لدى الصوفية، لإدراكه ما لهذه الفئة من تأثير على العامة، إلى جانب المكانة التي حظوا بها لدى الملوك والأمراء المسلمين. فقد بنى في بغداد بمشرعة الكرخ رباط الأخلاطية، ورباط الحريم، ورباط المرزبانية الآنف الذكر، كما جعل دار والدته رباطا، ثم حول الدار المسماة بدار الملك رباطا أخرا، وقد انفق الناصر على هذه الأماكن أموالا عظيمة[3].

(1) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٥٦.
(2) الأربلي، خلاصة الذهب، ص٢٨٢/ وانظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة ٦٢٢، ص٩٢/ سير، ج٢٢، ص٢٠٢.
(3) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٦٣٧.

ولم يكتف الناصر بذلك بل نجده يتردد على ربط الصوفية حتى وصل بـه الأمر أن اتخذ لنفسه زيا كزي الصوفية، وبنى لنفسه دارا بجانب الرباط الـذي كـان يتردد إليه[1]. وحظي الشيخ شـهاب الـدين الـسهروردي[2] وهـو مـن كبـار رجـال الصوفية بعناية خاصة من الخليفة، ومما يدلل علـى ذلـك الربـاط الـذي بنـاه لهـذا الشيخ، وهو رباط المرزبانية، وأجـرى عليـه النفقـات، ثـم بنـى دارا ضـمت حمامـا وبستانا خصصها للـشيخ المـذكور[3]. وفي سـنة (٦٠١هـ/ ١٢٠٤م) أذن لـه الخليفـة بالجلوس بباب بدر لإلقاء مواعظـه[4]. وبلغـت مكانـة هـذا الـشيخ عنـد الخليفـة الناصر بحيث جعله رسوله لملوك الأطراف،وقد حظي الشيخ بعناية فائقة مـن قبـل هؤلاء الملوك[5].

ولإدراك الخليفة الناصر لدين الله ما للفقهاء والعلمـاء مـن دور في توجيـه العامة، من خلال اتصالهم المباشر معهم،سـواء في الجوامـع والمـساجد أو في دروس الـوعظ، فقـد أولى عنايـة كـبيرة بهـم، وبمؤسـساتهم، لاسـتثمار هـذه المؤسـسات وتوجيهها بما يخدم غرضه. ففي سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م) أمـر الناصـر بعمـارة خزانـة الكتب التابعة للمدرسة النظامية ببغداد، ونقل إليها من الكتب النفسية ألوفـا لا يوجد مثلها[6].

ونجد الخليفة يقتحم باب التـأليف والتـصنيف، إذ صـنف كتابـا روى فيـه الحديث أسماه "روح العارفين"، أجاز فيـه "لجماعـة مـن أهـل العلـم، وأصـحاب الحديث، وقرئ هذا الكتاب بجوامع مدينـة الـسلام، وغيرهـا مـن الـبلاد، وانتـشر وروى في الأفاق وسمع"[7]. وحـرص الناصـر علـى نـشر هـذا الكتـاب في مختلـف

---

(1) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة ٦٢٢، ص٩٢/ سير، ج٢٢، ص٢٠٢.
(2) عمر بن عبدالله بن عمويه بن عبدالله السهروردي، شيخ الشيوخ، مـات سـنة (٦٣٢هـ/ ١١٣٤م). ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ج١٣، ص١٤٩.
(3) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٧٤.
(4) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٤٥.
(5) الذهبي، المختصر المحتاج إليه، ص٢٩٣ Rashad, p.123.
(6) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٢٩/ نظمي زاده، كلشن خلفا، ص١٢٢.
(7) الاربلي، خلاصة الذهب، ص٢٨١.

الأمصار، فقد قرئ في بغداد في أكثر من مائة مسجد[1]. ثم أجاز روايته لعدد كبير من العلماء، وأصحاب الحديث، فأجازه لأصحاب المذاهب الأربعة في بغداد[2]. ولقاضي القضاة ابن الدامغاني، كما أجازه للملك العادل وأولاده[3].

ثم أمر الخليفة أن يبعث لجميع الأمصار، فوصل إلى الحرمين الشريفين عن طريق ابن النجار[4]. ثم إلى حلب بواسطة الشيخ السهروردي، وإلى بيت المقدس وهمذان، ونيسابور، ومرو، وأصفهان، ومصر[5].

وكان الخليفة الناصر لدين الله، يرمي بدخوله هذا الميدان إكتساب احترام ودعم المحدثين والعلماء السياسي، والديني، إلى جانب محاولته للحد من الخلافات المذهبية بين أصحاب المذهبين السني والشيعي[6].

سياسة الناصر الاجتماعية

جاءت سياسة الخليفة الناصر لدين الله الاجتماعية منسجمة مع السياسات المختلفة التي انتهجها في سبيل تماسك وتعزيز وحدة الجبهة الداخلية، ليصبح العراق أكثر قوة وتماسكا في التعامل مع الأخطار المحيطة به،وحديثنا عن سياسة الناصر الاجتماعية سينطلق من مقولة ابن الأثير في وصف سياسات الناصر المتباينة: "وكان –أي الناصر– قبيح السيرة في الرعية ظالما فخرب في أيامه العراق، وتفرق أهله في البلاد وأخذ أملاكهم، وكان يفعل الشيء وضده، فمن ذلك انه

---

(1) الذهبي، المختصر المحتاج إليه "المستدرك"، ص٣٧.
(2) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٤٣–٥٤٤.
(3) الذهبي، سير، ج٢٢، ص١٩٧.
(4) هو محمد بن محمود بن الحسن، أبو عبدالله البغدادي الحافظ، المحدث والمؤرخ له كتاب ذيل به على تاريخ بغداد، مات في بغداد، سنة ٦٤٣هـ ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ج١٣، ص١٨٠–١٨١.
(5) الموفق البغدادي، ص١١٠، الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة ٦٢٢، ص٨٨/ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، م٥، ج٥، ص١٦٧–١٦٨.
(6) Rashad, p.125-127.

عمل دور الضيافة يفطر الناس عليها في رمضان فبقيت مدة ثم قطع ذلك، ثم عمل دور الضيافة للحجاج فبقيت مدة ثم أبطلها، وأطلق بعض المكوس التي جددها ببغداد خاصة ثم أعادها"[1].

أن التعامل مع هذا النص بمعزل عن فهم سياسات الناصر المتعددة والغرض الذي رمى إليه، في إتباعه لهذه السياسات، يجعلنا نقف إلى جانب ابن الأثير في بعض ما ادعاه عن الناصر، بأنه ظالم، وصاحب سيرة قبيحة مع الرعية، ولكن إذا وضعنا هذا الوصف لسياسات الناصر في إطارها الصحيح، والذي تمثل في التعامل مع المتغيرات التي حدثت في العراق، سواءا على الصعيد الداخلي من خلال حاجته لجبهة متماسكة، في مجتمع تكاد الولاءات المذهبية تعصف به، إلى جانب حاجته إلى الكثير من الإمكانيات المالية والبشرية للتصدي للأخطار التي يتعرض لها العراق، فإننا نجد مبررا لهذه السياسات، التي بدت في ظاهرها متناقضة ولكن في جوهرها، جاءت لحاجات أملتها ظروف الخلافة.

ومع ذلك فإن ابن الأثير لم يكن دقيقا في وصفه للعراق، وعلى ما يبدو أن هذا المؤرخ، كان متحاملا بعض الشيء على الخليفة الناصر، فقد سيطرت عليه فكرة مفادها، أن الناصر كان وراء اجتياح التتار للعالم الإسلامي، أثناء صراعه مع الخوارزميين، وسنأتي على تفصيل ذلك، أثناء حديثنا عن علاقة الخلافة بالدولة الخوارزمية.

جاء وصفنا لابن الأثير بالتحامل على الخليفة الناصر مستندين على ما أورده ابن جبير، أثناء زيارته للعراق سنة (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م)، فقد قدم ابن جبير وصفا للعراق ومدنه وقراه وحالة الناس فيه، مغايرا تماما لوصف ابن الأثير، يقول ابن جبير: "وهو -أي الناصر- ميمون النقيبة عندهم، قد استسعدوا بأيامه رخاءا وعدلا وطيب عيش، فالكبير والصغير منهم داع له"[2].

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٦١.
(2) ابن جبير، ص١٧٥.

ويستطرد الرحالة الأندلسي في تقديم صورا زاهية لمدن العراق وقراه ومسالكه، التي تربط هذه المدن والقرى، والتي تدل على سعة العيش الذي كان يرفل به أهل العراق في عهد الناصر "والطريق من الحلة إلى بغداد أحسن طريق وأجملها، في بسائط من الأرض وعمائر، تتصل بها القرى يمينا وشمالا، ويشق هذه البسائط اغصان من ماء الفرات تتسرب بها، وتسقيها فمحرثها لا حد لاتساعه وانفساحه فللعين في هذه الطريق مسرح انشراح وللنفس مراح انبساط وانفساح، والأمن فيها متصل بحمدالله -سبحانه وتعالى-"[1].

ويعطينا ابن جبير وصفا دقيقا لطرق العراق ومسالك الحجاج والمسافرين وإجراءات الخلافة في المحافظة على أمنهم وسلامتهم، من خلال الرجال المنتشرين لحراسة الطرق والمسالك، دون التعرض لمتاع وأموال الحجاج والمسافرين" ومن جملة الدواعي لإفتراقهم -أي الحجاج- كثرة القناطير المعترضة في طريقهم إلى بغداد فلا تكاد تمشي ميلا إلا وتجد قنطرة على نهر متفرع من الفرات، فتلك الطريق أكثر الطرق سواقي وقناطير، وعلى أكثرها خيام فيها رجال محترسون للطريق اعتناءا من الخليفة بسبيل الحاج، دون اعتراض منهم لاستنفاع بكدية أو سواها"[2].

يتضح من هذا الوصف الدقيق، أن الرحالة ابن جبير قدم صورا حية عن مدى الإزدهار الذي كان يعيش فيه العراق في عهد الناصر لدين الله، وهذا الوصف مغاير تماما لما قدمه المؤرخ ابن الأثير والذي كان يعيش في الموصل.

ومع ذلك فإننا لا نقول أن الناس في العراق، كانوا يعيشون في أمان وازدهار تامين، فلا بد من بعض الهنات، وهذه حال الدول والممالك، وإذا أردنا أن نعلل بعض ما أورده ابن الأثير، حول إدعائه بتخريب الناصر للعراق، فإننا نقول، أن بعض الممارسات التي كان يمارسها، رجال الإدارة الخلافية في بعض الأحيان،

---

(1) نفس المصدر، ص١٦٢-١٦٣.
(2) نفس المصدر، ص١٦٣.

ألحقت بعض الأذى للناس، ومن ذلك ما أحدثه عامل الخليفة على نهر الملك، عندما استغل الفلاحين، وأجبرهم على العمل لحسابه الخاص، إلا أن رد الخليفة كان شديدا وحاسما وعندما علم بحقيقة أمره، فقد أمر بقطع يده عقابا له على استغلال نفوذه لخدمة أغراضه الشخصية[1].

وترد إشارة عندا بن الساعي أن ناظر نهر عيسى قد غرم أهل الأنبار أموالا طائلة بدية رجل مقتول، اضطر على أثرها أن ترك الأهالي محالهم وهربوا إلى هيت[2] والحديثة، والحلة، إلا أن الخليفة أنكر على الناظر ما قام به وأمره برد الأموال إلى أصحابها، وأن يكتفي بدية الرجل المقتول، وهي ألف دينار[3].

ولإدراك الخليفة الناصر لدين الله ما للمال من قيمة ودورا كبيرا في تحقيق هدفه في إحياء الخلافة، وبناء جيش قادر على حمايتها وبسط نفوذها، جاءت سياسته المالية الشديدة، بحيث جمع المل بشتى الوسائل والطرق، وألحق هذا الأمر بعض الأذى بالناس، نتيجة ارتفاع الضرائب، وهذا ما جعل ابن الأثير يقول: "وأطلق بعض المكوس التي جددها ببغداد خاصة ثم أعادها"[4]. فحاجة الخليفة للمال كانت تفرض عليه من حين إلى آخر فرض بعض الضرائب، ومن الأمثلة على السياسة المالية الشديدة، التي اتبعها الناصر، ما كان يحصله من قرية بعقوبا[5]، إذ ارتفع خراجها في عهد الناصر إلى ثمانين ألف دينار سنويا، بينما كان يحصل منها قبل عهده مبلغ عشرة آلاف دينار[6]. كما فرض بعض الضرائب الإضافية، فقد ذكر ابن الساعي أن الخليفة اسقط سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧) الضريبة التي أحدثها على

---

(1) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١١٥.

(2) هيت، بلدة على الفرات من نواحي بغداد، فوق الأنبار. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٤٢٠-٤٢١.

(3) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٩-٢٠.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٦١.

(5) بعقوبا، قرية كبيرة كالمدينة بينها وبين بغداد عشرة فراسخ، وهي من أعمال طريق خراسان. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٤٥٣.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٦٢.

عملية البيع والشراء، وقد بلغ ما كان يحصل من هذه الضريبة مائتي ألف دينار في السنة[1].

يتضح من نص ابن الأثير، ومن الحادثة التي أوردها ابن الساعي حول إسقاط ضريبة البيع والشراء، أن سياسة الناصر المالية لم تكن ثابتة، وإنما أملتها ظروف حاجته للمال من حين إلى آخر.

وعلى الرغم من ذلك، فقد حرص الناصر على توخي العدل في سياسته المالية، ولا أدل على ذلك من وصيته لصاحب المخزن آنذاك عبيدالله بن يونس "لا ينبغي لأرباب هذا المقام أن يقدموا على أمر لم ينظروا في عاقبته، فإن النظر قبل الإقدام خير من الندم بعد الفوات، ولا يؤخذ البراء بقول الأعداء فلكل ناصح كاشح، ولا يطالب بالأموال من لم يخن في الأعمال، فإن المصادرة، مكافأة للظالمين، وليكن العفاف والتقى رقيبين عليك"[2].

وقام الخليفة الناصر لدين الله ببعض الإجراءات التي عبرت عن مدى اهتمامه بالرعية والتصاقه بهم، وخاصة الفئات الفقيرة منهم، فقد ذكر ابن الساعي أن الناصر "تقدم بإنشاء دور ضيافة لفطور الفقراء في شهر رمضان في سائر محال بغداد شرقيها وغربيها"[3]، وأمر بإحصاء عددهم في كل محلة وأجرى لكل واحد منهم في اليوم رطلين من الخبز الفائق، وقدح طبيخ فيه نصف رطل من لحم الضأن، وقد بلغ عدد الفقراء في كل محلة حوالي خمسمائة إنسان[4].

---

(1) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٢٧-٢٢٨.
(2) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة ٦٢٢، ص٨٩، سير، ج٢٢، ص١٩٩.
(3) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٢٩-٢٣٠/ وانظر، حمارنة، وقفة عند الخليفة العباسي الناصر لدين الله، ص١٦١.
(4) نفس المصدر، ج٩، ص٢٣٠/ الاربلي، خلاصة الذهب، ص٢٨١.

وفي المحرم من سنة (٦٠٥هـ/ تموز ١٢٠٨م)، أمر الخليفة الناصر ببناء دار الضيافة لحجاج بيت الله الحرام، وكان يقدم بها الطعام للحجاج، كما كان يدفع لكل فقير يريد الحج دينارا مع كساء وبعض الزاد[1].

ويورد سبط بن الجوزي في حوادث سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م) حادثة تدل على مدى ارتباط الخليفة الناصر برعيته واعتنائه بهم وإشفاقه عليهم ففي هذا العام تعرضت بغداد نتيجة الأمطار الغزيرة للغرق، فركب الخليفة سفينة لتفقد أحوال الناس، وقد خاطبهم بقوله: "لو كان هذا الماء يرد بمال أو حرب دفعته عنكم ولكن أمر الله ما لأحد فيه حيلة"[2].

يتضح مما تقدم أن الخليفة الناصر لدين الله عمل على تعزيز مكانته وفرض احترامه على رعيته، العامة والخاصة منهم، من خلال مجموعة السياسات التي انتهجها في التعامل معهم سواءا كان ذلك عبر السياسة التوقيفية بين السنة والشيعة، أو الاهتمام بالفقهاء والعلماء ورجال الصوفية، من خلال الاهتمام بمؤسساتهم، وأخيرا الاهتمام بالفئات المحرومة داخل بغداد من الفقراء والمحتاجين وجاءت هذه السياسات خدمة لهدفه الأساسي في تعزيز مكانة الخلافة وفرض هيبتها داخل العراق وخارجه ونجح في كثير من الأحيان بذلك.

فتوة[3] الناصر لدين الله

يعلل الباحث عبدالمنعم رشاد سياسة الناصر المتسامحة مع الشيعة، من خلال منحهم حرية تامة بممارسة شعائرهم الدينية، إلى جانب إعطاء ابن الصاحب صلاحيات واسعة في بداية عهد الناصر، اعترافا من الأخير بفضلهم في وصوله

(1) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٥٨-٢٥٩/ وانظر، الاربلي، خلاصة الذهب، ص٢٨١/ حمارنة، وقفة عند الخليفة، ص١٦٠.

(2) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٨٢.

(3) عن الفتوة: انظر: ابن المعمار، كتاب الفتوة/ حسين، الفتوة في بغداد في العصر العباسي الأخير/ جواد، مقدمة كتاب الفتوة لابن المعمار، ص٥-٩٩.

للخلافة، ثم يضيف، أن الناصر سعى من وراء ذلك، لاختبار هذه القوة (الشيعة) في المجتمع البغدادي حتى يتسنى له معرفة مدى النفوذ الذي تتمتع به داخل المجتمع، إذا ما أراد الاعتماد عليها في تحقيق هدفه في إحياء الخلافة، إلا أن الناصر أدرك أن هذه الفئة غير مؤهلة للاعتماد عليها في تحقيق الهدف المذكور، فتحول إلى الحنابلة، وذلك عندما تخلص من ابن الصاحب عن طريق احد رجال إدارته عبيدالله بن يونس السني الحنبلي، والذي تسلم وزارة الناصر سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧)[1].

وفي نهاية المطاف أدرك الخليفة الناصر، أن الهدف الذي يسعى لتحقيقه، أكبر من أن تحققه فئة بمفردها، كالشيعة أو الحنابلة، فبدأ يتجه تفكيره لتحقيق هدفه بالاعتماد على جميع القوى داخل العراق، وبما أن السنة والشيعة هما أكبر هذه القوى، وقد أثبت التاريخ أنه ليس من السهولة بمكان أن تلتقي هاتين الفئتين، نتيجة الخلافات المذهبية فيما بينهما في مجتمع يحركه الفكر الديني المحض. بدأ الخليفة الناصر بالبحث عن قواسم مشتركة بين هاتين الفئتين، فوجد ضالته بنظام الفتوة. ولكن لماذا الفتوة؟

عمل الخليفة الناصر منذ توليه الخلافة على تحقيق هدفه الرئيسي في إحياء الخلافة، وفرض هيبتها،منطلقا من كونه خليفة المسلمين "المفترض الطاعة على الخلق أجمعين"[2]، ولإدراكه أن هذا الهدف لا يتحقق إلا من خلال التفاف جميع رعايا الدولة حوله متناسين خلافاتهم المذهبية، وجد بنظام الفتوة الصيغة المناسبة التي تجمع حوله السنة والشيعة معا إلى جانب الصوفية التي اكتسب شيوخها احتراما كبيراً داخل المجتمع الإسلامي في تلك الفترة[3]. وكانت هذه الفئات الثلاثة جميعها تلتقي بنظام الفتوة، أو بصيغة أخرى أن واحدة من هذه الفئات ليس لديها اعتراض أو موقف تجاه هذه الفكرة، أي الفتوة، وخاصة أن الخليفة

(1) Rashad, P.108, 111.
(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص٢٩٥.
(3) Rashad,p.113

الذي اكتسب احترام السنة، والشيعة، والصوفية هو الذي تبنى إحياءها، وبما أن الفتوة تعود في منشئها وأصلها للخليفة علي بن أبي طالب، فهم "يسندونها -أي الفتوة- بالعنعنة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -عليه السلام- وناهيك بذلك شرفا وفخرا وعظمة وقدرا"[1]. وعلي بن أبي طالب أخذها عن النبي محمد -عليه الصلاة والسلام-[2]، ندرك سبب اختيار الخليفة الناصر لدين الله لهذا النظام، فالخليفة علي بن أبي طالب شخصية لها مكانتها واحترامها لدى السنة والشيعة معا،ولا يختلف اثنان من المسلمين على مكانة ودور علي في تاريخ المسلمين.وبذلك اثبت الخليفة الناصر بلجوئه لنظام الفتوة مقدرة فائقة، وذكاءاً متوقداً، إذا استطاع أن يجمع الخصمين العنيدين السنة والشيعة، ولو مرحلياً تحت لوائه.

أضف إلى ذلك أن الفتوة في أصلها ومنبعها تدعو منتسبيها إلى التحلي بالأخلاق الحميدة، والتمسك بأهداب الشريعة فهي "خصلة من خصال الدين... وهي عهد بين الكبير ورفيقه على التمسك بقانون الدين القويم، والعمل بالقسطاس المستقيم، فهي من الدين بمنزلة الإسلام من الإيمان"[3]. والمتتبع للصفات التي يجب ان يتحلى بها الفتى يجد أنها ركزت على المروءة، والإيثار، والشجاعة، وإتباع المكارم، واجتناب المحارم، فالفتى "من يحافظ على طاعة الله ومرضاته، ويواظب على صومه وصلاته، ويراقب الله في جميع حالاته، وإذا خلا عف عن شهواته"[4].

ويتضح من ذلك أن الخليفة الناصر لم يسعى إلى جمع فئات المجتمع وتوحيدهم في نظام الفتوة فحسب، بل رمى أيضا إلى إشاعة الأخوة والتسامح

---

(1) مصطفى جواد، مقدمة ابن المعمار، ص٥٢-٥٣، نقلا عن ابن أبي الدم، التاريخ المظفري، ق٢١٢.

(2) عن ارتباط الفتوة بعلي بن أبي طالب، وسندها حتى وصلت للخليفة الناصر، انظر: ابن المعمار، الفتوة، ص١٣٧-١٣٩/ السخاوي، تحفة الأحباب، ص١٤-١٧.

(3) ابن المعمار، كتاب الفتوة، ص١٣٩.

(4) نفس المصدر، ص١٦٠.

داخل المجتمع، من خلال تعظيم أوامر الشريعة، وهذا الأمر بطبيعة الحال سيلقى تأييدا وترحيبا كبيرين من الفقهاء، والعلماء، والعامة أيضا، وبالتالي سيكتسب الناصر احتراما منقطع النظير من هذه الفئات،وكأنه أراد بذلك أن يضفي على الخلافة، بإنتسابه للفتوة، حلة جديدة، تعيد رونقها، وقدسيتها لدى المسلمين(١).

مرت فتوة الناصر لدين الله بمرحلتين أساسيتين، المرحلة الأولى بدأت من سنة (٥٧٨هـ/ ١١٨٢م) وحتى سنة (٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م)، أما المرحلة الثانية، فبدأت من سنة (٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م) وحتى نهاية عهده سنة (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م).

تعد السنة (٥٧٨هـ/ ١١٨٢م) بداية التحاق الناصر، بإحدى منظمات الفتوة وكان يرأس هذه المنظمة الشيخ عبدالجبار البغدادي(٢)، "وفي سنة ٥٧٨هـ أحضر الإمام الناصر الشيخ عبدالجبار، صاحب الفتوة، وسأله أن يلبس سراويل الفتوة، فألبسه إياها، وشرب لعبد الجبار الماء المملوح(٣) ماء الفتوة، وأعطاه خمسمائة دينار وخلع على ولده شمس الدين علي"(٤). وتمت المراسم ببستان دار الخلافة، وبعد أن لبس الناصر لباس الفتوة وشرب مائها، أخبره الشيخ عبدالجبار "أنه لبسها من شيخ ثم وثم إلى علي بن أبي طالب –رضي الله –تبارك وتعالى– عنه–"(٥).

---

(1) عن تطور مفهوم الفتوة تاريخيا، انظر: ابن المعمار، كتاب الفتوة، ص١٣٠–١٥١، حسين، الفتوة في بغداد، ص٦٠–١١٤/ جواد مقدمة كتاب الفتوة لابن المعمار، ص٥–٩٩.

(2) الشيخ عبدالجبار بن يوسف بن صالح البغدادي، مات سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م. انظر: العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤، ص٢٧٥.

(3) شراب الفتوة، وهو يرمز إلى أن الماء أصل الحياة، والملح يصلح كل ما هو فاسد ويحفظ من التغير، فهو رمز دوام الحال وعدم الانتقال، كما أن الملح إشارة إلى أن الفتى ينبغي أن يصبر على البأساء والضراء واحتمال البلاء. انظر: ابن المعمار، كتاب الفتوة، ص٢٥١–٢٥٥/ جواد، مقدمة كتاب الفتوة، ص٥٧–٥٨.

(4) جواد، مقدمة كتاب الفتوة، ص٥٢، نقلا عن ابن أبي الدم، التاريخ المظفري

(5) السخاوي، تحفة الأحباب، ص١٧.

أصبح الناصر بعد ذلك عضوا في منظمة الشيخ عبدالجبار، وأخذ يتردد عليه ويزوره من حين إلى آخر في مكان إقامته(1)، إلى أن توفي سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، وعلى ما يبدو أن صهر الشيخ، يوسف العقاب حل مكانه في تزعم هذه المنظمة(2).

وفي هذه المرحلة لم تتبلور سياسة الناصر الكاملة في استغلال نظام الفتوة لتحقيق هدفه في إحياء الخلافة، فقد جاء اهتمامه بالرياضات التي ارتبطت بالفتوة، وأصبحت شعارا لها كرياضة رمي البندق(3) ورياضة العدو والركض لمسافات طويلة، ورياضة صيد السباع(4)، إلى جانب اهتمام الخليفة الناصر بالطير كالحمام الرسولي أو الهدي، والذي يستخدم في نقل الرسائل من مكان إلى آخر(5).

ويرى الباحث يحيى حسين أن اهتمام الناصر بهذه الرياضات جاء لسببين: الأول، للتسلية والمتعة والانبساط من جهة، وتربية الأجسام تربية رياضية من جهة أخرى. أما السبب الثاني، فكان لتحقيق سياسة الناصر في جمع المعلومات، والأخبار والبريد بسرعة، فجاء اهتمامه بالسعي والعدو والطيور(6). ونضيف سببا آخر، وهو أن الناصر أراد أن تأخذ فكرة الفتوة مداها داخل المجتمع فجاء اهتمامه بهذه الرياضات لاستقطاب الشباب الذي سيعتمد عليهم في تحقيق هدفه في إحياء الخلافة.

وفي هذه المرحلة لم يحاول الناصر تعميم نظام الفتوة على حكام لأطراف اللهم ما قام به سنة (٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م) عندما بعث بسراويل الفتوة والخلع للسلطان

---

(1) العماد الحنبلي، ذرات الذهب، ج٤، ص٢٧٥.
(2) سبط ابن الجوزي، ج٨، ق٢، ص٤٣٧/ حسين، الفتوة في بغداد، ص١١٦.
(3) البندق، كرات تصنع من الطين، أو الحجارة، أو الرصاص، يستخدمها الرماة في تطيير الطير ونحوه، ويعدون ذلك من قبيل الفتوة.ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص١٦٤، هامش (١)/ وانظر: زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج٥، ص١٨٠.
(4) عن هذه الرياضات، انظر: حسين، الفتوة في بغداد، ص١١٦-١٢٠.
(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص٤٣٤.
(6) حسين، الفتوة في بغداد، ص١٢١.

العادل الأيوبي وأولاده، عن طريق علي بن الشيخ عبدالجبار، ويوسف العقاب صهر الشيخ، ومقدم الفتيان في بغداد آنذاك[1].

أدى تبني الناصر للفتوة، والتحاقه بإحدى منظماتها، إلى دخول أعداد كبيرة من أهل بغداد فيها على مختلف طبقاتهم من الأعيان، والفقهاء، والعلماء والعامة من الناس[2]. وهذا ما أكده ابن المعمار "إعلم أيها الناظر أن الباعث على إصدار هذا الكتاب، أني رأيت جملة الناس وجمهورهم، وأفاضلهم وصدورهم، قد أولعوا بذكر الفتوة والهجوا بها، راغبين في فضائلها راجين نيل طاعتها، خصوصا حين أحيا سننها، ومعالمها سيدنا ومولانا أبو العباس احمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين"[3].

وكان لدخول هذه الأعداد في منظمات الفتوة المختلفة، أثر سلبي، وعلى عكس ما أراده الناصر، من توحيد مختلف الفئات داخل بغداد، فقد وقع التنافس بين فتيان المحال المختلفة في بغداد، مما أدى إلى شيوع الفوضى وعدم الاستقرار وأصبحت عاملا للفرقة والتناحر، ففي سنة (٦٠١هـ/ ١٢٠٤م) وقعت فتنة بين فتيان محلة باب الأزج، وفتيان أهل المأمونية، عندما أراد فتيان باب الأزج المرور بمحلة المأمونية مظهرين تفاخرهم باصطيادهم سبعا، وعندما منعهم فتيان المأمونية، وقع قتال بين الطرفين، اضطر على أثرها إلى تدخل الجند، ومقدم الفتيان يوسف العقاب للفصل بين الطرفين[4]. ولم تكن هذه الحادثة الوحيدة، بل تكررت في أكثر من مرة في مختلف محال بغداد[5].

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص٥١٣/ أبو شامه، الذيل على الروضتين، ص٣٣.
(2) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٢١-٢٢٢.
(3) ابن المعمار، كتاب الفتوة، ص١٢٣-١٢٤.
(4) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٦٨/ ابن الساعي، الجامع المختصر، ص١٤٦-١٤٨/ جواد، مقدمة كتاب الفتوة، ص٥٨-٥٩.
(5) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٦٨/ ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٤٨، ٢٢٦-٢٢٨.

وكان لانتشار مثل هذه الفتن وتعصب فتيان كل محلة من حال بغداد لمحلتهم، عائد لكون الفتوة لم تكن جماعة واحدة، بل كانت جماعات متعددة وأحزاب متفرقة[1]. فبدأ الناصر يفكر جدياً بالعمل على توحيد هذه الجماعات والأحزاب في جماعة واحدة يتزعمها هو بنفسه. فقام سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) بإهدار الفتوة القديمة، وجعل القبلة في ذلك والمرجوع إليه، وبذلك يكون الناصر قد ترأس الفتوة بعدما جعلها جماعة واحدة[2].

وفي العام ذاته وقعت فتنة بين أنصار الوزير ابن مهدي الشيعي وبين نجاح الشرابي السني[3]، وعندما علم الخليفة بأمر الفتنة، أدرك أن الأمور، بدأت تنحى منحا آخراً، إذ أصبح رجال الإدارة سببا في عدم الاستقرار، وضياع هيبة الدولة، فجمع رؤوس أحزاب الفتوة، وأصدر منشورا حدد فيه طبيعة العلاقة بين الفتيان، والتي تقوم على الألفة والأخوة والمودة، والأمر بالمعروف، ثم شدد الخليفة على احترام الفتيان بعضهم للبعض الآخر، وجعل عقاب من لا يلتزم بما جاء بالمنشور الطرد من منظمة الفتوة[4].

وبإصدار الخليفة الناصر لهذا المنشور سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) تبدأ المرحلة الثانية من فتوته، وعلى ما يبدو أن إصدار هذا المنشور لم يكن للحد من المنازعات بين أحياء ومحال بغداد، أو المنازعات بين السنة والشيعة فحسب على أهميتها، وإنما أراد الناصر من وراء إصدار هذا المنشور تحقيق عدة أهداف منها[5]:

(1) ابن المعمار، كتاب الفتوة، ص١٤٥-١٤٦/ حسين، الفتوة في بغداد، ص١٢٥.
(2) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٢١-٢٢٢.
(3) نجاح بن عبدالله التركي الشرابي الناصري، الملقب بالملك الرحيم، جعله الناصر أميرا للجيوش. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٢٨/ ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٢٢.
(4) انظر نص المنشور في ملحق رقم (٩).
(5) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٢٣-٢٢٦ Rashad, p.113-120. حسين، الفتوة في بغداد، ص١٢٧-١٢٩.

أولاً: استطاع الناصر من خلال إعادته لتنظيم الفتوة، بتوحيدها في جماعة واحدة يترأسها هو بنفسه، السيطرة على هذه المنظمة، وضمان انتماء جميع الفتيان له مباشرة، لاستثمارهم في خدمة هدفه لإحياء الخلافة.

ثانياً: نجح الناصر في هذا المنشور من استقطاب السنة والشيعة عندما بدأه بالحديث عن علي بن أبي طالب على أنه أصل الفتوة ومصدرها، وبذلك جمع الناصر الخصمين التقليديين في هذه المنظمة.

ثالثاً: كما ركز المنشور على قضية مهمة استطاع الناصر من خلالها استقطاب جميع المسلمين، عندما شدد على تطبيق حدود الشرع، وجاء هذا الأمر أيضاً للحد من الاعتداءات، والفتن داخل بغداد.

رابعاً: وبعد أن حدد المنشور طبيعة العلاقة بين الفتيان، والتي تقوم على أساس الاحترام المتبادل، داخل إطار المنظمة، جعل جريمة القتل التي تقع على أحد الفتيان، من قبل رفيق له، سببا في طرده من جماعة الفتوة، والقصاص منه عملا بأوامر الشريعة، وبذلك يكون الناصر قد ضبط التجاوزات التي كانت تحدث بين الفتيان.

خامساً: وجعل المنشور أي اعتداء على رجال الدولة، هو بمثابة الاعتداء على صاحب الحزب، أي الخليفة نفسه، وجعل هذا الأمر سببا في سقوط فتوة الفتى، وبذلك استطاع الناصر فرض هيبة الدول من خلال إشراك جماعة الفتوة في المحافظة على الأمن والاستقرار في بغداد.

وبعد إصدار هذا المنشور الذي استطاع الناصر من خلاله أن يضبط جماعة الفتوة ويربطها بشخصه، ويوجهها بما يخدم غرضه، أخذ يتطلع لنشرها خارج العراق، وربط ملوك وأمراء الأطراف بها.

كان أول من ارتبط بفتوة الناصر وانتسب لها من ملوك الأطراف السلطان العادل الأيوبي وأولاده، وذلك سنة (٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م) [1].

وفي سنة (٦٠٧هـ/ ١٢١٠م) أرسل الخليفة الناصر الرسل إلى ملوك الأطراف يأمرهم أن يشربوا له كأس الفتوة، وأن يلبسوا له سراويلها، وأن ينتسبوا إليه برمي البندق، ويجعلوه قدوتهم في ذلك[2]. وأمرهم أن يلبسوا رعيتهم لباس الفتوة، وان يسقونهم شرابها. وبذلك تكون رعية كل ملك منتسبة لملكها في الفتوة، وبما أن الملك أو الأمير ينتسب للخليفة الناصر، فقد ارتبط الجميع برأس الفتوة الخليفة الناصر لدين الله[3].

ومن الملوك الذين تفتوا للناصر، شهاب الدين الغوري ملك غزنة والهند، واتابك سعد صاحب شيراز، وصاحب جزيرة كيش[4]، والملك الظاهر غازي صاحب حلب، وعز الدين أبو المظفر كيكاوس السلجوقي، والملك الأشرف ابن السلطان العادل صاحب دمشق[5].

نستطيع القول في نهاية حدثنا عن فتوة الناصر، أن الهدف الأساسي الذي أراده الخليفة من وراء إحيائه نظام الفتوة، هو ربط جميع رعايا الدولة بشخص الخليفة، سواءا كانوا حكاما أو محكومين، ومن خلال فكرة الفتوة استطاع أن يجمع

---

(1) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص٣٣.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص٢٠٦/ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٢١١ك/ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، ج٥، ق١، ص١١٣/ القلقشندي، مآثر الانافة، ج٤، ص٦٠.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص٣/ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، ج٥، ق١، ص١١٣.

(4) جزيرة كيش أو قيس، جزيرة في وسط البحر (الخليج العربي)، وتعد من أعمال فارس لأن أهلها فرس، وتعد أيضاً من أعمال عمان. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٤٢٢، ٤٩٧.

(5) الموفق البغدادي، ص١٠٧/ ابن البيبي، أخبار سلاجقة الروم (مختصر سلجوقنامه، ص٥٥/ ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص١٠٥-١٠٦/ الذهبي، سير، ج٢٢، ص١٩٤/ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص١٨٣/ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، ج٥، ق١، ص١١٣/ المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص١٢٧.

المسلمين تحت لوائه، على مختلف طبقاتهم، ومعتقداتهم فجمعت الفتوة بين العامة والخاصة، السنة والشيعة، وبذلك اكتسب الناصر قوة إضافية استطاع من خلالها تعزيز مكانته، وفرض هيبته، كونه خليفة المسلمين المفترض الطاعة على الخلق أجمعين أولا، وكونه قبلة أهل الفتوة ورأسها ثانيا[1].

علاقة الخلافة العباسية بقوى الأطراف

جاءت علاقة الخلافة العباسية في عهد الخليفة الناصر لدين الله مع قوى الأطراف منسجمة مع توجهات الخلافة في فرض سلطتها ونفوذها على كافة البلدان الإسلامية، وفي الوقت ذاته الوقوف بحزم أمام أية قوة تحاول سلب الخلافة سلطتها الزمنية، أو الاعتداء على العراق.

ففي عهد الخليفة الناصر سقطت الدولة السلجوقية -باستثناء سلاجقة الروم- على يد الدولة الخوارزمية[2]. وكان للخليفة الناصر دورا في ذلك، وعندما حاول الخوارزميون، أن يرثوا ما كان للسلاجقة، وامتدت أطماعهم للخلافة العباسية، استطاع الناصر بحنكته السياسية أن يجنب الخلافة خطرهم.كما اتسمت العلاقة مع الأيوبيين في مصر والشام واليمن بالتبعية الاسمية للخلافة العباسية، وخطب للخليفة الناصر، على منابر مكة والمدينة، والمغرب، وغيرها من البلدان.

---

(1) عن آراء الباحثين المحدثين حول فتوة الناصر، انظر: تشسينر، الفتوة والخليفة الناصر/ جيرارد، الفتوة هل هي الفروسية الشرفية/ حسين، الفتوة في بغداد، ص١٣٣-١٤٠.

(2) أبو شامه، الذيل على الروضتين، ص٦.

السلاجقة

بعد موت السلطان أرسلان شاه بن طغرل بن محمد بن ملكشاه في العام (٥٧١هـ/ ١١٧٥م) في مدينة همذان، وتولى الأمر من بعده ابنه السلطان طغرل، وكان صبيا، فاستبد بالأمر اتابكه وأخوه لأمه محمد البهلوان بن أيلدكز[1].

واتسمت علاقة السلاجقة بالخلافة العباسية في هذه الفترة بالتبعية المطلقة، إذ حرص محمد البهلوان أتابك السلطان طغرل على إبقاء هذه العلاقة مع الخلافة العباسية، وعدم استعداءها، للحصول على الشرعية التي يحتاجها في ترتيب أوضاع السلطنة السلجوقية، يذكر الحسيني في هذا الصدد: "وكان -أي محمد البهلوان- رسله أبداً متواترة إلى الدار العزيزة -الخلافة العباسية- بالعبودية والانقياد ولزوم الطاعة، ويظهر أنه ما تم له هذا الملك، والحكم على هذه البلاد إلا ببركات ما ينطوي من طاعة الدار العزيزة، وينهي إليه من الانقياد للأوامر الشريفة وكانت الخلع والصلات من الدار العزيزة تتواتر إليه في كل وقت، وما زال مدة حياته يأتمر الأوامر العالية النبوية، وينتهي إلى المراسم الشريفة الأمامية إلى أن قضي أجله"[2].

وتدل طبيعة الإجراءات التي قام بها الأتابك محمد البهلوان، وعلاقته بالقوى المحيطة به، على بعد نظر هذا الرجل فقد استطاع من خلال الشرعية التي حصل عليها من الخلافة العباسية، إخضاع اذربيجان، وأران، وبلاد الكرج، وخطب للسلطان طغرل في الموصل، وعمالها وأرمينية، وخلاط وفي فارس وأعمالها، وخوزستان بأسرها، إلى جانب همذان وأصفهان، واستناب أخاه مظفر الدين قزل

---

(1) الروانلي، راحة الصدور، ص٤٢٩-٤٣٠/ الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٨٤، البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢٧٥.

(2) الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٨.

أرسلان في أذربيجان[1]. كما حرص على إبقاء علاقة الود والاحترام مع الخوارزميين "وكان مدة حياته بينه وبين خوارزمشاه مواصلة ومهادة"[2].

وبموت الأتابك محمد البهلوان سنة (٥٨٢هـ/ ١١٨٦م)، دب النزاع بين أبناءه وعمهم مظفر الدين قزل أرسلان[3]، واستغل هذا الأمر السلطان طغرل، وخرج عن كفالة أتابكه الجديد مظفر الدين قزل،وسانده بذلك مماليك محمد البهلوان وأبناءه، وإزاء هذه التطورات لم يجد قزل أرسلان إلا الالتجاء للخليفة الناصر، فبعث إليه بكتاب سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) يظهر به طاعته للخلافة، ويحذره من خطورة حركة السلطان طغرل على الخلافة ويطلب منه المساعدة للوقوف في وجه السلطان، وتأكد الخليفة الناصر من نوايا السلطان طغرل العدائية تجاه الخلافة عندما بعث الأخير رسوله لبغداد طالبا "أن يتقدم الديوان بعمارة دار السلطنة لأسكنها إذا وصلت"[4]. وتصادف وجود رسول السلطان طغرل، ورسول قزل أرسلان في بغداد "فأكرم رسول قزل ووعده -أي الخليفة- بالنجدة، ورد رسول السلطان طغرل بغير جواب، وأمر الخليفة بنقض دار السلطنة فهدمت إلى الأرض وعفى أثرها"[5]. وعلى أثر ذلك بادر الخليفة بتجهيز جيش الخلافة، وسلم قيادته لوزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس، وذكر الحسيني أن الخليفة أخرج من الخزانة المعمورة لتجهيز هذا الجيش ستمائة ألف دينار، وانطلق الوزير بعسكر الخلافة في صفر من سنة ٥٨٣هـ/ نيسان ١١٨٧م وهدفه همذان على أن ينضم لقوات قزل أرسلان، إلا أن تأخر وصول قزل أرسلان وتسرع الوزير ابن يونس

---

(1) نفس المصدر، ص٢٨٨-٢٨٩.
(2) نفس المصدر، ص٢٨٨.
(3) عن النزاع بين أبناء محمد البهلوان وعمهم قزل أرسلان، والسلطان طغرل، انظر: الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٨٧-٢٩٣/ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٢٢٠.
(4) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٨٩/ وانظر:الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٩٤/ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص١٤٣/ ابن سباط، ص١٨٢.
(5) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٨٩/ وانظر:الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٩٤.

وعدم انتظاره جرت على عسكر الخلافة هزيمة ساحقة، وقع فيها ابن يونس في الأسر، وذلك في ربيع الأول سنة ٥٨٤هـ نيسان ١١٨٨م في داي مرك قرب همذان[١].

بعد هذه الهزيمة التي مني بها جيش الخلافة، أدرك الخليفة خطورة السلطان فقرر عدم إمهاله لترتيب أوضاعه، بعد انتصاره هذا، فجهز جيشا آخر "وأخرج من العدة الوافرة والأسلحة العظيمة، والأموال الجسيمة ما لا عهد لأحد بمثلها خارجة من الديوان العزيز[٢]. وجعل على رأس هذا الجيش الأمير مجاهد الدين خالص، وتوجه إلى همذان الذي دخلها دون قتال على أثر هروب السلطان طغرل منها، عندما شعر بقوة جيش الخلافة، ولعلمه أن قوات قزل أرسلان كانت متجهة أيضا إلى همذان، وعندما وصل قزل أرسلان عبر عن احترامه، وانقياده للخلافة العباسية، فقرر تسليمه حكم المناطق التي سيطرت عليها قوات الخلافة نيابة عن أمير المؤمنين[٣].

لجأ السلطان طغرل بعد ذلك لعز الدين حسن بن قفجاق والي أذربيجان الذي زوجه بابنته، وحاول السلطان بمساعدة صهره من استعادة همذان من الأتابك قزل أرسلان، إلا أنهما فشلا في ذلك، عندها أدرك السلطان طغرل أن غضب الخلافة عليه ستجعله طريدا، وغير قادر على جمع أتباعه تحت لوائه فقرر مصالحة الخليفة الناصر، وبعث بابنه كبادرة حسن نية إلى بغداد وبيده سيف وعليه خرقة كفن كناية عن طاعة أبيه المطلقة للخليفة، فاستقبل وأكرم وعفي عن أبيه[٤]. وعلى أثر ذلك حاول السلطان طغرل استعادة نفوذه، إلا أنه فشل. بذلك ووقع في أسر قزل أرسلان الذي سجنه في قلعة تبريز، وأعلن نفسه سلطانا على

---

(1) الراوندي، راحة الصدور، ص٤٨١/ الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٩٤-٢٩٥/ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٩٧/ ابن الطقطقي، الفخري، ص٣٢٢/ الذهبي، سير، ج٢٢، ص٢٠٨.
(2) الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٩٦.
(3) نفس المصدر، ص٢٩٦.
(4) نفس المصدر، ص٢٩٧-٢٩٨/ الذهبي، سير، ج٢٢، ص٢١٣/ الزهراني، نفوذ السلاجقة السياسي، ص١٦٤.

السلاجقة[1]. لم يدم أمر السلطان قزل طويلا فسرعان ما قتل سنة (٥٨٧هـ/ ١١٩١م)، ومن المحتمل أن يكون السلطان طغرل قد دبر قتله بواسطة أنصاره[2]. وعلى أثر ذلك هرب طغرل من سجنه بمساعدة بعض أعوانه، واستولى على همذان وكثر جمعه، عند ذلك أدرك الخليفة الناصر أن السلطان طغرل أصبح يشكل خطرا حقيقيا على الخلافة خاصة بعد موت منافسه الرئيسي قزل أرسلان، فقرر الاستعانة بخوارزمشاه علاء الدين تكش للتخلص من السلطان طغرل، وجد علاء الدين بطلب الخلافة، فرصة لتوسيع رقعة دولته، وخاصة عندما اقطعه الخليفة، جميع البلاد التي تحت سيطرة السلاجقة، وخلع عليه خلع السلطنة، فما كان منه الا التوجه إلى السلطان طغرل، والتقى بقواته قرب الري سنة (٥٩٠هـ/١١٩٣م)، واستطاع أن ينزل هزيمة ساحقة بقوات السلاجقة، كانت أهم نتائجها مقتل السلطان طغرل، واحتزاز رأسه وإرساله لبغداد[3].

وبذلك تكون الخلافة العباسية قد تخلصت من النفوذ السلجوقي بمقتل آخر سلاطينها طغرل الثالث، لتبدأ حلقة أخرى من حلقات الصراع، هذه المرة مع الدولة الخوارزمية التي اعتبرت نفسها الوريث الشرعي للسلاجقة.

---

(1) الراوندي، راحة الصدور، ص٥٠١/ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٤٤.

(2) الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٩٩/ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢١٨/ البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص٢٧٦.

(3) الراوندي، راحة الصدور، ص٥١٣-٥١٤/ الحسيني، زبدة التواريخ، ص٣١٢-٣١٣/ الموفق البغدادي، ص١٠٧/ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٣٠/ أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص٦٠/ الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة ٥٩٠هـ ص٩٣/ العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤، ص٣٠١/ الزهراني، نفوذ السلاجقة السياسي، ص١٦٥/ عبود، جهود الخلافة للتحرر من النفوذ السلجوقي، ص٥٤.

الخوارزميون

اتسمت العلاقة بين الخلافة العباسية، والدولة الخوارزمية، بالاعتراف المتبادل، فقد أظهر ملوك خوارزم ولائهم وتبعيتهم للخلافة العباسية، وهذا ما أكدته الرسائل المتبادلة بين الطرفين زمن الخلفاء العباسيين، المقتفي لأمر الله، والمستنجد بالله، والمستضيء بأمر الله، إلا أن هذه العلاقات، بدأت تنحى منحاً آخراً في عهد الخليفة الناصر لدين الله، ومن عاصره من ملوك خوارزم، خاصة بعد سقوط الدولة السلجوقية إذ أصبح الخوارزميون القوة الرئيسية في المنطقة، واعتبروا أنفسهم ورثة السلاجقة.

مّثل التحالف بين الخلافة العباسية والدولة الخوارزمية، من خلال تنفيذ علاء الدين تكش لأوامر الخليفة الناصر، بمحاربة السلطان طغرل، والانتصار عليه، تحالفا مؤقتا، التقت فيه مصلحة الطرفين، إذ رأى علاء الدين تكش بطلب الخليفة فرصة للتوسع على حساب السلاجقة، بينما رأى الخليفة بالخوارزميين القوة القادرة على تخليصه من الخطر السلجوقي. وبعد ما تحققت مصلحة الطرفين سرعان ما دب الخلاف بينهما، فقد أدرك الناصر خطورة وجود دولة قوية كالخوارزمين على حدوده الشرقية،والتي أصبحت قاب قوسين أو أدنى من بغداد، وأصبح العراق العجمي، المنطقة الساخنة بين الطرفين، فقد أدرك الناصر أن سيطرته على العراق العجمي، سيكون خط دفاعه الأول عن بغداد، إذا ما فكر الخوارزميون، بالتحرك نحو الخلافة، وهذا ما دلت عليه إجراءات الخليفة الناصر لدين الله فيما بعد[1].

تعود بداية الخلاف بين الخلافة العباسية، وعلاء الدين تكش، بعد الانتصار الذي حققه الأخير على السلطان طغرل مباشرة، فقد رفض تكش تسلم الخلع التي بعثت بها الخلافة مع ابن القصاب النائب في الوزارة آنذاك والذي كان

(1) عبود، الدولة الخوارزمية، ص٨٢/ السوداني، العلاقات الخارجية للخلافة العباسية في عهد الخليفة الناصر، ص٨٧.

متواجدا بالقرب من همذان، تقديرا لتكش في القضاء على السلطان طغرل. فقد أصر ابن القصاب على حضور تكش بين يديه ليلبسه خلعة الخلافة، فخشي الأخير أن تكون خدعة للقبض عليه، فاندفع بقواته للقبض على الوزير، فلجأ ابن القصاب إلى الجبال، وعلى أثر ذلك عاد تكش إلى خوارزم، بعد أن اقطع مماليكه، ما استولى عليه من البلاد[1].

تأكد للخليفة الناصر نوايا علاء الدين تكش العدائية للخلافة، فبدأ بتنفيذ مخططه للسيطرة على العراق العجمي.ففي سنة (٥٩٠هـ/١١٣٩م) خلع الخليفة علي ابن القصاب النائب في الوزارة، خلع الوزارة، وأمره بالتوجه إلى بلاد خوزستان الذي استطاع أن يخضعها لسيطرة الخلافة[2]. وفي العام (٥٩١هـ/ ١١٩٤م) سيطر ابن القصاب على همذان والري، وغيرها من البلاد، وفي تلك الأثناء مات الوزير ابن القصاب[3]. فتولى قيادة جيوش الخلافة الأمير طغرل – صاحب بلد اللحف–، واستطاع هذا الأمير من السيطرة على أصفهان، بعد أن لاحق فلول القوات الخوارزمية التي عادت إلى خراسان[4]. وتجدر الإشارة هنا أن من عوامل نجاح جيوش الخلافة في السيطرة على أصفهان، وقوف سكان المدينة إلى جانب قوات الخلافة، الذين ضاقوا ضرعا من ظلم وجور الجيش الخوارزمي[5]. واستطاعت الخلافة العباسية بعد ذلك أحكام سيطرتها على ما كان بيد الخوارزميين، إلا أن هذا الأمر لم يدم طويلا، فسرعان ما عاد علاء الدين تكش والتقى بقوات الخلافة في شعبان من سنة (٥٩١هـ/ تموز ١١٩٤م) والحق بها هزيمة نكراء، وبذلك فقدت الخلافة سيطرتها على همذان والري وأصفهان[6].

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٣٠-٢٣١.
(2) نفس المصدر، ج٩، ٢٣١.
(3) نفس المصدر، ج٩، ص٢٣١-٢٣٢/ ابن الطقطقي، الفخري، ص٣٢٤.
(4) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٣٤.
(5) نفس المصدر، ج٩، ص٢٣٤.
(6) نفس المصدر، ج٩، ص٢٣١-٢٣٢.

أدرك الخليفة الناصر لدين الله بعد هذه الهزائم التي مني بها جيش الخلافة، أن الحل العسكري لن يجدي نفعا في التعامل مع الدولة الخوارزمية التي تفوق جيش الخلافة عدة وعدداً، فلجأ للخيار السياسي المبطن بالتهديد، باستخدام النفوذ الديني، وتأليب الناس على علاء الدين تكش، بحرمانه من الغطاء الشرعي، الذي منحته إياه الخلافة لحكم المناطق التابعة له، وجاء هذا التهديد بالرسالة التي بعث بها الخليفة الناصر للملك الخوارزمي، "أن ملك أبيك وجدك كان منحة منا، ونحن الآن نسلمه إليك، فاقنع به كما كان فيما سبق، ولا تطمع في أكثر منه، وإلا فسأكتب إلى الأمصار انك خارج علي فينهض الناس في سائر البلاد لغزوك وتراق الدماء"[١]. على الرغم من مظاهر الاحترام التي تلقى بها علاء الدين تكش رسول الخلافة، إلا أنه أدرك مدى الضعف الذي يعاني منه الخليفة، واستناداً لذلك طلب من الخلافة ولاية خوزستان محتجا بحاجة جنوده للإقطاع، وذهب أبعد من ذلك عندما بعث سنة (٥٩٢هـ/ ١١٩٥م) للخلافة طالبا "السلطنة، وإعادة إعمار دار السلطنة إلى ما كانت،عليه وأن يجيء إلى بغداد ويكون الخليفة من تحت يده، كما كانت الملوك السلجوقية"[٢].

إزاء هذه التطورات، بدأ الخليفة بالبحث عن قوة مكافئة للدولة الخوارزمية، فوجد ضالته بالدولة الغورية، وأرسل لسلطانها غياث الدين الغوري يأمره بالتصدي لقوات علاء الدين تكش، ومنعه من التوجه لبغداد، وعندما علم تكش بتحالف الناصر مع الغوريين، التجأ لدولة الخطا، مستنجدا بهم ضد غياث الدين الغوري، إلا أن هذا الأمر لم يجده نفعا فقد استطاع الغوريون من هزيمة حلفائه الخطا[٣]، عندها أدرك تكش حراجة موقفه، فسعى إلى تحسين علاقته بالخلافة العباسية، عندما بعث بابن أخيه رسولا لبغداد سنة (٥٩٥هـ/١١٩٨م) "للاعتذار

(1) الراوندي، راحة الدور، ص٣٥٤.
(2) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٦٣-٣٦٤.
(3) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٤١/ السوداني، العلاقات الخارجية، ص٨٨.

عما طلبه من الخطبة له ببغداد"[1]، فقبل الخليفة الناصر اعتذاره، وبعث له ولابنه قطب الدين محمد الخلع وتقليد السلطنة[2].

وما لبث أن مات خوارزمشاه علاء الدين تكش سنة (٥٩٦هـ/ ١١٩٩م) وحل مكانه في السلطنة ابنه قلب الدين محمد، والذي تكنى بكنية والده وأصبح يعرف بعلاء الدين محمد (٥٩٦-٦١٧هـ/ ١١٩٩-١٢٢٠م)[3]. واتسمت علاقة الدولة الخوارزمية في النصف الأول من حكم علاء الدين محمد مع الخلافة العباسية، بالهدوء نسبيا، وتخللها بعض المراسلات التي عبرت عن طبيعة العلاقات الحسنة بين الطرفين، ومرد ذلك لانشغال الدولة الخوارزمية بصراعها مع الغوريين من جهة، ودولة الخطا من جهة أخرى[4].

وعلى ما يبدو أن طبيعة العلاقات الحسنة، بين الخلافة والخوارزميين كانت تمثل في جوهرها هدنة مؤقتة، إذ لم يتخل علاء الدين محمد عن هدفه وهدف أبيه من قبله في السيطرة على بغداد، والتحكم بالخلافة، وهذا ما أكدته الحوادث اللاحقة، فبعدما تخلص علاء الدين بن محمد من دولة الخطا سنة (٦٠٧هـ/ ١٢١٠م)، وخفت حدة مشاكله في الشرق مع الغوريين[5]، أخذ يتطلع للسيطرة على بغداد، وبعث للخليفة الناصر برسالة جاء فيها: "كن معي كما كانت الخلفاءقبلك مع سلاطين السلجوقية، كألب أرسلان وملكشاه، وأقربهم لنا عهداً السلطان سنجر، فيكون أمر بغداد والعراق لي ولا يكون لك إلا الخطبة"[6]. أنكر الخليفة الناصر طلب علاء الدين محمد كل الإنكار وبعث إليه قائلاً: "إن اختلاف الدول وتقلب الدهر، وتغلب الخارجي -أي البساسيري- على بغداد وتسحب الإمام القائم

(1) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٩.
(2) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٤٨/ الذهبي، سير، ج٢٢، ص٢١٩/ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣، ص٣٦١.
(3) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٥٠.
(4) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٣٩، ١٣٤، ١٦٧-١٦٨، ٢٦٢.
(5) النسوي، سيرة السلطان، جلال الدين منكرتي، ص٤٩/ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٦٠.
(6) السبكي، طبقات الشافعية ، ص٣٣٠.

بأمر الله. رضوان الله عليه منها إلى حديثة عانة، وانتصاره بطغرلبك بن ميكائيل، والقصة مشهورة اقتضت تحكم بني سلجوق في بغداد، وإلا فليس يحتم أن يكون مع الزمان على اكتاف الخلافة متحكم يأمر فيها وينهى كيف شاء، بما سر وساء، ومهما احتجنا إليك في مثل ذلك، ولا كان ذلك أجبناك إلى ما اجبنا أولئك. أو ليس فيما أنعم عليك به الله من الممالك الواسعة الأقاليم، المتباعدة المتشاسعة غنية عن الطمع في دار ملك أمير المؤمنين، ومشاهد آباءه الراشدين"[1]، لم يقنع هذا الرد علاء الدين محمد وعقد العزم على المسير إلى بغداد، وحتى لا يصور على انه خارج عن طاعة الخلافة بدأ بحملة منظمة، ضد الخليفة الناصر أولاً، وبالطعن بشرعية العباسيين بالخلافة ثانياً. فقد استغل علاء الدين محمد عزل الخليفة لابنه الظاهر بأمر الله من ولاية العهد، وسير الناصر إلى كافة الأمصار بقطع خطبة ولي العهد[2]. إلا أن علاء الدين رفض إجراء الخليفة قائلاً: "قد صح عندي توليته، ولم يثبت موجب عزله، وجعل ذلك حجة لطرق العراق بالعساكر لرد خطبته"[3]. كما استغل علاء الدين محمد محاولة قتل شريف مكة على يد الإسماعيلية واتهم الخليفة بتدبير هذه الحادثة وأخذ يستفتي أئمة البلاد، أن من هذه صفته، فقد سقطت إمامته، ثم بدأ يشكك بصحة إمامة العباسيين وأنهم اغتصبوها من العلويين، واتهمهم بالتقصير بالقيام بواجبات الإمام كالجهاد في سبيل الله، وتقاعسهم عن قمع أرباب البدع والضلالة[4]. وجعل هذا الأمر مبرراً لقطع خطبة الخليفة الناصر لدين الله، في نيسابور، ومرو، وبلخ، وبخارى، وسرخس[5]. وذهب أبعد من ذلك عندما قام سنة (٦٠٩هـ/ ١٢١م) بخلع الخليفة الناصر، ومبايعة

---

(1) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٥٠/ وانظر: الحموي، التاريخ المنصوري، ص٦٩-٧٠/ ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ج١٣، ص٨٣.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٦٩/ وانظر: رأي الباحث حسين في مسألة عزل الظاهر بأمر الله في رسالته، الفتوة في بغداد، ص١٢٢-١٢٣.

(3) ابن أبيك الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢، ص٩٦-٩٧/ نكت الهميان، ص٢٣٩.

(4) عبود، الدولة الخوارزمية، نقلا عن الجويني، تاريخ جهاتكشاي، ج٢، ص١٢١-١٢٢.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣١٣.

رجل علوي يدعى علاء الدين الترمذي[1]. واستحكم عداء علاء الدين محمد للخليفة الناصر، وصمم على مهاجمة بغداد عندما دخل عاصمة الغوريين غزنة سنة (٦١٢هـ/ ١٢١٥م) ووجد في خزائن السلطان شهاب الدين الغوري، رسائل من الخليفة الناصر تحث السلطان الغوري على مهاجمة الخوارزميين[2].

بدأ خوارزمشاه محمد يعد العدة للتوجه لبغداد، وهدفه إزالة الخلافة العباسية، وقد دل حجم الجيش الذي سار به علاء الدين على نيته الأكيدة في السيطرة على العراق وإسقاط الخلافة العباسية، فقد وصل عدد جيشه حوالي ستمائة ألف جندي على ما ذكره أبو شامة[3]، وعندما وصلت اخبار تحرك الجيش الخوارزمي لبغداد، أخذ الخليفة بالاستعداد للدفاع عن المدينة، ففرق الأموال والسلاح وحصن بغداد، ولإدراكه أن المواجهة العسكرية لن تكون لصالحه، حاول أن يثني علاء الدن محمد بالوسائل الدبلوماسية، فبعث إليه الشيخ شهاب الدين السهروردي، عله يقنعه بالعدول عن مهاجمة بغداد، وقد نقل إلينا أبو شامة وغيره من المؤرخين الحوار الذي دار بين السهروردي وعلاء الدين، على لسان الشيخ السهروردي يقول: "فأتيت إلى خيمة عظيمة ... فسلمت عليه فلم يرد ولا أمرني بالجلوس، فشرعت فخطبت خطبة بليغة، ذكرت فيها فضل بني العباس، ووصفت الخليفة بالزهد والورع والتقى الدين والترجمان يعيد عليه قولي، فلما فرغت قال للترجمان: قل له هذا الذي يصفه ما هو في بغداد بل أنا أجيء وأقيم خليفة يكون بهذه الأوصاف، ثم ردنا بغير جواب"[4].

بعد فشل مهمة شهاب الدين السهروردي، بات من المنتظر أن تتقدم جيوش علاء الدين محمد لمحاصرة بغداد، ويتدخل القدر هذه المرة لإنقاذ حاضرة

---

(1) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ق٢، ج٤، ص١٠٨٥/ عبود، الدولة الخوارزمية، ص٩٧.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣١٠/ عبود، الدولة الخوارزمية نقلا عن خواندمير، حبيب، السير، ج٢، ص١٤٦.

(3) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص١٠٠.

(4) أبو شامة، الذيل، ص١٠٠-١٠١/ وانظر: النسوي، سيرة، ص٥١-٥٢/ مرتضى زاده، كلشن خلفا، ص١٢٢.

الخلافة، فقد صادف خروج الجيش الخوارزمي نهاية فصل الخريف وبداية فصل الشتاء، وعندما وصل الجيش عقبة أسد أباذ[1]. اجتاحته عاصفة ثلجية "حملت الأباطح والأعلام وغطت الخراكي والخيام ودام- أي تساقط الثلج- ثلاثة أيام بلياليها"[2]. وعلى أثر ذلك اضطر الجيش الخوارزمي إلى الانسحاب والعودة إلى خوارزم وبذلك فشلت حملة علاء الدين محمد على بغداد، ومن العوامل التي جعلت علاء الدين يسرع بالعودة إلى عاصمته خوارزم وعدم إكمال مسيره إلى بغداد، تخوفه من هجوم التتار على بلاده"[3].

وهنا لا بد من التعرض لمسألة في غاية الأهمية، ارتبطت بعلاقة الخلافة العباسية في عهد الناصر والدولة الخوارزمية وهي اتهام الخليفة الناصر لدين الله بمراسلة التتار وتحريضهم على مهاجمة الدولة الخوارزمية، لإشغالهم عن مهاجمة بغداد، وقد أورد هذا الاتهام، ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ في موضعين، فقد لمح في معرض حديثه عن التتار بقوله: "وقيل في سبب خروجهم -أي التتار- إلى بلاد الإسلام غير ذلك مما لا يذكر في بطون الدفاتر:

فكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر[4]".

ثم عاد ابن الأثير وذكر هذا الاتهام صراحة سنة (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) أثناء ترجمته للخليفة الناصر، يقول في هذا الصدد: "وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحا من أنه هو الذي أطمع التتار في البلاد وراسلهم في ذلك فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم"[5]. كما أن السلطان جلال الدين منكبرتي (٦١٧-٦٢٨هـ/ ١٢٢٠-١٢٣٠م) اتهم الناصر بذات التهمة، فقد بعث

(1) اسد أباذ، مدينة بينها وبين همذان، مرحلة واحدة نحو العراق، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص١٧٦.
(2) أبو شامة، الذيل، ص١٠٠-١٠١/ وانظر، ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣١٣/ النسوي، سيرة، ص٦٤/ الذهبي، سير، ج٢٢، ص٢٣١/ ابن خلدون، العبر، ج٥، ص١٢٨-١٢٩.
(3) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣١٣.
(4) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٣١.
(5) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٦١.

برسالة للمعظم عيسى بن الملك العادل الأيوبي، صاحب دمشق جاء فيها : "أنت تحضر ومن عاهدني واتفق معي حتى نقصد الخليفة، فإنه كان السبب في هلاك أبي ومجيء الكفار* إلى البلاد، ووجدنا كتبه إلى الخطا وتواقيعه لهم بالبلاد والخيل والخلع"(1). إن هذا الاتهام الذي أورده كل من ابن الأثير وجلال الدين منكبرتي لا يصمد أمام النقد التاريخي، فقد اعتمد ابن الأثير في روايته على ما ينسبه العجم، وعلى ما يبدو أن اعتماد ابن الأثير كان على ما ذكره منكبرتي في الرسالة التي بعث بها للمعظم عيسى، أو ممن أخذوا هذه الرواية من مؤرخي العجم، وهذا الأمر يجعلنا نشكك بالرواية كونها صدرت عن أحد طرفي النزاع وهم الخوارزميون.

أما النقطة الأخرى التي تجعلنا نقف امام رواية ابن الأثير موقف المتشكك، ما يرويه ابن الأثير نفسه، في حوادث سنة (٦١٧هـ/ ١١٢٠م)، فقد ذكر أن مجموعة من التجار التتار وصلوا لمدينة اوترار وهي آخر ولايات الدولة الخوارزمية من جهة التتار، فقام حاكم المدينة، بقتلهم بإيعاز من علاء الدين محمد، الذي ندم على فعلته هذه فيما بعد(2). فكان هذا السبب المباشر في اجتياح جنكيزخان للدولة الخوارزمية، وهذا ما أكده ابن الأثير نفسه.

وأخيراً فقد أثبتت حركة التاريخ أن دول الشرق –نقصد شرق العراق– في الأغلب الأعم كان تمددها واتساعها باتجاه الغرب، وهذا ما أكدته حركة البويهيين والسلاجقة، والخوارزميين، وينسحب هذا الأمر على التتار، كما أن التتار لا يتلقون أوامرهم من الخلافة العباسية، فحركة بهذا العنف وهذه القوة، والتي استطاعت أن تغزو العالم الإسلامي آنذاك في مدة قصيرة نسبيا، لا يعقل أن تكون بنت حركتها على طلب من الخليفة العباسي الناصر لدين الله.

---

* وفي السير، ج ٢٢، ص ٢٤٢ "التتار".

(1) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص٦٣٥/ ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ج١٣، ص١١.
(2) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٣٠-٣٣١.

ونستطيع القول أن علاء الدين محمد، ومن بعده جلال الدين منكبرتي، يتحملون الجزء الأكبر في اجتياح التتار للعالم الإسلامي،ولا نعفي الخليفة الناصر لدين الله جزء من هذه المسؤولية، فقد أدى التنافس فيما بينهم على النفوذ إلى إضعاف الجانبين مما أعطى فرصة للتتار لاجتياح العالم الإسلامي.

توفي السلطان علاء الدين محمد سنة(٦١٧هـ / ١٢٢٠)، أثناء صراعه مع التتار، وجاء بعده ابنه جلال الدين منكبرتي[1]. وبالرغم من أن خطر التتار بدأ يتعاظم، مما يحتم تكاتف القوى الإسلامية في مواجهة هذا الخطر المدمر الا أن جلال الدين أبقى حالة العداء مع الخلافة العباسية، ففي سنة(٦٢٢هـ/١٢٢٥م) وصلت قواته إلى إقليم خوزستان، وأخذت بمحاصرة مدينة تستر عاصمة الإقليم، إلا أنهما صمدت بوجه الجيش الخوارزمي، فتفرق الجيش يعيث وينهب في مدن العراق، فوصل إلى بادرايا[2] وباكسايا[3] والبصرة، ثم انطلق جلال الدين نحو بغداد، إلى أن وصل بعقوبا، وعندما وصلت أخبار قدومه لبغداد أخذ الخليفة بالاستعداد" واخرج السلاح وفرق ألف ألف دينار، ونصب المنجنيقات على الأسوار، وفرق السلاح وفتح الأهراء"[4] إلا أن جلال الدين اضطر للانسحاب، بسبب ما لحق بجيشه من التعب والإعياء وبعد فشل حركة جلال الدين منكبرتي على العراق، اضطر لمهادنة الخلافة العباسية، حتى يتفرغ لخطر التتار الذي اخذ يهدد خوارزم بشكل مباشر ليحصل على دعم الخلافة في صراعه هذا[5].

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٣٣-٣٣٤.

(2) بادرايا، طسوج بالنهروان، وهي بليدة بالقرب من باكسايا بين البندنيجين ونواحي واسط، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٣١٦.

(3) باكسايا، بلدة قرب البندنيجين وبادرايا بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي في أقصى النهروان، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٣١٦.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢، ص٦٣٤/ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٥٦.

(5) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين، ص١٩٢-١٩٣.

الأيوبيون

يعد الأيوبيون أصحاب فضل على الخلافة العباسية، فقد استطاع مؤسس دولتهم صلاح الدين الأيوبي من إعادة مصر لحظيرة الخلافة العباسية، عندما أسقط الخلافة الفاطمية سنة (٥٦٧هـ/ ١١٧١م).

ويعود أول اتصال مباشر ورسمي بين الأيوبيين والخلافة العباسية إلى سنة (٥٧٠هـ/ ١١٧٤م) عندما بعث صلاح الدين الأيوبيين للخليفة المستضيء بأمر الله طالبا تقليده مصر وبلاد الشام واليمن وما يفتحه من بلاد، وقيام الخلافة بمنحه هذا التقليد.

وبذلك ارتكزت علاقة الأيوبيين مع الخلافة العباسية بحاجتهم لتقليد الخليفة الذي يمنحهم شرعية حكم المناطق التابعة لهم، ويعزز موقفهم في جهاد الفرنج.

ونستطيع القول أن هذه العلاقات اتسمت بالاحترام المتبادل من خلال المراسلات التي تكاد تكون متصلة بين الطرفين، وإن تخلل هذه العلاقات بعض الاختلاف في وجهات النظر، حول بعض القضايا، وخاصة في عهد السلطان صلاح الدين.

ففي سنة (٥٧٦هـ/ ١١٨٠م) وصل شيخ الشيوخ صدر الدين أبو القاسم عبدالرحيم، وشهاب الدين بشير الخاص، رسلا من الخليفة الناصر لدين الله، لأخذ البيعة من السلطان صلاح الدين، ومعهم التفويض بتقليده البلاد[1]. وعبر استقبال صلاح الدين لرسل الخليفة، عن مدى الاحترام والخضوع للخلافة "فتلقيناهم بالتعظيم والتمجيد، وركب السلطان للتلقي وعلى صفحاته بشائر التلقي، فلما تراءى له الرسل الكرام، ووجب لهم الإجلال والإعظام نزل وترجل

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص٣٦/ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص٣٦٠/ الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة ٥٧٠، ص٤١-٤٢/ ابن كثير، البداية، م٦، ج١٢، ص٣٢٧-٣٢٨/ العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٢، ص٢٥٤/ المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص٧٠.

وأبدى الخضوع وترجل ونزع الرسل إليه، وسلموا عن أمير المؤمنين عليه، فتقبل الفرض، وقبل الأرض، ثم ركبوا ودخلوا المدينة"(١).

ومن المؤشرات التي تبين مدى تقدير صلاح الدين للخلافة العباسية وأنه يأتمر بأمرها، تنفيذه لأوامر الناصر، بفك حصاره عن الموصل سنة (٥٧٨هـ/ ١١٨٢م)، أثناء صراعه مع صاحبها عز الدين مسعود بن مودود على حلب بعد موت الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود(٢).

وحرص السلطان صلاح الدين على تزويد الخلافة، وبشكل منظم على أخبار جهاده وفتوحاته ضد الفرنج، حتى أنه كان يتوسع في وصف المدن والأسوار التي كان يحاصرها، والمعارك التي كان يخوضها(٣). "وكان لا يفعل شيئا، ولا يريد أن يفعله إلا اطلع عليه الخليفة، أدبا، واحتراماً، وطاعة، واحتشاماً"(٤).

وفي سنة (٥٨٨هـ/ ١١٩٢م) عندما تأخر السلطان صلاح الدين بإرسال الرسل، بعث إليه الخليفة يعاتبه على ذلك، ويطلب منه إرسال القاضي الفاضل لبغداد لتسوية بعض الأمور، فلبى صلاح الدين طلب الخلافة، وبعث بالضياء السهروردي، معتذراً بعدم إرسال القاضي الفاضل كونه شيخ كبير السن لا يطيق السفر(٥).

وعلى الرغم من ذلك تخللت العلاقات الأيوبية العباسية بعض المواقف التي عبرت عن الاختلاف في وجهات النظر، ففي سنة (٥٧٧هـ/ ١١٨١م) "أرسل الخليفة الناصر يعاتب السلطان صلاح الدين في تسميته بالملك الناصر مع علمه أن الخليفة اختار هذه التسمية لنفسه"(٦). مع علم الخليفة أن صلاح الدين تلقب

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص١٩.
(2) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٥٣-١٥٤، ١٥٧-١٥٨، الذهبي، سير، ج٢٢، ص٢-٣.
(3) السبكي، طبقات الشافعية، ج٧، ص٣٦٩/ وانظر: ابن شداد، النوادر، ص٢٣٧-٢٣٨/ ابن الأثير، رسائل ابن الأثير، ص٦٦-٧٥.
(4) ابن كثير، البداية والنهاية، م٢، ج١٢، ص٣٣٥-٣٣٦.
(5) أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٢٣، ٣٧، ٤٠-٤١، ٦٠-٦٢، ٨٩/ الذهبي، سير، ج٢٢، ص٢١١.
(6) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٦٢.

بهذا اللقب في عهد الخليفة المستضيء بأمر الله، وعلى ما يبدو أن الناصر أراد بذلك التعرف على رد فعل صلاح الدين تجاه الخلافة فالناصر بدأ يخشى القوة التي وصل إليها صلاح الدين، وهذا ما جعله يستطلع أخباره "ورسل الخليفة في كل سنة تجيء غير مرة بالتودد ظاهراً، واستعلام أخبار السلطان باطناً"[1]. وهذا ما ذهب إليه الباحث رشاد، من أن تعاظم قوة صلاح الدين الأيوبي، والمكانة التي بدأ يحظى بها لدى المسلمين كونه المدافع الوحيد عن الإسلام ضد الفرنجة، وغياب أية قوة إسلامية ممثلة بسلطان قوي، أدت إلى خشية الخليفة من صلاح الدين، والتعامل معه على أنه خصم محتمل، وهذه الأسباب جعلت الخليفة يحجب دعمه المعنوي عن صلاح الدين على حد قول الباحث[2].

ومع اتفاقنا مع الباحث رشاد، من خشية الخليفة الناصر من السلطان صلاح الدين للأسباب التي ذكرها، إلا أننا لا نتفق معه في مسألة حجب الخليفة لدعمه المعنوي للسلطان صلاح الدين، فإذا كان الدعم المعنوي ممثل بالاعتراف بسلطة صلاح الدين على المناطق التي يسيطر عليها، فقد تم له ذلك، عندما بعث له الخليفة سنة (٥٧٦هـ/ ١١٨٠م) بالتقليد الذي يعطيه شرعية حكم تلك البلاد[3]، وقد تكرر هذا الأمر سنة (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) عندما بعث له ولأخيه العادل الخلع[4]. بل نجد أن الأمر تعدى الدعم المعنوي إلى الدعم العسكري في حدود إمكانيات الخلافة، ففي سنة (٥٨٦هـ/ ١١٩٠م) بعث الخليفة الناصر لصلاح الدين، حملان من النفط، وجماعة من النفاطين والزراقين، ورقعة من ديوان الخلافة، تسمح له باقتراض مبلغ عشرين ألف دينار من التجار والأعيان على أن يسددها ديوان الخلافة[5].

---

(1) السبكي، طبقات الشافعية، ج٧، ص٣٦٩.
(2) Rashad, p.135
(3) انظر، ملحق رقم (٨).
(4) ابن كثير، البداية والنهاية، م٦، ج١٢، ص٣٣٦.
(5) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١١٨-١١٩.

وهنا نأتي لمسألة أخرى أثارها الباحث رشاد، وهي أن الخليفة الناصر لم يكن مهتما بالجهاد، ولم تكن إحدى أولوياته، وخاصة جهاد الفرنج، سواءا الجهاد المباشر، من خلال المشاركة الفعلية لجند الخلافة، أو غير المباشر، من خلال دعمه لصلاح الدين ماديا ومعنويا[1]. وهنا نتساءل هل كان بإمكان الخليفة الناصر أن يقدم دعمه العسكري المؤثر في موازين القوى لصالح صلاح الدين؟ أن دراستنا لعهد الناصر تبين انه لم يكن بمقدوره أن يقدم هذا الدعم، وذلك لانشغاله وتخوفه من السلاجقة، وآخر سلاطينهم طغرل الثالث، الذي بدأ يفكر جديا، بالتوجه لبغداد والسيطرة عليها، ونرى أن هذا الخطر كان عاملا رئيسا في عدم قدرة الخلافة إمداد الأيوبيين بالقوات العسكرية وليس ما ذكره رشاد، بإحجام الناصر عن دعم صلاح الدين، كون الخطر الفرنجي بعيدا عن بغداد.

وعلى العموم استمرت العلاقة بين الخليفة الناصر لدين الله والسلطان صلاح الدين الأيوبي، طيبة حتى وفاة الأخير سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م) [2].

وبموت السلطان صلاح الدين الأيوبي اقتسم أبناؤه الدولة الأيوبية، فخضعت دمشق وأعمالها لابنه الأكبر الأفضل نور الدين علي، كما استقر الملك العزيز عثمان بمصر، أما الظاهر غازي فقد سيطر على حلب وأعمالها، وامتنع العادل أخو صلاح الدين في الكرك[3].

وأثناء صراع البيت الأيوبي على السلطة، لم تكن الخلافة العباسية بمعزل عن الأحداث، وإن لم يكن لها دور مؤثر في هذا الصراع، ففي سنة (٥٩٢هـ/ ١١٩٦م)، اتفق الملك العادل أبو بكر والعزيز عثمان، على الملك الأفضل، فكتب الأخير يشكو عمه وأخاه للخليفة الناصر بقوله:

مولاي إن أبا بكر وصاحبه

(1) Rasjad. P.135.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٢٥.

(3) نفس المصدر، ج٩، ص٢٢٦-٢٢٧.

عثمان قد غصبا بالسيف حق علي

فانظر إلى هذا الاسم كيف لقي

من الأواخر ما لقي من الأول

فأجابه الخليفة الناصر بقوله:

غصبوا عليا حقه إذ لم يكن

بعد النبي له بيثرب ناصر

فاصبر فإن غدا عليك حسابهم

وابشر فناصرك الإمام الناصر[١].

إلا أن الخليفة الناصر: "لم يزل عنه شكواه، ولم يدفع عنه لأواه"[٢].

وبعدما استقر الأمر للملك العادل، بفرض نفسه بالقوة على أبناء أخيه، وأصبح سلطان مصر والشام، بعث بأستاذ داره أيلدكز العادلي، والقاضي نجم الدين خليل الحموي قاضي عسكره، رسولين للخليفة الناصر، وذلك سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) يطلب التشريف والتقليد على مصر وبلاد الشام والشرق وخلاط، وعندما وصلا أكرمهما الخليفة، وبعث معهما الشيخ شهاب الدين السهروردي، ومعه التشريف والتقليد، وخلعه لوزير العادل صفي الدين بن شكر، كما أرسل خلعا لأولاده، المعظم، والأشراف، والكامل، وقد بالغ الملك العادل في استقبال رسول الخليفة تقديرا واحتراما للخليفة، وفي هذا التقليد لقب الملك العادل "بشاهنشاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين"[٣].

---

(1) القلقشندي، مآثر الانافة، ج٢، ص٦٣.

(2) نفس المصدر، ج٢، ص٣٦.

(3) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، م٥، ج١، ص٦٣-٦٥.

واستمرت علاقات الود والاحترام، بين الملك العادل وأبنائه من بعده، والخلافة العباسية، حتى وفاة الخليفة الناصر سنة (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) [1].

وفي ختام حديثنا عن علاقة الخلافة العباسية في عهد الخليفة الناصر لدين الله، بقوى الأطراف، نستطيع القول أن الناصر استطاع بحنكته السياسية، وبعد نظره في التعامل مع هذه القوى، أن يجنب الخلافة الأخطار التي أحدقت بها، ونجح نجاحا كبيرا في المحافظة على استقلال مؤسسة الخلافة، ومد نفوذها الروحي في أقصى اتساع لها، منذ القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي، فقد خطب للخليفة الناصر على منابر مكة والمدينة، واليمن، وبلاد ما وراء النهر، وخراسان، والعراق، ومصر وبلاد الشام والمغرب، والأناضول[2].

كما استطاع الناصر سنة (٦٠٨هـ/ ١٢١١م) من استقطاب الحركة الإسماعيلية عندما أعادوا شعار الإسلام، وخطبوا للخليفة على منابرهم[3].

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٦٠-٣٦١/ ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ج١٣، ص١١٢٤-١١٥/ اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص٤٠-٤١/ حمارنه، وقفة عند الخليفة العباسي الناصر، ص١٦٠.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٧١/ ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١١٩-١٢٠/ ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٣، ص٥٢٤/ الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة ٥٨١هـ ص٥.

(3) الموفق البغدادي، ص١١١/ العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص٣٢.

الخاتمة

شكل مقتل الخليفة المتوكل على الله على أيدي القواد الأتراك سنة (٢٤٧هـ / ٨٦١م) بداية مرحلة خطيرة في تاريخ الخلافة العباسية، توارى فيها دور الخلفاء، وتراجع نفوذهم السياسي، لحساب القوى المتغلبة على مؤسسة الخلافة، وأصبحت مقدرات الدولة نهباً لقادة الجيش، الذي أصبح انتماؤه وولاؤه لقياداته المتعددة وبذلك فقد الجيش ولاءه للخلافة وأصبحت تحركه مطامع ومطامح قياداته.

ونتيجة الفوضى التي دبت في أجهزة الدول ودواوينها، وعجز الخلفاء على ضبط شؤون الدولة، لجئوا إلى تفويض سلطاتهم الزمنية لأقوى أمراء الجيش، ليظهر منصب جديد في الدولة هو منصب "إمره الأمراء" والذي أخذ يتصرف من يتسلمة بما ينسجم مع مصالحه دون النظر لمصلحة الدولة، وأدى هذا الأمر إلى اشتداد التنافس بين الأمراء للوصول إلى هذا المنصب.

وفي خضم هذا الصراع، استغل البويهيون الشيعة حالة الفوضى في العراق، واستطاعوا الدخول لبغداد، وأحكموا سيطرتهم على مؤسسة الخلافة، بحيث تلاشت سلطات الخلفاء الزمنية تماما، وتم الاعتداء على سلطاتهم الدينية، وتعرض الخلفاء في هذه الفترة للخلع، والقتل، والسمل، إلى جانب تفكك وحدة الدولة السياسية، إذ استقلت بعض الولايات عن الخلافة العباسية، ولم يعد يربطها بالخلافة سوى الارتباط الديني، من خلال الخطبة للخليفة على منابرها، وتعيين الخلافة لأصحاب الخطط الدينية.

ومع بدء ضعف البويهيين، واشتداد التنافس فيما بينهم على السلطة، في مطلع القرن الخامس الهجري استغل الخليفة القائم بأمر الله هذا التنافس لإحياء مؤسسة الوزارة والتي تعطلت منذ تغلب القادة الأتراك على الخلافة.

كما وجد في السلاجقة القوة السنية الناشئة في مشرق العالم الإسلامي، فرصة مواتية للتخلص بواسطتهم من النفوذ البويهي، ووقف اندفاع الدعوة

الفاطمية في أراضي الخلافة العباسية، وكان لبروز وتعاظم خطر قائد الجند في بغداد الباسيري والمدعوم من الفاطميين، السبب الرئيس في اتخاذ الخليفة القائم بأمر الله قرار الاستعانة بالسلاجقة، والذين كانوا مرابطين على حدود العراق ينتظرون الفرصة المناسبة للاندفاع إلى بغداد.

وبدخول السلاجقة للعراق، وتفويض الخليفة القائم بأمر الله سلطاته الزمنية لطغرلبك، ومنحه لقب سلطان، يبدأ دور جديد في تاريخ الخلافة العباسية.

وعلى الرغم من مظاهر الاحترام التي أبداها السلاجقة للخلفاء العباسيين الا أنهم ما لبثوا أن احكموا سيطرتهم على مؤسسة الخلافة، وأخذوا يتعاملون مع العراق على انه جزءا من الدولة السلجوقية، ونقلوا أموال الدولة إلى خزائنهم وأصبحت بغداد لأول مرة في تاريخها عاصمة ثانية، فلم يتخذها السلاطين مقرا لحكمهم، وإنما استحدثوا منصبين إداريين فيها كنواب عنهم، وهما منصبا العميد والشحنة، ولعبا هذان المنصبان دورا مهما في تطور العلاقة بين الخلافة والسلطنة.

أدى تعامل سلاطين السلاجقة ونوابهم في بغداد مع الخلافة العباسية إلى خيبة أمل كبيرة، طالما عبر عنها الخفاء العباسيين في أكثر من موقف، وجاءت خيبة أملهم من اعتقادهم أن حرمة الخلافة واحترامها ستزداد لأنها تحت حماية جيش سني، الا أن السلاجقة أخذوا بالتضييق على الخلفاء، ومارسوا كل أصناف الضغوط للحصول على الأموال، والألقاب، والخلع، بل تعدى ذلك إلى مشاركة الخلفاء في مظاهر سيادتهم الدينية، كذكر أسماءهم على منابر بغداد تلو اسم أمير المؤمنين، وضرب الطبول على أبوابهم في أوقات الصلوات، إلى جانب التدخل في تعيين أصحاب الخطط الدينية، بالإضافة إلى نقش أسماءهم مقرونة باسم أمير المؤمنين على السكة.

وكان تدخل السلاجقة في تعيين الجهاز الإداري للخلفاء يمثل اعتداءً سافراً على مؤسسة الخلافة، وحقها في تعيين جهازها الإداري، بحيث وصل الأمر بالسلاجقة إلى تعيين وزراء للخلفاء وفرضهم بالقوة.

وتجرأ السلاطين السلاجقة على طلب الزواج من بنات الخلفاء،رغم اعتراض الخلفاء على ذلك كونه لم يتجرأ أحد من المتغلبين على الخلافة التعرض لهذا الأمر، إلا انه ونتيجة الضغوط التي تعرض لها الخليفة القائم بأمر الله من قبل السلطان طغرلبك وافق مضطرا على زواج طغرلبك من ابنته، والتي دلت طبيعة الإجراءات التي اتخذها السلطان عل عدم احترامه للخليفة، إذ جرده من اقطاعاته، ووصل الأمر بعميد العراق أن حاصر دار الخلافة ضاربا بعرض الحائط حرمتها وحرمة الخليفة.

وعلى الرغم من هذه الممارسات والضغوط التي تعرض لها الخلفاء والتي عبرت عن مدى استخفاف السلاجقة بهم، إلا أننا لم نجد محاولات ذات شأن، للعمل على استرداد الخلفاء لنفوذهم الزمني قبل المسترشد بالله، ومرد ذلك للقوة التي تمتع به السلاجقة في تلك الفترة، إلى جانب تماسكهم نتيجة وجود سلاطين أقوياء كطغرلبك، والب ارسلان، وملكشاه، وعلى الرغم من موت الأخير سنة (٥٨٥هـ/١٠٢٩م) وبدء الصراع بين كبار البيت السلجوقي على السلطنة، الا أن الخليفة المستظهر بالله لم يبد أية محاولة لاستثمار هذا الصراع لتقوية نفوذه.

وبوصول الخليفة المسترشد بالله سنة(٥١٢هـ/١١١٨م) للخلافة، يبدأ كفاح الخلفاء العباسيين للتحرر من النفوذ السلجوقي، فقد استطاع هذا الخليفة أن يدخل في مواجهات عديدة مع السلاجقة للتحرر من سيطرتهم من خلال تكوين جيش من عامة بغداد، إلى جانب الاستفادة من الصراع بين كبار البيت السلجوقي، الا أن اندفاع هذا الخليفة وحماسة الزائد واتخاذه قرارات غير محسوبة، كخروجه المتكرر من بغداد، إلى جانب تماسك السلاجقة النسبي في عهد السلطان مسعود، أدت إلى فشل حركته، ومقتله في نهاية المطاف، كما لم يفلح ابنه من بعده

الراشد بالله عندما سار على نهج والده، فكان لصغر سنه، وعدم خبرته سببا رئيسا في فشل استكمال ما بدأه والده وتلقى المصير نفسه.

كانت تجربة المسترشد بالله بما مثلته من اتخاذ قرار المواجهة مع السلاجقة، وتحقيق بعض الانتصارات الجزئية، إلى جانب الأخطاء التي وقع بها الخليفة المسترشد بالله بمثابة دروس مستقاة للخليفة المقتفي لأمر الله، فقد اثر هذا الخليفة التريث في مواجهة السلاجقة، وخاصة أن اختياره لمنصب الخلافة، جاء بعد تعهده للسلطان مسعود، بأن يلتزم بالشؤون الدينية، وعدم تجنيد الجند، إلى جانب أوضاع العراق المتردية من الناحية الاقتصادية والأمنية، أضف إلى ذلك إدراك المقتفي أن استمرار الصراع بين كبار البيت السلجوقي ستنهك قواهم، وتمزق وحدتهم، فآثر التريث، وانصرف للاهتمام بشؤون العراق الداخلية، وترتيب جهازه الإداري،واضعا نصب عينية تشكيل جيش الخلافة، الذين بدونه لن يستطيع تحقيق هدفه في استعادة النفوذ الزمني للخلافة، وقد أتته هذه الفرصة عندما تعرضت بغداد لهجوم من قبل منافسي السلطان مسعود، عندها أذن الأخير له باتخاذ التدابير التي يراها مناسبة للدفاع عن بغداد، وبذلك تخلص من تعهداته للسلطان مسعود، وأصبح للخلافة جيش أو نواة جيش، سيكتمل بناءه فيما بعد، وبموت السلطان مسعود، بدأ الخليفة يستعد للدخول في مواجهة منظمة مع السلاجقة لتحرير العراق وإعادة النفوذ الزمني للخلافة، وكان أول عمل قام به تشكيل الجيش النظامي الذي استطاع به صد عدة محاولات من قبل السلاجقة للسيطرة على بغداد، وخاصة حصار السلطان محمود سنة (٥٢٢هـ/١١٥٧م) والذي كان فشله بمثابة بداية النهاية للوجود السلجوقي في العراق، بحيث إنفرد الخليفة المقتفي لأمر الله بالخطبة على منابر بغداد، واستقل بالعراق، وأعاد النفوذ الزمني للخلافة ، وتمثلت عوامل نجاحه في ما يلي:

أولا: - إفادته من أخطاء سلفيه المسترشد بالله والراشد بالله.

ثانيا: - التريث في مواجهة السلاجقة منتظراً تبدل الظروف لصالحه.

ثالثا: - تكوين جيش خاص بالخلافة يدافع عنها ويحمي مكتسباتها.

رابعا: - استغلال الصراع بين كبار البيت السلجوقي على السلطنة، وإذكاء روح التنافس بينهم من خلال تقريبه لبعض الملوك، وضرب البعض الأخر.

خامسا: - استثمار القوى الداخلية في صراعه كعامة بغداد، وعلمائها، وفقهائها، وتوجيه المؤسسات الدينية والثقافية لخدمة هدفه.

سادسا:- حسن اختياره لرجال إدارته كوزيرة عون الدين بن هبيرة الذي كان له دور كبير في هذا الصراع.

وبتخلص الخلافة من السيطرة السلجوقية على العراق، اخذ الخليفة يبدي اهتمامه بشؤون العامة،من خلال زياراته المتكررة لمدن العراق وقراه وايلاءه النواحي الاقتصادية جل اهتمامه. وبرغم بعض المحاولات من قبل الأمراء السلاجقة للسيطرة عل العراق في عهد كل من الخليفتين المستنجد بالله والمستضيء بأمر الله، إلا أن العراق بقي عصيا على هذه المحاولات، وهذا ما جعل هذان الخليفتان يبديان اهتماما كبيراً بشؤون العراق الداخلية فانتعشت الأوضاع الاقتصادية والأمنية وبدى العراق أكثر استقراراً وأمناً.

وكان لنجاح الخلافة في استرداد نفوذها الزمني في عهد المقتفي لأمر الله، اثر كبير في عودة مصر لحظيرة الخلافة العباسية، نتيجة الضغط المتواصل الذي مارسه الخلفاء العباسيون على نور الدين محمود، حتى تحققت عودتها في عهد الخليفة المستضيء بأمر الله.

كما شهد عهد كل من المستنجد بالله والمستضيء بأمر الله، صراعا من نوع آخر، كان له اثر كبير في التعدي على سلطات الخليفة وصلاحياته، فقد اشتد التنافس والصراع على النفوذ بين كبار المتنفذين داخل الإدارة العباسية كان من الحدة بحيث ذهب ضحيته الخليفة المستنجد بالله ووزيره ابن البلدي، على أيدي رجال إدارته، وترتب على ذلك أن أصبح الخليفة المستضيء بأمر الله حبيس دار

الخلافة لا حول له ولا قوة أمام تسلط رجال إدارته، بحيث لم يكن قادراً على تعيين احد الوزراء، وكما تعرضت دار الخلافة للحصار أكثر من مرة من قبل أمير العسكر، ولم يستطع الخليفة التخلص من أمير عسكره، إلا باللجوء لعامة بغداد الذين اثبتوا أن ولاءهم دائما كان للخلافة العباسية.

وإذا كان عهد الخليفة المقتفي لأمر الله مثل مرحلة التحرر من السيطرة السلجوقية والاستقلال بالعراق، وعهد الخليفتين المستنجد بالله والمستضيء بأمر الله تعزيز هذا الاستقلال والمحافظة عليه، وإيلاء شؤون العراق الداخلية جانبا كبيرا من الأهمية، فأن الناصر جاء ليستثمر هذه الإنجازات لإحياء الخلافة العباسية من خلال مد نفوذها الديني والزمني إلى معظم الأراضي الإسلامية، ولإدراكه أن هذا الأمر لا يتحقق الا من خلال بناء جبهة داخلية متماسكة يكون ولائها للخليفة نفسه، اخذ بإتباع سياسات متعددة، لتحقيق هدفه، سواء على الصعيد الداخلي أو على صعيد تعامله مع قوى الأطراف.

كانت سياسته الدينية المعتدلة في التعامل مع السنة والشيعة، وقد اخذ عليه تقربه من الشيعة في بداية خلافته، إلا أن هذا الأمر لم يكن عل حساب السنة فقد كان تقربة من الشيعة بمثابة إعادة الثقة لهذه الشريحة العريضة من المجتمع، ثم إتباع سياسة تقريب وجهات النظر بين السنة والشيعة،وما لجوءه لإحياء نظام الفتوة إلا تأكيدا على هذه السياسة التي أراد من خلالها البحث عن قواسم مشتركة بين السنة والشيعة للانضواء تحت لوائه، والاعتماد عليهم في تحقيق هدفه وهو بسط نفوذ الخلافة كما حاول أن يجعل من نظام الفتوة وسيلة يستطيع من خلالها استقطاب ملوك الأطراف وتسخيرهم لخدمة هدفه.

إلا أن الناصر لم يستطع استغلال نظام الفتوة بشكل عملي، فيما يتعلق بملوك الأطراف، إذ لم يتجاوز نجاحه في ذلك، سوى كسب احترام هؤلاء الملوك من خلال تبعيتهم الدينية للخلافة، وقد لا نسميه نجاحا لأن مثل هذه المكاسب كان يحققها بصفته خليفة المسلمين المفترض الطاعة على الخلق أجمعين.

وقد يعزى السبب في عدم نجاح الناصر باستقطاب ملوك الأطراف انه فشل في إعداد جيش كبير وقوي يستطيع من خلاله فرض هيبة الخلافة ومد نفوذها وعلى الرغم من الفترة الطويلة التي حكم فيها الناصر، إلا أن نجاحاته لم تتجاوز المحافظة على استقلال العراق، ومؤسسة الخلافة على الرغم من الآمال العريضة التي كان يحملها هذا الخليفة،وقد يعود السبب إلى أن الخلافة كانت تخرج من مأزق لتقع في مأزق أخر، فعندما تخلصت من خطر الدولة السلجوقية، ظهرت الدولة الخوارزمية والتي كانت تتمتع بقوة تفوق قوة الخلافة، وحاولت هذه الدولة السيطرة على بغداد، وعلى الرغم من نجاح الناصر في تجنيب العراق خطرهم الا أنها أنهكت دولة الخلافة، واضطرتها إلى التقوقع داخل العراق لتكتفي بنفوذها الديني، الذي أعطاها صفة القدسية، متنازلة لحكام الأطراف عن سلطتها الزمنية، ليبقى العالم الإسلامي متشرذماً في دويلات ما لبثت أن انهارت أمام جحافل التتار.

ثبت المصادر والمراجع

١ـ المصادر المخطوطة

- ابن حمدون، محمد بن الحسن، (ت٥٦٢هـ/١١٦٦م).

* التذكرة الحمدونية، مكتبة احمد الثالث، نسخة مصورة في مركز الوثائق الجامعة الأردنية، رقم ٦٠٩.

- ابن أبي عذيبة، شهاب الدين احمد بن محمد بن عمر المقدسي(ت٥٨٦هـ/١١٩٠م).

* إنسان العيون في مشاهير سادس القرون، المتحف العراقي، رقم ٢٩٥، نسخة مصورة في مركز الوثائق، الجامعة الأردنية، رقم ١٨٣٤.

- العماد الأصفهاني، محمد بن محمد بن حامد(ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م).

* نصرة الفترة وعصر القطرة، المكتبة الأهلية، باريس، رقم (ARABE 2145) يوجد منها نسخة لدى الباحث، عصام عقلة.

٢ـ المصادرة المطبوعة:

- ابن الأثير، ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد الجزري، ٦٣٧هـ/١٢٣٩/.

* ديوان رسائل إبن الأثير، تحقيق هلال ناجي، منشورات جامعة الموصل، ١٩٨٢/.

- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد(ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م).

* الكامل في التاريخ، ٩ أجزاء، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٦، ١٩٨٦م.

* الباهر في الدولة الاتابكية، تحقيق عبد القادر احمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط١ ، ١٩٦٣م.

- الاربلي، أبو محمد بدر الدين عبد الرحمن بن ابراهيم سنبط قنينو (ت ٧١٧هـ/١٣١٧م).

- خلاصة الذهب المسبوك، مختصر من سير الملوك، صححه مكي السيد جاسم، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٦٤م.

- ابن أبي اصيبعة، موفق الدين احمد بن قاسم بن خليفة(٦٦٨هـ/١٢٦٩م).

* عيون الانباء في طبقات الاطباء، تحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.

- ابن ايبك الدواداري، أبو بكر عبد الله (ت ٧٣٤هـ/١٣٣٢م).

* مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة١٩٦٨م.

-البنداري، ابوالفتح علي بن محمد (٦٤٣هـ /١٢٤٥م).

* تاريخ دولة ال سلجوق، مطبعة الموسوعات، مصر، اعادة طبعة، دار الافاق الجديدة بيروت، ١٩٨٧م.

- بنيامين، ابن يونة التطلي النباري الاندلسي (ت ٥٦٩هـ/١١٧٣م).

* الرحلة، ترجمة وتعليق عزرا حداد، المطبعة الشرقية ، بغداد، ١٩٤٥م.

-البيروني، أبو الريحان محمد بن احمد (ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م).

* الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق ادوارد سخاو، ليبزج، ١٩٢٣م، أعادت نشره بالاوفست، مكتبة المثنى، بغداد.

- ابن البيبي، ناصر الدين حسين الجعفري(من أدباء ومؤرخي القرن السابع الهجري).

* أخبار سلاجقة الروم" مختصر سلجوقنامة"، ترجمة محمد سعيد جمال الدين، جامعة قطر، الدوحة، ١٩٩٤م.

- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف(ت ٧٨٤هـ/١٤٦٩م).

* النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (٥) أجزاء، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، مطابع كونتسابرس، مصر، ١٩٣٣م.

-ابن جبير، أبو الحسن محمد بن احمد الكتاني الاندلسي(ت ٦١٤هـ/١٢١٧م).

* رحلة ابن جبير، دار الشرق العربي، بيروت، (د،ت).

-ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي بن محمد(ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م.

* المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٨ جزء، دراسة وتحقيق، محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر، راجعه وصححه، نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٩٩٥م.

.المصباح المضيء في خلافة المستضيء، جزءان، تحقيق نلجية ابراهيم ، منشورات الأوقاف، مطبعة الأوقاف، بغداد، ١٩٧٦م.

-الجويني، امام الحرمين محمد بن عبد الملك(ت ٤٧٨هـ /١٠٨٥م).
* غياث الأمم في التياث الظلم ، تحقيق ودراسة مصطفى حلمي، وفوائد عبد المنعم احمد، دار الدعوة للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ١٩٧٩م.
- الحسيني، صدر الدين أبو الحسن بن ناصر(ت ٦٢٢هـ/١٢٢٥م).
* زبدة التواريخ (أخبار الدولة السلجوقية)، ط١، تصحيح محمد إقبال،، لاهور، ١٩٣٣م، ط٢ تحقيق محمد نور الدين، بيروت، مطبعة دار أقرأ للنشر والتوزيع، ١٩٨٥م.
- الحموي، أبي الفضائل محمد بن علي (ت ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م).
* تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان المعروف بالتاريخ المنصوري، تحقيق أبو العيد دودو، مطبوعات مجمع اللغة العربية، مطبعة الحجاز، دمشق ، ط١، ١٩٨١م.
- الخطيب البغدادي، الحافظ أبي بكر احمد بن علي (ت ٤٦٣هـ /١٠٧٠م).
* تاريخ بغداد، ١٤جزء، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت).
- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م).
* ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ضبط ووضع الحواشي والفهارس، خليل شهادة ، مراجعة، سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨١م.
- ابن خلكان، شمس الدين، أبو العباس احمد بن احمد (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م).
* وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨ أجزاء، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.
- ابن الدبيثي، محمد بن سعيد (ت ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م).
* المختصر المحتاج إليه، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٥١م.
- ابن دقماق، ابراهيم بن محمدبن أيدمر العلائي (ت ٨٩٠هـم ١٢٩١م).
* الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين، جزءان، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٧٧م.

- الدمياطي، احمد بن أيبك الحسامي (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م).

* المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م.

- الدميري، كمال الدين محمد بن يوسف (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م).

* حياة الحيوان الكبرى، جزءان، راجع حواشيه وقدم له احمد حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م.

- الدياربكري، حسين بن احمد (٩٦٦هـ/١٥٥٨م).

* تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، جزءان، مطبعة عثمان عبدالرزاق، القاهرة، ١٨٨٤م.

- الذهبي، شمس الدين محمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م).

* تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبدالسلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٦م.

* سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الارناؤوط ومحمد العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤م.

* العبر في خبر من عبر، تحقيق محمد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م.

* دول الإسلام، جزءان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الدكن، ١٩٤٥م.

* تذكرة الحفاظ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد الدكن، ١٩٥٥م.

- الراوندي، محمد بن علي بن سليمان، (ت٦٠١هـ/ ١٢٠٤م).

* راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، نقله إلى العربية ابراهيم الشواربي، وعبدالمنعم حسنين وفؤاد الصياد، دار القلم، ١٩٦٠م.

- ابن رجب الحنبلي، عبدالرحمن بن أحمد (ت ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م).

* ذيل طبقات الحنابلة، جزءان، تحقيق محمد حمد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٢م.

- ابن الساعي، أبو طالب علي بن أنجب (ت ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م).

* الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، ج٩، تحقيق مصطفى جواد، المطبعة السيريانية، بغداد، ١٩٣٤م.
* نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والاماء، دار المعارف،ا لقاهرة، (د.ت).
- ابن سباط، حمزة بن احمد بن عمر (ت٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م).
* صدق الأخبار، المعروف بتاريخ ابن سباط، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، جزءان، جروس برس، طرابلس، ط١، ١٩٩٣م.
- سبط بن الجوزي، أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي (ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م).
* الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة من كتاب مرآة الزمان في تاريخ الاعيان، نشره علي سويم، مطبعة الجمعية التاريخية التركية، انقره، ١٩٤٠م.
* مرآة الزمان في تاريخ الاعيان، ج٨، ق١، ٢ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد الدكن، الهند، ١٩٥١م.
- السبكي، عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي (ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م).
* طبقات الشافعية الكبرى، ١٠ اجزاء، تحقيق محمد الطناحي، عبدالفتاح الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٤م.
- السخاوي، أبو الحسن نور الدين علي بن احمد بن عمر (ت ٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م).
* تحفة الاحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات، صححه وعلق عليه محمود ربيع وحسن قاسم، مكتبة النشر والتأليف الأزهرية، القاهرة، ١٩٣٧م.
- السمرقندي، النظمي العروضي (توفي في النصف الثاني من القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي).
* جهار مقاله (المقالات الأربع)، نقله إلى العربية عبدالوهاب عزام، يحيى الخشاب، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٤٩م.
- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م).
* تاريخ الخلفاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

* حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية، ط١، ١٩٦٨م.
- أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي (ت ٦٦٢هـ/ ١٢٦٦م).
* الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق محمد حلمي احمد، مراجعة محمد مصطفى زيادة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦/ ١٩٦٢م.
* الذيل على الروضتين، تحقيق محمد زاهر الكوثري، القاهرة، ١٩٥٦م.
- ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م).
* النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو سيرة صلاح الدين الأيوبي، تحقيق جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٤م.
- ابن قاضي شهبة تقي الدين أبو بكر الاسدي (ت ٨٥١هـ/١٤٤٨م).
* الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧١م.
- الشهرستاني، أبو الفتح محمد عبدالكريم (ت ٥٤٨هـ/ ١١٣٥م).
* الملل والنحل، تحقيق عبدالعزيز محمد الوكيل، دار الفكر، بيروت، (د.ت).
- الشيرازي، المؤيد في الدين هبة الله، داعي الدعاة (ت ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م).
* سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، تحقيق محمد كامل حسن، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٤٩م.
- الصابئ، هلال بن المحسن (ت ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م).
* رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد، مطبعة العاني بغداد، ١٩٦٤م.
-الصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤ هـ/١٣٦٢ م).
* الوافي بالوفيات، ٢٤ جزءاً، تحقيق مجموعة من الأساتذة، فرانز ستاينر، بيروت، ١٩٦٢-١٩٩٤م.
* نكت الهميان في نكت العميان، وقف على طبعه علي زكي، المطبعة الجمالية، القاهرة، ١٩١١م.

- الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٥ هـ/٩٤٦ م).
* أخبار الراضي بالله والمتقي بالله أو تاريخ الدولة العباسية من سنة ٣٢٢-٣٣٣هـ القاهرة، ١٩٢٥م.
- الطرطوشي، محمد بن الوليد بن محمد الفهري (ت ٥٢٠ هـ/١١٢٦ م).
* سراج الملوك، تحقيق جعفر البياتي، رياض الريس للكتب والنشر، د.م، ١٩٩٠م.
- ابن الطقطقي، محمد بن علي (ت ٧٠٩ هـ/١٣٠٩ م).
* الفخري في الآداب السلطانية أو تاريخ الدول الإسلامية، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٦٠م.
- ابن العبري، أبو الفرج غريغورس الملطي (ت ٦٨٥ هـ/١٢٨٦ م).
* تاريخ الزمان، نقله إلى العربية اسحاق ارمله، دار المشرق، ١٩٨٦م.
* تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثولكية.
- ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم بن احمد بن هبة الله (ت ٦٦٠ هـ/١٢٦١ م).
* زبدة الحلب في تاريخ حلب، جزءان، تحقيق سامي الدهان، دمشق، ١٩٥٤م.
- العظمي، محمد بن علي الحلبي، (ت ٥٥٦ هـ/١١٦١ م).
* تاريخ حلب، تحقيق ابراهيم زعرور، دمشق، (د.ن)، ١٩٨٤م.
- العماد الأصفهاني، محمد بن محمد حامد (ت ٥٩٧ هـ/١٢٠٠ م).
* خريدة القصر وجريدة العصر، قسم العراق، ٥ أجزاء، تحقيق محمد بهجة الأثري وجميل سعيد، المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٥م.
* البرق الشامي، الجزء الثالث، تحقيق مصطفى الحياري، مؤسسة عبدالحميد شومان، عمان، ط١، ١٩٨٧م.
- العماد الحنبلي، أبو الفرج عبد الحي (ت ١٠٨٩ هـ/١٦٧٨ م).
* شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (د.ت).
- ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد (ت ٥٨٠ هـ/١٦٧٨ م).

* الأنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم السامرائي، المعهد الهولندي للآثار المصرية والبحوث العربية، لايدن، ١٩٧٠م.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥ هـ/١١١١ م).
* الاقتصاد في الاعتقاد، تصحيح مصطفى القباني، مصر، ط١، (د.ت).
- ابن الفارقي، احمد بن يوسف بن علي (ت ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م).
* تاريخ الفارقي، تحقيق عبداللطيف عوض، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ١٩٥٩م.
- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل، (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣١ م).
* المختصر في أخبار البشر، المعروف بتاريخ أبي الفداء، م، ٤ أجزاء، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).
- ابن الفوطي، أبو الفضل عبدالرزاق (ت ٧٢٣هـ/١٣٢٣ م).
* تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، جزء ٤، ق١-٤، تحقيق مصطفى جواد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦٣-١٩٦٧م.
- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم (ت ٨٠٧ هـ/١٤٠٥ م).
* تاريخ الدول والملوك، المعروف بتاريخ ابن الفرات، حقق الجزء الرابع والخامس حسن محمد الشماع، بغداد، ١٩٦٧-١٩٧٠م.
- القرماني، احمد بن يوسف (ت ١٠١٩ هـ/١٦١٠ م).
* أخبار الدول وآثار الأول، مجلدان، تحقيق احمد حطيط، فهمي سعد، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٢م.
القزويني، زكريا بن محمد بن محمد (ت ٦٨٠هـ/ ١٢٨٣م).
* آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.
- ابن القلانسي، أبو يعلي حمزة بن أسد بنعلي (ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م).
* تاريخ أبي يعلي المعروف بذيل تاريخ دمشق، نشر امدروز، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.
- القلقشندي، أبو العباس احمد بن علي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م).

* صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٧٨م.
* مآثر الإنافة في معالم الخلافة، ٣ أجزاء، تحقيق عبد الستار احمد فراج، الكويت، وزارة الإرشاد، ١٩٦٤م.
- ابن الكازوروني، ظهر الدين علي بن محمدالبغدادي (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م).
* مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٧٠م.
- ابن كثير، أبو الفداء الحافظ (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م).
* البداية والنهاية، ٨ مجلدات، تحقيق احمد أبو ملحم، وعلي نجيب عطوي، وفؤاد السيد، ومهدي ناصر الدين، وعلي عبدالستار، دا رالكتب العلمية، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢م.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م).
* الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٩م.
- القاضي محمد بن أبي يعلي (ت ٥٢٦هـ/ ١١٣١م).
* طبقات الحنابلة، جزءان، تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٢م.
- مسكوية، أبو علي احمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م).
* تجارب الامم وتعاقب الهمم، جزءان، اعتنى بالنسخ والتصحيح هـ.ف. آمدروز، مكتبة المثنى، بغداد، (د.ت).
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م).
* مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٤ مجلدات، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٩م.
- ابن المعمار، أبو عبدالله محمد بن أبي المكارم البغدادي الحنبلي (ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م).

* كتاب الفتوة، نشره مصطفى جواد، ومحمد تقي الدين الهلالي وعبدالحليم النجار، وأحمد ناجي القيسي، مكتبة المثنى، بغداد، ط١، ١٩٥٨م.
– المقريزي، تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م).
* اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ٣ أجزاء حقق الجزء الأول جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٧م، حقق الجزء الثاني والثالث محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة ، ١٩٧١م، ١٩٧٣م.
* السلوك لمعرفة دول الملوك، تصحيح محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦م.
* المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، جزءان، دار صادر، بيروت، (د.ت).
– ابن منجب الصيرفي، أمين الدولة أبو القاسم علي (ت ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م).
* الإشارة لمن نال الوزارة، تحقيق عبدالله مخلص، القاهرة، ١٩٢٤، (إعادة طبعه بالأوفست دار المثنى بغداد).
– المنذري، زكي الدين أبو محمد عبدالعظيم بن عبدالقوي، (ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م).
* التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد معروف، مطبعة الآداب، النجف، ١٩٦٨م.
– ابن الموصلايا، أمين الدولة العلاء بن الموصلايا (ت ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م).
* رسائل امين الدولة، تحقيق ودراسة، عصام عقلة، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٧م، (رسالة دكتوراه غير منشورة).
– الموفق البغدادي، أبو محمد عبداللطيف بن يوسف (ت ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م).
* كتاب الإفادة والاعتبار والمشاهدات والحوادث المعاينة بأرض مصر، تحقيق أحمد غسان سبانو، دار قتيبة، دمشق، ط١، ١٩٨٣. ملحق رقم (١) ترجمة الخليفة الناصر لدين الله.
– النسوي، محمد بن احمد (ألفه بعد سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م).
* سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، تحقيق حافظ احمد حمدي، مطبعة الاعتماد، مصر، ١٩٥٣.

- ابن النظام الحسيني اليزدي، محمد بن محمد بن عبدالله (ت ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م).
* العراضة في الحكاية السلجوقية، ترجمه عن الفارسية وحققه عبدالنعم حسنين، وحسين امين، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٧٩م.
- نظمي زاده، مرتضي (ت ١١٣٦هـ/ ١٧٢٣م).
* كلشن خلفا، ترجمة موسى كاظم نورس، مطبعة الآداب، النجف، ١٩٧١م.
- النعيمي، عبدالقادر بن محمد الدمشقي (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م).
* الدارس في تاريخ المدارس، جزءان، تحقيق جعفر الحسني، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٤٨م.
- النويري، شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م).
* نهاية الأرب في فنون الأدب، جزء ٢٣، تحقيق احمد كمال زكي، مراجعة محمد مصطفى زيادة، جزء ٢٦ تحقيق محمد فوزي العنتيل، مراجعة محمد طه الحاجري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م، ١٩٨٥م.
- الهمذاني، محمد بن عبدالملك (ت ٥٢١هـ/ ١٠٢٧م).
* تكملة تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، (د.ت).
- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م).
* مفرج الكروب في أخبار بني آيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٣م.
- ابن الوردي، زين الدين عمر (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م).
* تتمة المختصر في أخبار البشر، المعروف بتاريخ ابن الوردي، تحقيق رفعة البدراوي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٠م.
- ابن الوطواط، رشيد الدين (ت ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م).
* مجموعة الرسائل العربية، جمع وترتيب محمد فندي فهمي، مطبعة المعارف، مصر، ١٨٩٧م.
- اليافعي، أبو محمدعبدالله بن أسعد بن علي اليمني المكي (ت ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م).

* مرآة الجنان وعبرة اليقظان، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م).
* معجم البلدان، ٥ أجزاء، دار صادر، بيروت (د.ت).
* معجم الأدباء، ٧ أجزاء، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م.

ب- المراجع العربية والمعربة.

- ابراهيم، محمد كريم.
* موسوعة البصرة الحضارية، الموصوعة التاريخية، مطبعة التعليم العالي، البصرة، ١٩٨٩م.
- احمد محمد حلمي.
* الخلافة والدولة في العصر العباسي، مكتبة الشباب، القاهرة، ط٢، ١٩٧٢م.
- اقبال، عباس.
* الوزارة في عهد السلاجقة، ترجمة أحمد كمال حلمي، مطبوعات الجامعة، الكويت، ١٩٨٤م.
- أمين، حسين.
* تاريخ العراق في العصر السلجوقي، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٥م.
- بروكلمان، كارل
* تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب نبيه امين فارس، منير بعلبكي، دار العلم للملايين، ط١١، ١٩٨٨م.
- الجالودي، عليان.
* تطور السلطنة وعلاقتها بالخلافة العباسية خلال العصر السلجوقي (٤٤٧-٥٩٠هـ/ ١٠٥٥- ١١٩٣م)، رسالة دكتوراة غير منشورة، إشراف عبدالعزيز المدوري، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا، ١٩٩٦م.

- الجميلي، رشيد عبدالله.
* إمارة الموصل في العصر السلجوقي، مطبعة الحديثي، بغداد، ١٩٨٠م.
- حبشي، حسن.
* نور الدين زنكي والصليبيين، حركة المقاومة والتحرر الإسلامي في القرن السادس الهجري، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٨م.
- حسنين، عبدالمنعم
* سلاجقة إيران والعراق، مكتبة النهضة المصرية، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٧٠م.
* إيران والعراق في العصر السلجوقي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠م.
- حسين، يحيى احمد.
* الفتوة في بغداد في العصر العباسي الأخير، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف عبدالعزيز الدوري، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا، ١٩٩٢م.
- الحسيني، محمد باقر.
* العملة الإسلامية في العصر الاتابكي، مطبعة الجاحظ، بغداد، ١٩٦٦م.
- حلمي، احمد كمال الدين.
* السلاجقة في التاريخ والحضارة، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٧٥م.
- الحياري، مصطفى
* صلاح الدين القائد وعصره، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط١، ١٩٩٤م.
- الخالدي، فاضل عبد اللطيف
* الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق خلال القرن الخامس الهجري، مطبعة الإمام، بغداد، ١٩٦٩م.
- خليل، عماد الدين.
* عماد الدين زنكي، الدار العلمية، بيروت، ١٩٧١م.
- الدوري، تقي الدين عارف.
* عصر إمرة الأمراء في العراق، بغداد، مطبعة أسعد، ١٩٧٥م.
-الدوري، عبدالعزيز

* دراسات في العصور العباسية المتأخرة، مطبعة السريان، بغداد، ١٩٤٥م.
* بغداد، كتب دائرة المعارف الإسلامية، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.
- الربيلي، فاطمة يحيى.
* بنو جهير ودورهم في الخلافةالعباسية (٤٥٤- ٥٤١هـ/١٠٦٣-١١٤٦م). رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف محمد عيسى صالحية، جامعة اليرموك، كلية الآداب، ١٩٩٨م.
- زكار، سهيل
* الحروب الصليبية، جزءان، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٤م.
- الزهراني، محمد مسفر
* نظام الوزارة في الدولة العباسية (٣٣٤- ٥٩٠هـ) مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٠.
* نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية (٤٤٧- ٥٩٠هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٣.
- زيدان، جورجي.
* تاريخ التمدن الإسلامي، ٥ أجزاء، دار الهلال، القاهرة، ١٩٥٨م.
- السامرائي، خليل/ سلطان، طارق/ الجومرد، جزيل
* تاريخ الدولة العربية في العصر العباسي (١٣٢-٦٥٦هـ/ ٧٤٠-١٢٥٨م)، مديرية دار الكتب للطباعة، الموصل، ١٩٨٨.
- سوسة، احمد/ جواد، مصطفى
* دليل خارطة بغداد المفصل في خطط بغداد قديماً وحديثاً، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٨م.
- شبارو، عصام.
* السلاطين في المشرق العربي ودورهم السياسي والحضاري، ٥٤٧-٦٤٨هـ/ ١٠٥٥-١٢٥٠م)، دار النهضة العربية، بيروت (د.ت).

- شميساني، حسن
* مدارس دمشق في العصر الأيوبي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٣م.
عبدالمولى، محمداحمد.
* العيارون والشطار البغادة في التاريخ العباسي، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٨٧
- العبود، نافع
* الدولة الخوارزمية، مطبعة الجامعة، بغداد، ١٩٧٨م.
- العسيري، مريزن سعيد
* الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ١٩٨٧م.
- عقلة، عصام.
* الخلافة العباسية في ضوء رسائل أمين الدولة "دراسة وتحقيق" رسالة دكتوراه غير منشورة إشراف محمدخريسات، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا، ١٩٩٧م.
- عمر، فاروق
* النهوض العربي في العراق والأقاليم المجاورة في العصور العباسية الأخيرة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م- ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، جامعة بغداد، ١٩٨٩م.
* الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية (٢٤٧-٣٣٤هـ/ ٨٦١-٩٤٦م). مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٧٧.
- فامبري، ارمنيوس
* تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر، ترجمة احمد محمود الساداتي، القاهرة، ١٩٦٥م.
- كاهن، كلود
* تاريخ العرب والشعوب الإسلامي، ترجمة، بدر الدين القاسم، دار الحقيقة للطباعة والنشر، ط١، بيروت، ١٩٧٢م.

- متز، آدم
* الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، مجلدان، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت، مكتبة الخانجي، مصر، ط٤، ١٩٦٧م.
- مصطفى، شاكر
* التاريخ العربي، والمؤرخون، دار العلم للملايين، بيروت، (د.ت).
- مطر، رعد زهراو
* عصر الخليفة المقتفي لامر الله، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف تحسين حميد مجيد، كلية الآداب، جامعة البصرة، ١٩٨٧م.
- المعاضيدي، عبدالقادر
* واسط في العصر العباسي / منشورات وزارة الثقافة والاعلام العراقية، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٣م.
- مقابلة، معن
* المؤسسات الاجتماعية والثقافية في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، اشراف نعمان جبران، جامعة اليرموك، كلية الآداب، ١٩٩٢م.
- هنتس، فالتر
* المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة، كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠م.
- ناجي، عبدالجبار
* الإمارة المزيدية، دار الطباعة الحديثة، البصرة، ط١، ١٩٧٠م.
- يوسف، إرشيد
* سلاجقة الشام والجزيرة، (د.ن)، عمان، ط١، ١٩٨٨م.

جـ المقالات العربية والمعربة

- أمين، حسين

* نظام الحكم في العصر السلجوقي، مجلة سومر، بغداد، م٢٠، ج١، ٢، ١٩٦٤م، ص.ص. ٢٠٩-٢٢٦.

- الالوسي، عادل محي الدين.

* الخليفة المسترشد بالله العباسي، مجلة الاستاذ، بغداد، م١، ١٩٧٨م، ص.ص. ٤٩٥-٥١٤.

- باسيه، هنري

* مادة سلاجقة، دائرة المعارف الإسلامية المعربة، م١٢، ص٢٥.

- بيات، فاضل مهدي

* السياسة السلجوقية في العراق، مجلة المؤرخ العربي، ١٨٤، ١٩٨١م، ص.ص. ٩٧-١٢١.

- تشسينر، فرانز.

* الفتوة والخليفة الناصر، فصل ضمن كتاب المنتقى من دراسات المستشرقين، ج١، ترجمة، صلاح الدين المنجد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٥م، ص.ص ١٨٩-٢٠٧.

-الحسيني، محمد باقر

* دراسة تحليلية للألقاب الإسلامية، مجلة سومر، وزارة الإعلام العراقية، م١٧، ع٢، ١٩٧١م، ص ص ١٨٥-٢٣١.

* دينار عباسي نادر يمثل دور استقلال الخلافة العباسية السياسي والنقدي، مجلة المورد العراقية، م٣، ع١-٢، ١٩٧٤، ص ص ٦٥-٧٥.

- الحمارنة، صالح.

* وقفة عند الخليفة العباسي الناصر لدين الله ٥٥٣-٦٢٢هـ/١١٥٧-١٢٢٥م، ضمن مجموعة بحوث ودراسات مهداة إلى عبدالكريم غرايبة، عمان، ١٩٨٨م، ص ص١٤١-١٦٤.

- الداقوقي، حسين

* الدولة القراخانية، مجلة المؤرخ العربي، ع٤١-٤٢، السنة السادسة عشر، ١٩٩٠م، ص ص ١٣٤-١٥٠.
- زالينغر، جيرارد.
* الفتوة هل هي الفروسية الشرقية، فصل من كتاب دراسات اسلامية، ترجمة أنيس فريحة، كمال اليازجي، نقولا زيادة، دار الأندلس، ١٩٦٠م، ص ص ٢١٣-٢٤٤.
- سليمان، عيسى
* دينار نادر للخليفة المستضيء بأمر الله، مجلة المسكوكات، وزارة الإعلام العراقية، ع٣، ١٩٧٢م، ص ص١-٦.
- السوداني، صادق
* العلاقات الخارجية للخلافة العباسية في عهد الناصر، مجلة المورد العربية، ع٤، السنة الثانية، ١٩٧٣م، ص ص٨٥-١٠٢.
عبدالحميد، سعد زغلول
* ابن خلدون مؤرخا، مجلة عالم الفكر، السنة ١٤، ع٢، ١٩٨٣م، ص ص١١-٧٠.
- العبود، نافع
* جهود الخلافة للتحرر من النفوذ السلجوقي، مجلة المورد العراقية، م١٩، ع١، ١٩٩٠م، ص ص ٤٨-٥٥.
- العش، محمد أبو الفرج
* دينار عباسي بأسم المقتدي بالله في العهد السلجوقي، مجلة المسكوكات، ع٣-٤، السنة الثانية، ١٩٦٧م، ص ص٥٤-٦٧.
- عواد ميخائيل
* خزانة الرؤوس، مجلة الرسالة، جامعة بغداد، ع ٤٨٩/ ٤٩١، السنة العاشرة، ١٩٤٢م، ص ص١٠٦٦-١٠٦٨/ ص ص١١٠٦-١١٠٨.
- فياض، عبدالله

* الخلافة العباسية في عهد البويهيين، مجلة رسالة الإسلام، جامعة بغداد، ع١، السنة الثانية، ١٩٦٧م، ص ص ٢٦-٤٨.
* الخلافة العباسية في عهد السلاجقة، مجلة الرسالة، جامعة بغداد، ع٣-٤، السنة الثانية، ١٩٦٧م، ص ص٥٤٠-٦٧.
- مقابلة، عمن، الوزير عون الدين بن هبيرة ودورة في إحياء مؤسسة الخلافة العباسية ٥٤٤-٥٦٠هـ مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، مجلد ١٨، العدد ٣٧، جمادي الثاني ١٤٢٧هـ حزيران ٢٠٠٦، ص ص ٣٠٩-٣٥٠.
- ناجي، نوري عبدالجبار
* ثورة البساسيري في بغداد، مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة، ع٥، ١٩٧١م، ص ص٤٢-٧٨.

د- المراجع الأجنبية

- Browne, E.G.

A Literary history of Persia, Great Britain, Cambridge University press, vol., 1964

- Rashad, A.M.

The Abbaasid Calphate (575-1179-656-1258). University of London, 1963.

هـ- المقالات الأجنبية:

- Cahan, C.,

The Historiography of the Selgugid period in historians of the middle east, Edit by., B. Lewis and P.M. Holt. London, 1964, pp. 59-78.

الملاحــق

١- أسماء الخلفاء العباسيون في فترة الدراسة.

٢- أسماء السلاطين السلاجقة في فترة الدراسة.

٣- مقتطفات من الإعلان القادري.

٤- نص الرسالة التي بعث بها خوارزمشاه ايل أرسلان للخليفة المقتفي لأمر الله.

٥- نص البشارة التي بعث بها نور الدين محمود زنكي سنة (٥٦٧هـ/ ١١٧١م) لدار الخلافة بمناسبة عودة مصر لحظيرة الخلافة العباسية.

٦- نص الرسالة التي بعث بها صلاح الدين الأيوبي لدار الخلافة سنة (٥٦٧هـ/ ١١٧١م).

٧- نص التقليد الذي بعثت به دار الخلافة لصلاح الدين الأيوبي سنة (٥٦٧هـ/ ١١٧١م).

٨- نص التقليد الذي بعثت به دار الخلافة لصلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م.

٩- نص المنشور الذي أصدره الناصر لدين الله سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) عن الفتوة.

الملحق رقم (١)

الخلفاء العباسيون في فترة الدراسة

١- المقتفي لأمر الله، أبو عبدالله محمد بن المستظهر بالله
(٥٣٠-٥٥٥ هـ/ ١١٣٢-١١٦٠ م).

٢- المستنجد بالله، أبو المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله.
(٥٥٥-٥٦٦ هـ/ ١١٦٠-١١٧٠ م).

٣- المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله.
(٥٦٦-٥٧٥ هـ/ ١١٧٠-١١٧٩ م).

٤- الناصر لدين الله، أبو العباس احمد بن المستضيء لأمر الله
(٥٧٥-٦٢٢ هـ/ ١١٧٩-١٢٢٥ م).

الملحق رقم (٢)

سلاطين سلاجقة العراق في فترة الدراسة

١- أبو الفتح غياث الدين مسعود بن محمد
(٥٢٧-٥٤٧ هـ / ١١٣٢-١١٥٢ م).

٢- معين الدين ملكشاه بن محمود بن محمد بن ملكشاه
(٥٢٧-٥٤٧ هـ / ١١٣٢-١١٥٢ م).

٣- غياث الدين محمد بن محمود
(٥٤٧-٥٤٨ هـ / ١١٥٢-١١٥٣ م).

٤- سلميان شاه بن محمد
(٥٤٨-٥٥٥ هـ / ١١٥٢-١١٦٠ م).

٥- ركن الدين أرسلان شاه طغرل، أبو المظفر
(٥٥٥-٥٥٦ هـ / ١١٦٠-١١٦١ م).

٦- ركن الدين طغرل الثالث بن أرسلان شاه
(٥٧٣-٥٩٠ هـ / ١١٦١-١١٩٣ م).

ملحق رقم (٣)

مقتطفات من الإعلان القادري الذي أخرجه الخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٣٣هـ ليقرأ على الناس كما أوردها الذهبي في تاريخه في حوادث سنة ٤٣٣هـ ص ٣٢٢-٣٢٥. وفيها قرئ الاعتقاد القادري بالديوان. أخرجه القائم بأمر الله فقرئ وحضره العلماء والزهاد.

وحضر أبو الحسن علي بن عمر القزويني الزاهد، وكتب بخطه قبل الفقهاء: هذا اعتقاد المسلمين ومن خالفه فقد خالف وفسق وكفر. وهو: يجب على الإنسان أن يعلم أن الله وحده لا شريك له وفيه: كان ربنا ولا شيء معه ولا مكان يحويه، فخلق كل شيء بقدرته، وخلق العرش لا لحاجة إليه، واستولى عليه كيف شاء وأراد، لا استواء راحة كما يستريح الخلق ولا مدبر غيره، والخلق كلهم عاجزون، الملائكة والنبويون وهو القادر بقدرة، العالم بعلم. وهو السميع البصير، متكلم كلاما لا بآله كآلة مخلوقين لا يوصف إلا بما وصف به نفسه أو وصف به نبيه وكل صفة وصف بها نفسه أو وصفه بها نبيه فهي صفة حقيقية لا صفة مجاز.

ونعلم أن كلام الله غير مخلوق، تكلم به تكليما، وانزله على رسوله على لسان جبريل، فتلاه على محمد صلى الله عليه وسلم، وتلاه محمد على أصحابه. ولم يصر بتلاوة المخلوقين له مخلوقا، لأنه ذاك الكلام بعينه الذي تكلم به، فهو غير مخلوق بكل حال، متلوا ومحفوظا ومكتوبا ومسموعا . ومن قال انه مخلوق على حال من الأحوال فهو كافر حلال الدم بعد الاستتابة منه.

ونعلم أن الإيمان قول، وعمل، ونية، يزيد وينقص.

ويجب أن نحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعن خيرهم وأفضلهم بعد رسول الله أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ومن سب عائشة فلا حظ له في الإسلام، ولا نقول في معاوية إلا خيرا. ولا ندخل في شيء شجر بينهم.

إلى أن قال: ولا نكفر بترك شيء من الفرائض غير الصلاة. فإن من تركها من غير عذر وهو صحيح فارغ حتى يخرج وقت الأخرى فهو كافر وإن لم يجحدها، لقوله علية السلام:" بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة، فمن تركها فقد كفر". ولا يزال كافر

يندم ويعيدها . وان مات قبل أن يندم ويعيد أو يضمر ان يعيد، لم يصل عليه، وحشر مع فرعون، وهامان، وقارون، وأبي بن خلف وسائر الأعمال لا تكفر بتركها وان كان يفسق حتى يجحدها.

ثم قال: هذا قول أهل السنة والجماعة الذي من تمسك به كان على الحق المبين، وعلى منهج الدين.

الملحق رقم (٤)

نص الرسالة التي بعث بها خوارزمشاه ايل ارسلان للخليفة المقتفي لأمر الله كما أوردها ابن الوطواط في رسائله ج١، ص ١٩-٢٤.

سلام الله تعالى على سيدنا ومولانا الإمام المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين، وخليفة رسول رب العالمين، وبركاته السامية، وتحياته النامية، والعبد يحمد إليه الله الذي لا اله الا هو مالك الأمور، ومصرف المقدور، ويسأله أن يصلي على نبيه الأمين، وصفيه المكين، محمد وعلى آله نجوم الهدى، وغيوم الندى، أصحابه مفاتيح الجنة، ومصابيح الدجنة ويسلم تسليما، وبعد، فقد عرف الاداني والأقاصي، وعلم الأذناب والنواصي، أن مواقف سيدنا ومولانا الإمام المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين، وخليفة رسول رب العالمين، لا زالت مكثوفة بالجلال، محفوفة بالإقبال، منابع الشرف الجم، ومطالع المجد الاشم، ومعادن الجلالة والكرامة، ومواطن الرسالة والإمامة فيها الدين مشدود النطاق، والشرع ممدود الرواق والعز ملتمع الشعاع، والمجد مرتفع الشراع، والحلم راسخ البنيان، والعالم شامخ الأركان، والعدل لائح المراسم، والفضل واضح المباسم، من اعتصم بحبل مبايعتها ملك في الدين والدنيا غاية امانية، وأدرك في الآخرة والأولى نهاية مباغيه، والعبد مع البعد من تلك المواقف المقدسة المكرمة قدسها الله وكرمها، المقار المشرفة المعظمة شرفها الله وعظمها، ثابت الرأي صادق النية، راسخ القدم خالص الطوية، في موالات جانبها ومعاداة مجانبها، وابداء شعار خدمتها، واعلاء منار دعوتها والذب عن حوزتها باليد وللسان، والمحاماة عن بيضتها بالسيف والسنان، ولولا اشتغل العبد بحفظ خوارزم التي هي ثغر مشهور من ثغور الإسلام،لا بل قصر معمور من قصور الشرائع والأحكام، وتوجهه كل سنة بإخوانه وأولاده، و أعوانه واجناده، إلى مجاهدة أعداء الدين، ومناهدة أحزاب الشياطين، وتوغله في صميم بلاد الشرك، وبحبوحة ديار الترك، يفض قبائلهم، ويهد معاقلهم، ويسبي أطفالهم ونسوانهم، ويردي أبطالهم وشجعانهم، ويصون مواطن المسلمين من مكائد شرهم، ومساكن المؤمنين من مصائد غدرهم، لطار إلى تلك المواقف

المقدسة المكرمة قدسها الله وكرمها، والمقار المشرفة العظيمة، بأجنحة الطاعة، ولبذل في عبوديتها غاية الاقتدار والاستطاعة، لكن الموانع واضحة والأعذار لايحة، والعذر عند فيض كرم سيدنا ومولانا الإمام المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين، وخليفة رسول رب العالمين، أعلى الله كلمته، وزاد جلاله وعظمته، مقبول، والعفو من طوله الشامل العام، وفضله الكامل التام، مأمول، لا زالت حضرته الزاهرة قبلة الإقبال، وكعبة الأفضال، ومطرح رحال الطالبين، ومسرح آمال الراغبين، بحق محمد واله أجمعين، جاء العبد إلى حديث، يأكل الأحاديث لا يخفى على الآراء المشرقة النبوية، الأمامية المقتفية، زادها الله إشراقا، أن أباء العبد سقاهم الله صوب غفرانه، وكساهم ثوب رضوانه، كانوا من المستنفيدين مجهودهم، والمستفرغين مجلودهم، في موالاة الدولة القاهرة العباسية، مهد الله بنيانها وشيد أركانها، عمروا سنين ولم يخلوا مدة عمرهم وان طالت أيامها، وكثرت أعوامها، بدقيقة من دقائق مطاوعتها، ولطيفة من لطائف متابعتها، والعبد متبع لأثرهم، مقتف لسيرهم، قد جعل أيامه موقوفة، وأوقافه مقصورة ، على تقديم ما يعود إلى اتساع أكناف تلك الدولة، وارتقاع أعلام تلك الدعوة، وخاصة في هذا الزمن، أججت فيه الفتن نارها، وارهجت غبارها، وضربت فيه الجن فسطاطها ونصب اشراطها، وقد ناب خطة خراسان التي هي سرة بلاد إيران، من استيلاء العصاة ما ناب، وأصاب بقعة ما وراء النهر التي هي غرة ديار توران، من استعلاء الطغاة ما أصاب، عذب فيهما الراكع والساجد، وخرب المدارس والمساجد، وسفكت الدماء المحرمة، وأهلكت النفوس المكرمة، فالدين مالت دعامته والملك شالت نعامته، والحق غارت نجومه، والصدق طمست رسومه، ولو لم تصرف أعنة العنايات الكريمة المولوية، الأمامية المقتفية، لا زالت ممدودة الظل على كل باد وحاضر، مبسوطة الجناح على كل غائب وحاضر، إلى تدارك هذا الأمر، وإطفاء هذا الجمر، لاتصل شرره بأقطار العراق، بل طبق ضرره جميع أمصار الافاق، ولن يحصل هذا التدارك على وفق ما تقتضيه، وموجب ما ترتضيه، الاراء المشرقة النبوية الامامية المقتفية زادها الله اشراقا الا بتوافق كافة المسلمين، وتطابق عامة المؤمنين، تحت راية ملك من ملوك هذه الملة ، وسلطا من سلاطين هذه الأمة، طاهر اعتقاده، ظاهر اجتهاده، ممتثل أمره في الرعايا، نافذ حكمه على البرايا، السلطان الأعظم غياث الدنيا والدين أبو شجاع محمد بن محمود بن محمد بن ملك شاه قسيم أمير المؤمنين، أعلى الله شانه واظهر برهانه، معين من بين ملوك دهره، وسلاطين عصره، لكفاية هذا المهم وتدارك هذا الملم، أتاه الله من صحة الدين وقوة اليقين، وجمال العلم، وكمال الحلم

وجلالة الأصل وجزالة الفضل، وثبات الحزم، وإصابة العزم وتكثر العدد، وتوفر العدد وإلقاء النفس في غمرات اللقاء، واستعمل الصبر على جمرات الهيجاء وقد شمر عن ساق جده لكشف هذه الغمة وبشر المسلمين ببذل جهده، في إزالة هذه الظلمة، ولكن لا تتسهل له هذه المنية، ولا تتحصل له هذه البغية، ما لم تكتنف أحواله بركات عناية سيدنا ومولانا الإمام المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين، وخليفة رسول رب العالمين، أدام الله جلاله ومد على الخافقين ظلاله، وميامن هدايته وإرشاده، وقد وصل إلى العبد في هذه المدة ،أن الآراء المشرقة النبوية، الامامية المقتفية، زادها الله إشراقا قد عدلت في حقه عن لطفه المعهود وصفائها المألوف حتى تنسمت منها رائحة تغير، وتوسمت فيها شائبة تكدر، والعبد ليس يعرف سبب ذلك فإن كان منشأ هذه الحادثة الكارثة، من جهة السلطان الأعظم، أعلى الله قدره، وأعز نصره، فالعبد في ضمان على صحائف استزادته، واعادته إلى ما حمد من لطائف عادته، واستنزاله من حزون الانقطاع، إلى سهول الاجتماع، ومن شواهق الامتناع، إلى حدائق الإتباع، ورده في طاعة المواقف المقدسة المكرمة، قدسها الله وكرمها، وخدمة المقار المشرفة المعظمة شرفها الله وعظمها، إلى المنهج الأقدم، والمذهب الأقوم، الذين سلكه اباءه الزهر، واسلافة الغر، سقى الله ثراهم، وجعل الجنة مثواهم، وان كان منشاوها،من جهة أصحاب الأغراض الذين أودوا عند خدم المواقف المقدسة قدسها الله مجال التخليط والتضريب وتمكنوا من اختراع الأباطيل وابتداع الأكاذيب، فذاك أمر يرجى من عواطف سيدنا ومولانا الإمام المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين، وخليفة رسول رب العالمين، أعلى الله كلمته وعقد بالخلود دولته، دفع آفته واستئصال شافته فعن تنفر مثل ذلك السلطان ابن السلطان ابن السلطان عز نصره، من طاعة المواقف المقدسة، قدسها الله ليس بأمر يجمل أن يتساهل فيه، أو يتقاعد عن تداركه وتلافيه، وعلى الخصوص في هذا الوقت الذي ينتظر المسلمون من نهضة السلطان الأعظم، قرنها الله بالفتح والظفر، وصانها من الخوف والخطر، إصلاح أمالهم،وإنجاح أمالهم، وتسكين ثائرة الفتن بعد التهابها، وتبعيد المحن غب اقترابها وتخليص ضعفاء البلاد وصلحاء العباد من أيدي هؤلاء الفسقة المرقة، واكف هؤلاء الكفرة الفجرة،وألطاف شفقة سيدنا ومولانا الإمام المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين، وخليفة رسول رب العالمين، أدام الله عظمته، وأعلى كلمته، على أهل الإسلام أوفر من أن ترضى بإهمال هذا الخير، وإغفال هذا الأمر والعبد متطلع لورود الأمثلة العالية ووصول الأوامر السامية، لا زالت في مشارق الأرض ومغاربها نافذة، وبأعراف الأماني ونواصيها آخذة، ليجعلها أمام

خاطره وقدام ناظرة،ويظهر في امتثال الكل آثار صدق النية، ونتائج فرط العبودية، وللآراء المشرقة النبوية، الامامية المقتفية، زادها الله إشراقا في تشريف العبد بها مزيد العلوم والسلم.

ملحق رقم (٥)

نص البشارة التي بعث بها نور الدين زنكي لدار الخلافة بمناسبة عودة مصر لحظيرة الخلافة العباسية، كما أوردها أبو شامة في الروضتين، ج١، ص ٥٠.

أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الإسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا رتاجة، وأوضح لنا منهاجه وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة الهادية العباسية، بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصار المصرية والاسكندرية، ومصر والقاهرة وسائر الأطراف الدانية والقاصية والبادية والحاضرة؛ وانتهت إلى القريب والبعيد،والى قوص وأسوان بأقصى الصعيد؛ وهذا شرف لزماننا هذا وأهله نفتخر به على الأزمنة التي مضت من قبله وما برحت هممنا إلى مصر مصروفة، وعلى افتتاحها موقوفة ، وعزائمنا في إقامة الدعوة الهادية بها ماضية، والأقدار في الأزل بقضاء آرائنا وإنجاز مواعدنا قاضية، حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها، وقدرنا عليها وقد عجزوا عنا. وطالما مرت عليها الحقب الخوالي وابت دونها الأيام والليالي،وبقيت مائتين وثمانين وسنة ممنوة بدعوة المبطلين، مملوة بحزب الشياطين، سابغة ضلالها للضلال، مقفرة المحل إلى من المحل، مفتقرة إلى نصرة من الله تملكها، ونظرة ستدركها، رافعة يدها في اشكائها متظلمة إليه ليتكفل بأعدائها على أعدائها، حتى أذن الله لغمتها بالانفراج، ولعلتها بالعلاج، والبدعة، وكلاهما شديد الروعة،فملكنا الله تلك البلاد، ومكن لنا في الأرض، وأقدرنا على ما كنا نؤمله في إزالة الالحاد والرفض، ومن إقامة الفرض وتقدمنا إلى من استنبناه أن يستفتح باب السعادة ، ويستنجح مالنا من الإرادة، ويقيم الدعوة الهادية العباسية هنالك ويورد الأدعياء ودعاة الالحاد بها المهالك.)

ملحق رقم (٦)

نص الرسالة التي بعث بها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧هـ لدار الخلافة طالبا تقليده بلاد مصر وما يفتحه من البلاد كما أوردها أبو شامة في الروضتين ج١، ص ص ٤٩٦-٤٩٧.

(كتب الخادم هذه الخدمة من مستقره ودين الولاء مشروع، وعلم الجهاد مرفوع،وسؤدد السواد متبوع، وحكم السداد بين الأمة موضوع، وسبب الفساد مقطوع ممنوع. وقد توالت الفتوح غربا ويمنا وشاما، وصارت البلاد بل الدنيا، والشهر بل الدهر، حرما حراما، وأضحى الدين واحدا بعدما كان أديانا؛ والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلاف لم يخروا عليها الا صما وعميانا؛ والبدعة خاشعة، والجمعة جامعة، والمذلة في شيع الضلال شائعة؛ ذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء ، وسمو أعداء الله اصفياء، وتقطعوا أمرهم بينهم شيعا، وفرقوا أمر الأمة وكان مجتمعا، وكذبوا بالنار فعجلت لهم نار الحتوف، ونثرت أقلام الظبا حروف رؤوسهم نثر الأقلام للحروف،(أ ١٥٢) ومزقوا كل ممزق وأخذوا منهم كل مخنق، وقطع دابرهم، ووعظ أيبهم غابرهم، ورغمت أنوفهم ومنابرهم وحقت عليهم الكلمة تشريدا وقتلا، وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا؛ وليس السيف عمن سواهم من كفار الفرنج بصائم، ولا الليل عن سير إليهم بنائم.ولا خفاء عن المجلس الصاحبي أن من شد عقد خلافة وحل عقد خلاف، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عجز عنه الاخلاف والأسلاف، فإنه مفتقر إلى أن يشكر وتأتيه التشريفات الشريفة، وتتواصل إليه امداد التقوية الجليلة اللطيفة، وتلبى دعوته بما أقام من دعوة، وتوصل عروته بما وصل من غزوة، وترفع دونه الحجب المعترضة، وترسل إليه السحب المروضة، فكل ذلك تعود عوائده، وتبدو فوائده، بالدولة التي كشف وجهه لنصرها، وجرد سيفه لرفع منارها، والقيام بأمرها. وقد أتى البيوت من أبوابها، وطلب النجعة من سحابها ووعد أماله الواثقة بجواب كتابها، وانهض لايصال ملطافاته وتنجيز تشريفاته خطيب الخطباء بمصر، وهو الذي اختاره لصعود درجة المنبر، وقام بالأمر قيام من بر، واستفتح بلباس السواد الأعظم، الذي جمع الله عليه السواد الأعظم، آملا انه يعود اليه بما يطوى الرجاء فضله عقبه، ويخلد الشرف في عقبه).

ملحق رقم (٧)

نص التقليد الذي بعثت به دار الخلافة سنة ٥٦٧هـ لصلاح الدين الأيوبي، تقلده بلاد مصر وما يفتحه من بلاد، كما أورده القلقشندي في صبح الأعشى ج١٠، ص ص ١٥٠-١٥٨.

إن أولى من جادت رباعه سحب الاصطناع، وخص من الاصطفاء والاجتباء بالصفايا والمرباع، من ترسم انتهاج الجدد القويم، والطريق الواضح المستقيم، واعتلق من الولاء بأوثق عصمه وحباله، والفناء الذي يهتدي بأنواره في متصرفاته وأعماله، والتحلي بجميل الذكر في سيرته، وخلوص الاعتناء بأمور رعيته وكان راغبا في اقتناء حميد الخلال، مجتهدا في طاعة الله بما يرضيه من العدل الممتد الظلال، عاملا فيما يناط به يتضوع نشر خبره، ويجتنى بحسن صنعه يانع ثمره، باذلا وسعه في الصلاح، مؤذنة مساعية بفوز القداح.

ولما كان الملك الأجل، السيد، صلاح الدين، ناصر الاسلام، عماد الدولة ، جمال الملك فخر الملة، صفي الخلافة، تاج الملوك والسلاطين، قامع الكفرة والمشركين، قاهر الخوارج والمتمردين، عز المجاهدين، الب غازي بك ابن يوسف بن ايوب- أدام الله علوه- على هذه السجايا مقبلا، بصفاتها الكاملة مشتملا، مؤثرا تضاعف المأثرات، مثابرا على تزكو به الأعمال الصالحات متحليا بالمحامد الرائقة، مستبدا بالمناقب التي هي لجميل أفعاله موافقة مطابقة، محصلا من رضا الله تعالى ما يؤثرة ويرومه من طاعة الدار العزيزة- لا زالت مشيدة البناء، سابغة النعماء، دائمة الاستبشار، عزيزة الأنصار- من استمرار الظفر ما يستديمه، اقتضت الاراء الشريفة- لازال التوفيق قرينها، والتأييد مظافرها ومعينها- إمضاء تصرفه وانفاذ حكمه في بلاد مصر وأعمالها، والصعيد الأعلى، والاسكندرية، وما يفتحه من بلاد الغرب والساحل، وبلاد اليمن وما افتتحه منها ويستخلصه بعد من ولايتها والتعويل في هذه الولايات عليه، واستنقاذ ما استولى عليه الكفار من البلاد، وإعزاز كل من أذلوه واضطهدوه من العباد: لتعود الثغور بيمن نقيبته ضاحكة المباسم، وبإصابة رأيه قائمة المواسم.

آمره بادئا بتقوى الله التي الجنة الواقية، والـذخيرة الباقيـة، والعـصمة الكافيـة، والزاد إذا انفض وفد الآخرة وأرملوا، والعتاد النافع إذا وجدوا شاهدا لهم وعليـهم مـا عملوا: فإنها العلم المنصوب المرشد، قـال الله تعـالى:" يـا أيهـا الـذين امنـوا اتقـوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد".

وآمره أن يتخذ كتاب الله سبحانه العلم الذي به يقتـدى ، وبـأنواره إلى حـدود الصواب يهتدي، ويستمع لزواجره ومواعظه، ويعتبر بتخويفه وملاحظـة، ويـصغي إليـه بسمعه وقلبه،وجوارحه ولبه، ويعمل بأوامره المحكمة، ويقف عند نواهيه المبرمة، ويتـدبر ما حوله آياته من الوعد والوعيد، والزجر والتهديد؛ قال الله عـز وجـل:" وإنـه لكتـاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفة تنزيل من حكيم حميد".

وآمره أن يكون على صـلاته محافظـا ونفـسه عـن الإخـلال والتقـصير في أداء فرضها وأظل فيغتنم الاستعداد أمـام أوقاتهـا لـلأداء، ويحـترز مـن فواتهـا والحاجـة إلى القضاء، موفيا حقها من الركوع والسجود، على الوصف الواجب المحدود، مخلـصا سـره عند الدخول فيها، وناهيا نفـسه عمـا يـصدها بالأفكـار يليهـا، مجتهـدا في نفـي الفكـر والوسواس عن قلبه، منتصبا في إخلاص العباد لربه: ليغدو بوصف الأبرار منعوتا، قـال الله تعالى : ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾.

وآمره بقصد المساجد الجامعة في ايام الجمع، امتثـالا لأمـر الله المتبـع، بعزيمـة في الخير صادقة، ونية للعبادة موافقـة، وفي الأعيـاد إلى المـصليات المـصحرة المجملـة بالمنـابر الحالية، التي هي عن الادناس مطهرة نائية، فإنها من مواضع العبـادة ومواطنهـا، ومظـان تلاوة القران المأمور بحفظ آدابها وسننها، فقد وصف الله تعالى من وفقه لتجميـل بيوتـه بالعمارة، بما أو يضع فيه الإشارة، وشرفه بوضع سمة اليمان عليه بالإكرام الفاخر، فقال:" إنما يعمر مساجد الله من امن بالله واليوم الآخر" فيقيم الدعوة الهادية على المنـابر علـى عادة من تقدمه، ومنتهيا فيها إلى أحسن ما عهده وعلمه.

وآمره بلزوم نزاهة الحرمات، واجتناب المحرمات، والتحلي من العفاف والـورع بأجمل القلائد الرائقة، والتقمص بملابس التقوى التي هي بأمثاله لائقة، وسلوك منـاهج الصلاح الذي يجمل به فعله، ويصفوا له علـة ونهلـه، وان يمنـع نفـسه مـن الغـضب، ويرددها عما تأمر به من سوء المكتسب، ويأخذها بآداب الله سبحانه في نهيها عن الهوى، وحملها على التقوى، وردعها عن التورط في المهاوي والشبه، وكل أمر يلتبس فيـه الحـق

ويشتبه، ويلزمها الأخذ بالعفو والصفح، والتأمل لمكان الأعمال فيه واللمح؛ قال الله تعالى:" خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين".

وآمره بإحسان السيرة في الرعايا بتلك البلاد،واختصاصهم بالصون الرائح الغاد، ونشر جناح الرعاية على البعيد منهم والقريب، وإحلال كل منهم خلة على القاعدة والترتيب، وإشاعة المعدلة فيهم، وإسهام دانيهم من وافر ملاحظته وقاصيهم، وان يحمي سرحهم من كل داعر، ويذود عنهم كل موارب بالفساد ومظاهر، حتى تصفو لهم من الأمن الشرائع، وتضفو عليهم منبرك ولايته المدارع، وتستنير بضوء العدل منهم المطالع، ويحترم أكابرهم، ويحنو على أصاغرهم، ويشملهم بكنفه ودرعه، وينتهي في مصالحهم إلى غاية وسعة، ولا يألوهم في النصح جهدا، ولا يخلف لهم في الخير وعداً، ويشاورهم في أمره فأن المشورة داعية إلى الفلاح ومفتاح باب الصلاح، قال الله تعالى:" فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين".

وأمره بإظهار العدل في الرعية التي تضمها جميع الأكناف والأطراف،والتحلي من النصفة بأكمل الأوصاف، وحمل كافتهم على أقوام جدد وعصيان الهوى في تقويم كل أود، والمساواة بين الفاضل والمفضول في الحق إذا ظهر صدق دليله، والاشتمال عليهم بالأمن الذي يعذب لهم برد مقيله،وكشف ظلامة من انبسطت إلى تحيفه الأيدي والأطماع وأعجزته النصفة لنفسه والدفاع، وتصفح أحوالهم بعين لا ترنو إلى هوى يميل بها عن الواجب، وسمع لا يصغى إلى مقالة مائن ولا كاذب،ولا يغفل عن مصلحة تعود إليهم، ويرجع نفعها عليهم، ولا كشف ظلامات بعضهم عن بعض، وردهم إلى الحق في كل رعف من أحوالهم وخف؛ فلا يرى الا بالحق عاملا، والأمور على سنن الشريعة حاملا، مجتنبا بإفل مصالحهم وإهمالها، وحارسا نظامها على تابع الأيام واتصالها: ليكون ذلك إلى وفور الأجر داعيا،ويحسن الأحدوثة قاضيا مقتديا بما نطق به القران: ﴿ إن الله يامر بالعدل والإحسان﴾.

وآمره أن يأمر بالمعروف ويقيم مناره، وينهى عن المنكر ويمحو اثاره؛ فلا يترك ممكنا من إظهار الحق وإعلانه،وقمع الباطل وإخماد نيرانه، ويعتمد مساعدة كل مرشد إلى الطريق الأقصد، ونله عن التظاهر بالمحظور في كل مشد؛ فإنه تضحي معونته مشاركة في إحراز المثوبة ومساهمة ، ومساومة في اقتناء الأجر ومقاسمة،وان يوعز بإزالة مظان الريب والفساد في الداني من الأعمال والقاصي، فإنها مواطن الشيطان وأماكن المعاصي،وان

يشد على أيدي الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وويعينهم على ذلك بما يطيب ذكره في كل مشهد ومحضر، ويجتهد بإزالة كل محظور ومنكر، مقدم في الباطل ومؤخر، قال الله تعالى:" وأمر بالمعروف وانه عن المنكر".

وآمره أن يقدم الاحتياط في حفظ الثغور ومجاوريها من الكفار، ويستعمل غاية التيقظ في ذلك والاستظهار: ليأمن عليها غوائل المكايد،ويفوز من التوفيق لذلك بأنواع المحامد، ويتجرد لجهاد إعداد الدين، والانتقام من الكفرة المارقين، اخذ بقول رب العالمين: ﴿ انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلك خير لكم أن كنتم تعلمون﴾. وان يعمل فيما يحصل من الغنائم عندما فل جموعهم، وافتتاح بلادهم وربوعهم، ويقول الله وما أمر به في قسمتها، وإيفاء كل صاحب حصة حصته منها، سالكا سبل من غدا لاثار الصلاح مقتفيا، وللفرض في ذلك مؤديا، وبهدي ذوي الرشد مهتديا قال الله تعالى في محكم التنزيل:" واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل".

وآمره أن يجيب للامان من طلبه منه، ويكون وفاؤه مقترنا بما تضمنه، غير مضمر خلاف ما يعطي به صفقة أمانة ولا تخالف باطنه ما أظهره من قاربته إلى عقد الهدن وايتانه ويجتنب الغدر وما فيه من العار، واسخاط الملك الجبار؛ قال الله عز وجل:" وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا أن الله يعلم ما تفعلون" وآمره بان يأمر أصحاب المعاون بمساعدة القضاة والحكام، ومعونتهم بما يقضي بلم شمل الصلاح في تنفيذ القضايا والانتظام، واخذ الخصوم بإجابة الداعي إذا استحضرو إلى أبوابهم للإنصاف، والمسارعة إلى الحق الواجب عليهم من غير خلاف؛ قال الله تعالى:" وأكثرهم للحق كارهون ".

وآمره بالتعويل في المظالم وأسواق الرقيق ودور الضرب والحسبة على من يأوي إلى عفاف ودين،وعلم بأحكام الشريعة وصحة يقين، لا يخفى عليه ما حرمه الله تعالى واحله، ولا يلتبس على علمه ما وضح إلى الحق الواضح سبله، والى من يتولى المظالم بإيصال الخصوم إليه، وإنصافهم كما أوجبه الله تعالى عليه، واستماع ظلاماتهم، وإحسان النظر في مشاجراتهم، فإن أسفر للحق ضياء تبعه، أو اشتبه الأمر رده إلى الحكام ورفعه.

وإلى الناظر في اسواق الرقيق بالاحتراز والاستظهار، وتعرية الأحوال من الشبه في امتزاج العبيد بالأحرار:لتضحى الانساب مصونة مرعية والأموال عن الثلم محروسة

محمية والى من ينظر في الحسبة يتصفح أحوال العامة في متاجرهم وأموالهم،وتتبع اثار صحتهم في المعاملة واغتلالهم؛ واعتبار الموازين والمكاييل، وإلزام أربابها الصحة والتعديل؛ قال الله سبحانه تعالى:" وزنوا بالقسطاس المستقيم".

وأن يعمل الجفن في تطهير البلاد من كل مدخول الاعتقاد، معروف بالشبه في دينه والإلحاد،ومن يسعى منهم في الفساد، ويأمر المرتبين في المراكز والأطراف باقتناصهم، وكف فسادهم واجلاءهم عن عراصهم، وان يجري عليهم في السياسة ما يجب على امثالهم من الزنادقة والذين توبتهم لا تقبل، وأمرهم على حكم المخاطبين لا يحمل. قال الله تعالى" أن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون".

وآمره أن يتلقى النعمة التي أفرغت عليه،وانساقت إليه، بشكر ينطق به لسانه ويترجم عنه بيانه" ليستديم بذلك الإكرام ويقترن الإحسان عنده بالإلتئام، وان يوفيها حقها من دوام الحمد، والقصد إلى شكرها والعمد؛ قال الله تعالى"" ومن شكر فإنما يشكر لنفسه".

وليعلم أن أمير المؤمنين قد بين له الصلاح ما اتضحت أعلامه، وأثبتت في المرامي سهامه، وارشد إلى ما أودع هذا المنشور من جلد الفوز بمرضاة الله تعالى وشكر عباده، عاملا في ذلك بمقتضى جده واجتهاده: ليحرز السبق في دنياه وعقباه، ويتوفر عنده ما منح به مما أرهف عزمه وحباه، وغدا بمكانه رافلا في ملابس الفخر والبهاء، نائلا مني ما طال به مناكب القرناء، واختص بما أعلى درجته فتقاعست عنه آمال حاسديه، وتفرد بالمكانة عن مقام من يباريه ويناويه، وأولي من الأنعام ما امن به سرب النعمة عنده، واصفى من ناهل الإحسان ورده، واهدى إليهم، المواعظ ما يجب أن يودعه واعية الأسماع، ويأخذ بالعمل به كل راع، فينهج – أدام الله علوه– محاج الولاء الذي عهده من أمثاله من الأولياء، متنزهاً عن تقصير منه في عامة الاوقات، ومراعيا أفعاله في جميع التصرفات، ويعلم انه مسؤول عن كل ما تلفظ به لسانه ناطقا، ونظر طرفه إليه رامقا، قبل أن يجانب هواه،ويبقى رهينا بما اكتسبت يداه، ولا يغتر من الدنيا وزخرفتها بغرار ليس الوفاء من طباعه، ومعير ما اقصر مدة ارتجاعه؛ وسبيل كافة القضاة والأعيان ومقدمي العساكر والاجناد، ورؤساء البلاد،متابعته وموافقته، وطلبوا مصالحهم من جنابه والتصرف على استصوابه؛ وقد أكدت وصاته في الرفه بهم والاشتمال عليهم، والإحسان إليهم، وإجمال السيرة فيهم؛ وكلما اشكل عليه أمر من المتجددات يطالع به

الديوان العزيز - مجده الله تعالى - لينهج له السبل إلى فتح رتاجه وسلوك منهاجه؛ والله ولي التوفيق والهداية وجمع الكلمة في كل إعادة وبداية، والمعونة على العصمة من الزلل،والتأييد القول العمل؛ أن شاء الله تعالى وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ملحق رقم (٨)

نص التقليد الذي بعثت به دار الخلافة سنة ٥٧٠هـ لصلاح الدين تلقده مصر وبلاد الشام وما يفتحه من بلاد كما أورده السيوطي في حسن المحاضرج١، ص ٧-١٦.

أما بعد، فإن أمير المؤمنين يبدأ بحمد الله الذي يكون لكل خطبة قيادا، ولكل أمر مهادا، ويستزيله من نعمه التي جعلت التقوى لها زادا، وحملته اعباء الخلافة فلم يضعف عنه طوقا ولم يألُ فيه اجتهادا، وصغرت لديه أمر الدنيا فما تسورت له محرابا ولا غرضت عليه جيادا ، وحققت فيه قول الله تعالى" تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علو في الأرض ولا فساد".

ثم يصلي على من أنزلت عليه الملائكة لنصرة إمدادا، وأسرى به إلى السماء حتى ارتقى سبعا شدادا، وتجلى له ربه فلم يزغ من بصر ولا كذب فؤادا.

ثم من بعده على أسرته الطاهرة التي زكت أوراقا وأعوادا، وورثت النور المبين بلادا، ووصفت بأنها أحد الثقلين هداية وإرشادا، وخصوصا عمه العباس المدعو له بأن يحفظ نفساً وأولادا،وان تبقى كلمة الخلافة فيهم خالدة ولا تخاف درك أولا تخشى نفاذا.

وإذا استوفى العلم مراده من هذه الحمد له، واسند القول فيها عن فصاحته المرسلة فإنه يأخذ في انشاء هذا التقليد الذي جعله حليفا لقرطاسه، واستدام سجوده على صفحته حتى لم يكد يرفع من رأسه؛ وليس ذلك الا قاضية في وصف المناقب التي كثرت فحسن لها مقام الإكثار، واشتبه التطويل فيها بالاختصار، وهي التي لا يفتقر واضعها إلى القول المعاد، ولم يستوعر سلوك اطوادها؛ ومن العجب وجود السهل في سلوك الأطواد.

وتلك هي مناقبك أيها الملك الناصر السيد الأجل الكبير، العالم العادل المجاهد المرابط صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب.

والديوان العزيز يتلوها عليك بشكرك،ويباهي أولياءه تنويها بذكرك،ويقول:أنت الذي نستكفي فتكون للدولة سهمها الصائب، وشهابها الثاقب، وكنزها الذي تذهب الكنوز. وليس بذاهب وحاضرها وقد حضرت في نصرتها إذا كان غيرك هو الغائب؛

فاشكر إذا مساعيك التي أهلتك لما أهلتك، وفضلتك على الأولياء ثم فضلتك على الأولياء بم فضلتك ولئن شوركت في الولاء بعقيدة الإضمار، فلم تشارك في عزمك الذي انتصر للدولة فكان له بسطة الانتصار، وفرق بين من امد بقلبه وبينما مد بيله في درجات الإمداد، وما جعل الله القاعدة كالذي قال : لو أمرتنا لضربنا أكبادها إلى برك الغماد.

وقد كفاك من المساعي انك كفيت الخلافة أمر منازعيها، وطمست على الدعوة الكاذبة التي كانت تدعيها،ولقد مضى عليها زمن ومحراب حقها محفوف من الباطل بمحرابين،ورأت ماراه رسول الله صلى الله عليه وسلم من السوارين اللذين أولهما كذابين؛ فبمصر منهما واحد تجري أنهارها من تحته؛ ودعا الناس إلى عبادة طاغوته وجبته، ولعب بالدين حتى لم يدر يوم جمعته من يوم احده ولا سبته.

وأعانه على ذلك قوم رمى الله بصائرهم بالعمى والصم، واتخذوا صنما ولم تكن الضلالة هناك الا بعجل أو صنم؛ فقمت أنت في وجه باطلة حتى قعد ،وجعلت في جيده حبلا من مسد؛ وقلت ليده:تبت، فأصبح ولا يسعى بقدم ولا بطش بيد،وكذلك فعلت بالاخر الذين نجمت بالمين ناجمته، وسامت فيه سائمته، فوضع بيته موضع الكعبة اليمانية، وقال هذا ذو الخلصة الثانية فأي مقامك يعترف الإسلام بسبقه، ام ايهما بحقه.

وهاهنا فليصبح القلم للسيف من الحساد، وليقتصر مكانته وقد كان له من الأنداد،ولم يحط بهذه المزية الا انه أصبح لك صاحبا، وفخر بك حتى طال فخر كما عز جانبا، وقضى بولايتك فكان بها قاضيا،لما كان حده ماضيا.

وقد قلدك أمير المؤمنين البلاد المصرية واليمنية غورا ونجداً، وما اشتملت عليه رعيه وجندا، وما انتهت اليه أطرافها برا وبحرا،وما يستنقذ من مجاوريها مسالمة وقهرا. وأضاف اليها بلاد الشام وما تحتوي عليه من المدن الممدنة، والمراكز المحصنة مستثنيا منها ما هو بيد نور الدين إسماعيل بن نور الدين محمود رحمه الله هو حلب أعمالها؛ فقد مضى أبوه عن أثاره في الإسلام ترفع ذاكره في الذاكريه، وتخلفه في عقبة الغابرين، وولده هذا قد هذبته الفطرة بالقول والعلم، وليست هذه الربوة الا من ذلك الجيل؛ فليكن له منك جار يدنو منه ودادا كما دنا ارضا وتصبح له كالبنيان يشد بعضه بعضا؛ والذي قدمناه من الثناء عليك ربما تجاورتك درجة الاقتصاد والقتك عن فضيلة الازدياد. فإن تنظر الى سعيك نظر الإعجاب، فتقول: هذه بلادنا افتتحها بعد أن اضرب عنها كثير من الاضراب ولكن اعلم ان الأرض لله ولرسوله، ثم لخليفته من بعده، ولا منه للعبد

بإسلامه، بل المنة لله هداية عبده،وكم سلف قبلك ممن لورام امارته لدنا شاسعة واجاب مانعة؛ لكن ذخره الله لك لتحظى في الاخرة بمفازه، وفي الدنيا برقم طرازه فألق بيد عند هذا القول إلقاء التسليم، وقل " لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم".

ارضا وتصبح له كالبنيان يشد بعضه بعضا؛ والذي قدمناه من الثناء عليك ربما تجاورتك درجة الاقتصاد والقتك عن فضيلة الازدياد. فإن ان تنظر الى سعيك نظر الإعجاب، فتقول: هذه بلادنا افتتحها بعد أن اضرب عنها كثير من الاضراب ولكن اعلم ان الأرض لله ولرسوله، ثم لخليفته من بعده، ولا منه للعبد بإسلامه، بل المنة لله هداية عبده،وكم سلف قبلك ممن لورام مارته لدنا شاسعة واجاب مانعة؛ لكن ذخره الله لك لتحظى في الاخرة بمفازه، وفي الدنيا برقم طرازه فألق بيد عند هذا القول إلقاء التسليم، وقل " لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم".

وقد قرت تقليدك هذا بخلعه تكون لك في الإسلام شعارا،وفي الرسم فخارا، وتناسب محل قلبك وبصرك، وخير ملابس الأولياء ما ناسب قلوبا وابصارا، ومن جملتها طوق يوضع في عنقك موضعا المهد والميثاق، ويشير اليك بأن الأنعام قد أطلق بك اطاقة الأطواق بالأعناق.

ثم انك خوطبت بالملك وذلك خطاب يقضى لصدره بالانشراح، ولأملك وبالإنفساح، وتؤثر معه بمد يدك العليا لا تضمها الى الجناح

وهذه الثلاثة المشار إليها هي التي تكمل بها أقسام السيادة، وهي التي لا مزيد عليها في الإحسان فيقال أنها الحسنى وزيادة؛ فإذا صارت إليك فانصب لها يوما يكون في الأيام كريم الأنساب، واجعله لها عيدا وقل هذا عيد الخلعة والتقليد والخطاب.

هذا ولك عند أمير المؤمنين مكانة يجعلك إليه حاضرا وأنت ناء عن الحضور، وتظن ان تكون مشتركة بينك وبين غيرك والضنة من شيم الغيوب؛ وهذه المكانة قد عرفتك نفسهاوما كنت تعرفها؛ وما نقول إلا لك صاحبة وأنت يوسفها، فأحرسها عليك حراسة تقضي بتقديمها،واعمل لها فإن الأعمال بخواتيمها.

واعلم انك تقلدت امرا يفتن به تقي الحلوم،ولا ينفك صاحبه عن عهده الملوم،وكثير ما ترى حسناته يوم القيامة وهي مقسومة بأيدي الخصوم؛ ولا ينجو من ذلك الا من اخذ اهبة الحذار، واشفق من شهادة الإسماع والإبصار واعلم أن الولاية ميزان إحدى كفتيه في الجنة والأخرى في النار ؛قال صلى الله عليه وسلم:" يا ابا ذر اني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين،ولا تول، مال يتيم". فانظر إلى هذا القول

النبوي نظر من لم يخدع بحديث الحرص والامال،ومثل الدنيا وقد سبقت اليك بحذافيرها، اليس مصيرها الى زوال! والسعيد من اذا جاءته قضى بها ارب الأرواح لا ارب الجسوم، واتخذ منها وهي السم دواء وقد تتخذ الأدوية من السموم.

وما الاغتباط بما يختلف على تلاشيه المساء والصباح، وهو كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح.

والله يعصم أمير المؤمنين وولاة أمره من تبعاتها ما التي لا بستهم ولا بسوها، وأحصاها الله ونسوها، ولك أنت من الله هذا الدعاء حظ على قدر محلك من العناية التي حدثت بصنعك ومحلك من الولاية التي بسطت من ذرعك.

فخذ هذا الأمر الذي تقلدته اخذ من لم يتعقبه بالنسيان، وكن في رعايتك ممن إذا نامت عيناه كان قلبه يقظان؛ وملاك ذلك كله في إسباغ العدل الذي جعلته الله ثالث الحديث والكتاب،وأغنى بثوابه وحده عن أعمال الثواب؛ وقدر يوما منه بعبادة ستين عاما في الحساب، ولم يأمر به امرالا زيد قوة في أمره، وتحصن به من عدوه ومن دهره ثم يجاء به يوم القيامة وفي كَتاب أمان، ويجلس على منبر من نور عن يمين الرحمن؛ ومع هذا فإن مركبه صعب لا يستوي على ظهره إلا من امسك عنان نفسه قبل الإمساك عنانه، وغلبت لمة ملكه على لمة شيطانه ومن أكد فروضه ان تمحى السير السيئة التي طالت مدد أيامها، ويئس الرعايا من رفع ظلاماتها فلم يجعلوا امد الانحسار ظلامها؛ تلك السير هي المكوس التي أنشأتها الهمم الحقيرة، ولا غنى للأيدي الغنية إذا كانت ذا نفوس فقيرة؛ وكلما زيدة الأموال الحاصلة منها قدرا، زادها الله محقا وقد استمرت عليها العوائد حتى الحقها الظالمون بالحقوق الموجبة فسموها حقا ولو ان صاحبها أعظم الناس جرما لما أغلظ في عقابه،ومثلت توبة المرأة الغامدية بمثابة وهي أشقى ممن يكون السواد الأعظم له خصما،ويصبح وهو مطالب بما يعلم وبما لم يحط به علما؛ وأنت مأمور بان تأبى هذه الظلامات فتنهى عن اجرائها، وتلحق أسماءها في المحو بإهمالها؛ حتى لا يبقى لها في العيان صورة منظورة، ولا في الالسنة أحاديث مذكورة.

وإذا فعلت ذلك كنت أزلت عن الماضي سنة سوء سنتها يداه، وعن الاتي متابعته ظلم وجده طريقا مسلوكا فجرى على بداه، فبادر إلى ما أمرت به مبادرة من يضيق به ذراعا، ونظر إلى الحياة الدنيا بعينها فرأها في الآخرة متاعا . واحمد الله على أن قبض لك إمام هدى يقف بك على هداك، ويأخذ بحجرتك عن خطوات الشيطان الذي هو اعدى عداك وهذه البلاد المنوطة بنظرك تشتمل على أطراف متباعدة وتفتقر في

سياستها إلى أيد متساعدة، ولهذا يكثر بها قضاة الأحكام، وأولوا تدابيرات السيوف والأقلام ؛ وكل من هؤلاء ينبغي أن يفتن على نار الاختبار، ويسلط عليه شاهد عدل من أمانة الدرهم والدينار، فما أضل الناس شيء من أمرك، فأضرب عليه بالأرصاد ولا ترض بما عرفته من مبدأ حاله فإن الأحوال تنقل ينقل الأجساد، وإياك أن تخدع بصرح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب بالربيع بن زياد.

وكذلك نأمر هؤلاء على اختلاف طبقاتهم بان يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر محاسبين؛ ويعلموا أن ذلك من دأب حزب الله الذين جعلهم الغالبين، وليبدءوا اولا بأنفسهم فيعدلوها عن هواها، ويأمروها بما يأمرون به سواها، ولا يكونوا ممن هدى إلى طريق البر وهو عنها حائد، وانتصب لطب المرضي وهو محتاج إلى طبيب وعائد فما ترك بركات أسماء الأعلى من خاف مقام ربه والزم التقوى أعمل يده ولسانه وقلبه؛ فإذا صلحت الولاة صلحت الرعية بصلاحهم، وهم لهم بمنزلة المصابيح ولا يستضيء كل قوم إلا بمصباحهم. ومما يؤمرون به أن يكونوا لمن تحت أيديهم إخوانا في الأصحاب، وجيرانا في الاقتراب، وأعوانا في توزع الحمل الذي يثقل على الرقاب؛ فالمسلم اخو المسلم وإن كان عليه أميرا، وأولى الناس باستعمال الرفق من كان فضل الله عليه كثيرا، وليست الولاية لمن يستجد بها كثرة اللفيف، ويتولاها بالوطء العنيف، ولكنها لمن يمال عن جوانبه، ويؤكل من أطايبه، ولمن إذا غضب لم ير للغضب عنده أثر، وإذا ألحف في سؤاله تخلق بخلق الضجر، وإذا حضر الخصوم بين يديه عدل بينهم في قسمة القول والنظر، فذلك الذي يكون لصاحبه في أصحاب اليمين، والذي يدعى بالحفيظ العليم والقوي الأمين.

ومن سعادة المرء ان تكون ولاته متأدبين بأدابه، وجارين على نهج صوابه؛ وإذا تطاريت الكتب يوم القيامة كانوا حسنات مثبتة في كتابه. وبعد هذه الوصية، فإن هاهنا حسنة هي للحسنات كالأم الولود، ولطالما أغنت عن صاحبها إناء الجود، وتيقظت لنصره والعيون وقود وهي التي تسبغ لها الآلاء، ولا يتخطاها البلاء، ولأمير المؤمنين عناية تبعثها الرحمة الموضوعة في قلبه، والرغبة في المغفرة والرحمة لما تقدم وتأخر من ذنبه.

وتلك هي الصدقة التي فضل الله بعض عبادة بمزية افضالها، وجعلها سببا الى التعويض عنها بعشر امثالها؛ وهو يأمرك ان تفقد احوال الفقراء الذي قدرت عليهم مادة الارزاق، والبسهم التعفف ثوب الغنى وهم في ضيق من الاملاق؛ فاولئك اولياء الله

الذين مستهم الضيياء فصبروا، وكثرت الدنيا في يد غيرهم فما نظروا اليهـا اذ نظـروا. وينبغي لك ان تهيئ لهم من إمرهـم مرفقا، وتضرب بينهم وبين الفقر موبقاً.

وما اطلنا لك القول في هذه الوصية الا اعلاما بأنها من المهم الذي يستقبل ولا يستدبر، ويستكثر منه ولا يستكبر؛ وهذا يعد من جهاد النفس في بذل المال، ويتلوه جهاد العدو الكافر في مواقف القتال؛ وأمير المؤمنين يعرفك من ثوابـه مـا يجعـل الـسيف في ملازمته اخا، وتسخر له بنفسك أن كان احد بنفسه سخا ومن صفاته أن العمل المحبوب بفضل الكرامة،الذي ينمو أجره بعد صاحبه إلى يوم القيامة، وبـه يمـتحن طاعـة الخـالق على المخلوق، وكل الأعمال عاطلة لا خلوق لها وهي المختص دونها بزينة الخلوق، ولولا فضله لما كان محسوبا بشطر الإيمان؛ ولما جعل الله الجنة له ثمنا وليست لغيره مـن الاثمـان، وقد علمت أن العدو هو جارك الأدني؛ والذي يبلغـك وتبلغـه عينـا وأذنـا، ولا تكـون للإسلام نعم الجار؛ حتى تكون له بئس الجار ولا عذر لك في ترك جهاده بنفسك ومالك إذا قامت لغيرك الأعذار وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مصافحا، أو تطرق أرضه مماسيا أو مصابحا، بل يريد أن تقصد البلاد التي في يده قصد المستغير لا قصد المغـير،وان تحكم فيها بحكم الله الذي قضاه على لسان سعد في بني قريظة والنظير، وعلى الخصوص البيت المقدس فإنه بلاد الإسلام القديم، واخو البيت الحرام في شرف التعظيم، والـذي توجهت إليه الوجوه من قبل السجود والتسليم وقد أصبح وهو يـشكو طـوال المـدة في اسر رقبته، وأصبحت كلمة التوحيد وهي تشكو طول الوحشة في غربتهـا عنـه وغربتـه فإنهض إليه نهضة متوغل في فرحه،وتبذل صعب قياده بسمحه؛ وان كانت له عام حديبية فأتبعه بعام فتحة وهذه الاستزادة بعد سداد ما في اليد مـن ثغـر كـان مهمـلا فحميـت موراده، أو مستهدما فرفعت قواعده ومن أهمها ما كان حاضر البحر كأنه أعمـه عورتـه مكشوفة،وخطة مخوفة والعدو قريب منه على بعده وكثيرا ما يأتيه فجاءة حتى يشق برقـه برعده؛ فينبغي أن ترتب هذه الثغور رابطة يكثر شجعانها، ويقل اقرانها، ويكون قتالهـا لأن تكون كلمة الله هي العليا لا أن يرى مكانها، وحينئذ يصبح كل منها وله من الرجل اسوار، ويعلم اهله أن بناء السيف امنع من بناء الأحجـار؛ ومـع هـذا فـلا بـد لـه مـن اسطول يكثر عدده، ويقوى مدده، فإنه العمدة الـتي يـستعين بهـا علـى كـشف العمـاء، والاستكثار من سبايا العبيد والإماء، وجيشه اخو الجيش السليماني، فذاك يـسري علـى متن الريح وهذا يجري على متن الماء.

ومن صفات خيله أنها جمعت بين العوم والمطار، وتساوت أقدار خلقها على اختلاف مدة الأعمار، فإذا أشرعت قبل جبل متلفعة بقطع من الغيوم،واذا نظر إلى أشكالها قيل أهلة غير أنها تهتدي في مسيرها النجوم، ومثل هذه الخيل ينبغي أن يغالى من جيادها، ويستكثر من قيادها، ليؤمر عليها امير يلقى البحر بمثله من سعة صدره، ويسلك طرقه سلوك من لم تقتله يجهلها، ولكن قتلها بخبره؛ وكذلك فليكن ممن افنت الأيام تجاربه، ورحمتها مناكبه، وممن بذل الصعب ذا هو ساسه وان سيس لان جانبه، وهذا هو الرجل الذي يرأس على القوم فلا يجد هذه بالرياسة، فإن كان في ساقه، ففي الساقة أو كان في الحراسة ففي الحراسة وقد أفلحت عصبة اعتصبت من وراءه، أيقنت بالنصر من رايته كما أيقنت بالنجح من رايه.

واعلم انه قد اخل من الجهاد بركن يقدح في علمه،وهو تمامه الذي يأتي في أخره كما أن صدق النية تأتي في أوله؛ وذلك هو قسم الغنائم فإن الأيدي قد تناولته بالإجحاف، وخلطت جهادها فيه بغلولها فلم ترجع بالكفاف والله قد جعل الظلم في تعدي حدوده المحدودة، وجعل الاستئثار بالمغنم من اشراط الساعة الموعودة؛ ونحن نعوذ به أن يكون زماننا هذا شر زمان وناسه شر ناس، ولم يستخلفنا على حفظ أركان دينه ثم نهمله إهمال مضيع لا إهمال ناس والذي نأمرك به أن تجري هذا الأمر على المنصوص من حكمه، وتبرئ ذمتك مما يكون، غيرك الفائز بفوائده وأنت المطالب بأثمه، وفي أرزاق المجاهدين بالديار المصرية والشامية وما يغنيهم عن هذه الأكلة التي تكون غدا نكالا وجحيما، وطعام ذا غصة وعذابا أليما.

فتصفح ما سطرنهاه من هذه الأساطير التي هي عزائم مبرمات، بل آيات محكمات، وتحبب إلى الله والى أمير المؤمنين باقتفاء كتابها، وابن لك بها مجدا يبقى في عقبك إذا أصيبت البيوت في أعقابها؛ وهذا الذي ينطق عليك بأنه لميال في الوصايا التي أوصاها، فإنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها.

ثم أنه ختم بدعوات دعا بها أمير المؤمنين عند ختامه، وسال الله التي تتنزل من كل أمر منزلة نظامية ثم قال: اني أشهدك على من قلدته شهادة تكون عليه رقيبة وله حسيبة، فإني لم اره الا بأوامر الحق التي فيها موعظة وذكرى،ولمن تبعها هدى ورحمة وبشرى، واذا اخذ بها فلح بحجته يوما يسال فيه عن الحجج،ولم يختلج دون رسوله على الحوض في جملة من يختلج وقيل له: لا حرج عليك ولا اصم اذ نجوت من ورطات الإثم والحرج والسلام.

الملحق رقم (٩)

نص المنشور الذي اصدره الخليفة الناصر لدين الله سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧م كما أورده ابن الساعي في كتابه: الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السبر، ج٩، ص ص ٢٢٣-٢٢٦.

بسم الله الرحمن الرحيم، ومن المعلوم الذي لا يتمارى في صحته، ولا يرتاب في براهينه وأدلته أن أمير المؤمنين على بن أبي طالب- رضي الله عنه- هو اصل الفتوة ومنبعها،ومنجم أوصافها الشريفة ومطلعها، وعنه تروى محاسنها واادابها منه تشعبت قبائلها وأحزانها، واليه دون غيرة تنتسب الفتيان، وعلى منوال مؤاخاته النبوية الشريفة نسج الرفقاء والإخوان، وانه كان عليه السلام مع كمال فتوته ووفور رجاحته يقيم حدود الشرع على اختلاف مراتبها، ويستوفيها من أصناف الخسبات(كذا) على تباين جناياتها ومللها ونحلها ومذاهبها، غير مقصود عما أمر به الشرع المطهر وقرره، ولا مراقب في ما رتبه من الحدود وقرره، امتثالا لأمر الله تعالى في إقامة حدوده، وحفظا لمناظم الشرع وتقويم عموده، فإنه عليه السلام فعل ذلك بمرأى من السلف الصالح، ومسمع ومشهد من أخبار الصحابة ومجمع، فلم يسمع أن أحدا من الأمة لامه،ولا طعن عليه السلام في فتوته، واقتفى شريف شيمه وكريم سجيته أن يقتدي به عليه السلام في أفعاله، ويحتذى في ما استراعاه الله تعالى واضح مثاله، غير ملموم في ما يأتيه من ذلك، ولا معارض فتوة ولا شرعا في ما يورده ويصدره وقد رسم أعلى الله المراسم العلية المقدسة النبوية الإمامية وزادها نفاذا مقصودا بالصواب، وتأييدا ممتد الأطناب، محكم الأسباب على كل من تشرف بالفتوة برفاقة الخدمة الشريفة المقدسة المعظمة الممجدة المكرمة الطاهرة الزكية النبوية الإمامية الناصرة لدين الله تعالى، شرف الله مقامها وخلد أيامها وأعلى كلمتها ونصر رايتها: انه من قتل له رفيقا نفسا نهى الله تعالى عن قتلها وحرمه، وسفك دما حقنه الشرع المطهر وعصمه، وصار بذلك مما قال الله تعالى في حقه حيث ارتكب هذا المحرم، واحتقب عظيم هذا المائم" ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها " الاية أن ينزل عنه في الحال، في جمع من الفتيان عند تحقيقه لذلك ومعرفته،ويبادر إلى تغيير مخرجا له بذلك عن دائرة الفتوة التي كان تسما بها، مسقطا بها من عداد الرفاقة التي لم

يقيم بواجبها، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم، وان كل فتى يحوي قاتلا ويخفيه، ويساعده على أمره ويؤويه، ينزل كبيرة عنه ويغير رفاقته ويترا منه، وان من حوى ذا عيب فقد عاب وغوى،ومن اوى طريد الشرع فقد ضل وهوى، والنبي عليه السلام يقول:" من اوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا" ولا حدث اكبر من قبل النفس عدوانا وظلما، ولا ذنب أعظم منه وزرا وإنما فإن الفتى متى قتل فتى من حزبه سقطت فتوته ووجب أن يؤخذ من القصاص، عملاً بقوله:" وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والاذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص" وان قتل غير فتى عونا من الأعوان أو متعلقا بديوان في بلد سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة على كافة الأنام الناصر لدين الله امير المؤمنين وخليفة رب العالمين، فقد عيب هذا القاتل في حرم صاحب الحزب بالقتل فكأنما عيب على كبيرة، فسقطت فتوته بهذا السبب الواضح ووجب اخذ القصاص منه عند كل فتى راجح، وليعلم الرفقة الميمونة ذلك ليعلموا بموجبه، وليجزوا الأمر في أمثال ذلك على مقتضى المأمور به، وليقفوا عند المحدود في هذا المرسوم المطاع ويقابلوه بالانقياد والاتباع – أن شاء الله–.

وكتب في تاسع صفر سنة أربع وستمائة.

أما التعهد الذي كتبه كل واحد من رؤساء الأحزاب فهو كما يلي:

" قابل العبد ما تضمنه هذا المرسوم المطاع، وقابله بما يجب عليه من الانقياد والاتباع والامتثال، وهو الذي يجب العمل به فتوة وشرعا، وهذا المعروف من سيرة الفتيان المحققين نقلا، وقد ألزمت نفسي إجراء الأمر على ما تضمنه هذا المرسوم الاشرف، فمتى جرى ما ينافي المأمور به، المحدود فيه، كان الدرك لازما لي والمؤاخذة مستحقة على ما يراه صاحب الحزب، ثبت الله دولته واعلى كلمته وكتب فلان بن فلان في تاريخه".

المحتويات





حماده للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع
اربد - الأردن - تلفاكس ٧٢٧٠١٠٠ ص.ب ١٣٨٤



دروب
عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين - ت



اليازوري
دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع
عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين - تلفاكس 4614185 6 962+



ISBN 978-9957-890-69-8